حبات العقد



رواية عن "اشراط الساعة الكبرى"

د. بشير عرنوس

كان جسده متدليا للأسفل كالخفاش الذي ينام معلقا رجليه على أغصان الأشجار أو على سقوف الكهوف، ملتحفا جناحيه ورأسه للأسفل. بالتأكيد نحن لا نتكلم عن الرجل الخفاش، ولكن بطلنا هو مجرد ضابط صغير في بداية العمر، التفت حبال المظلة التي كان يرتديها حول رجليه و رغم حظه العاثر في بداية الأمر لكن القدر سانده لتلتقطه شجرة و تشنقه بشكل عكسي من أسفل قدميه. طالما تخيل بطلنا نفسه، سابقا، مشنوقا بهذه الطريقة، ولكنه أبدا لم يعرف أن الأحلام قد تصبح حقيقة ولو حتى في غياب الوعي. نتساءل ما الذي كان يدفعه لتخيل نفسه بهذه الوضعية؟ ما السبب وراء رغبته في أن يكون معلقا من أسفل قدميه ورأسه يتدلى للأسفل؟ هل هي كانت رغبة في جلد الذات؟ هل هي كانت طريقة للتعبير عن ظلم لحق به؟ أم تراها نوعا من انتظار ش يء لا يأتي؟ بالتأكيد نحن لن نعرف الدوافع و الأسباب التي دفعته لتخيل هذا الوضع كما انه نفسه على الأغلب لن يرى نفسه في هذه الوضعية و قد تحققت فعلا. ربما هو يشعر بعقله الباطن أن ما تخيله سابقا قد وقع فعلا؟ قد نتمكن من معرفة هذا الأمر فيما إذا استفاق و حدثنا هو عن الموضوع. لكن المثير في الأمر أن كثير من الأحلام و التخيلات والأماني قد تحدث و لو بشكل مختلف عن ما تمنيناه أو قد تحدث دون أن نعرف أنها حدثت.

ذو القرنين

في أعماقه كان يتخيل ش يء آخر مخالف بشكل كلي للوضع الذي هو به، مغايرا للحالة التي يعيشها، بعيدا كل البعد عن زمانه و مكانه. أين يا ترى بطلنا يحلق بخياله الآن؟ انه يرى فارسا منطلقا كسرعة الريح بجواده العظيم يترك خلف حوافره كتل من الغبار تتطاير خلفه كالشرر و تتصل مع جيش جرار يتحرك خلفه بمسافة ابعد، و كأنما هذا البطل المغوار هو رأس قطار ضخم يجر هذا الجيش و الغبار بينهم

هو ما يصل القاطرات بالرأس عادة. توقف بطلنا للحظة، صار يسال نفسه: هل هو مع ذاك الجيش؟ أم انه مجرد مراقب يجلس على تلة يمر الجيش أمامها؟ و بدون أن يعرف الإجابة أو أن ينتظرها حتى، عاد يركز النظر على ذلك الفارس المغوار، من بين الغبار و السرعة التي ينطلق بها الفارس وهيابة الموقف بشكل عام، تبين له أن الفارس يضع خوذة مميزة على رأسه، تس اءل ما ذاك؟ نعم أنهما قرنين، خوذة بقرنين؟ هل يريد هذا القائد أن يقول انه قوي كالثور؟ أم لهذين القرنين دلالة أخرى. أسره منظر الجيش مرة أخرى و شغله عن متابعة تحليل دلالة الخوذة ذات القرنين. عاد يتساءل من تراه هذا القائد؟ أين يمضي بهكذا جيش كبير؟ من يريد أن يقاتل؟

حدث نفسه أن لابد له أن يعرف تفاصيل أكثر، أن لابد أن يدرك ما وراء هذا القائد، شيء ما خفي جعله مشدودا لهذا الأمر، على رغم انه قد تكون هناك خطورة في الموضوع، فهو لا يعرف أي شيء، حتى انه لا يعرف ماذا هو نفسه كان يفعل هناك، ومن هو نفسه أصلا .

لاحظ بطلنا أن القائد يتجه بجيشه إلى منطقة تقع بين جبلين عظميين كأنهما سدين ضخمين، عادت الأسئلة الكثيرة و المحيرة التي تدور برأس بطلنا، من يقطن تلك المنطقة؟ هل هو يعلم أي ش يء عنهم؟ قال بنفسه يجب أن لا اشغل نفسي كثير بالأسئلة ولكن من الأفضل أن ألاحق الجيش لأرى ما يكون.

لاحظ فجأة أن القائد توقف وان هناك مجموعة من الناس اقتربت منه وكأنها تطلب مساعدته، اقترب أكثر ليسمع الحديث الذي دار بين المجموعة و القائد. و أول ما لاحظه أن هذا القائد و رغم الهيبة الكبيرة التي يتمتع بها فهو متواضع لا يتكبر و لا يتجبر و لا يتبطر ولكن أنصت بكل تواضع لحديث الناس وترجل عن فرسه لكي لا يكون أعلى منهم مع انه وحسب مظهره و الجيش الذي معه بدا ملكا عظيما.

لقد أحس بالذهول لتواضع هذا القائد من تراه يكون؟ ما هو اسمه؟ و عادت الأسئلة المحيرة تدور في رأسه وعندما انتبه إلى أن هذه الأسئلة تشغله عن متابعة الحوار فقد قرر أن يتوقف عن طرحها الآن و أن يطلق لقبا على هذا الملك. ما تراه سيسميه؟ نعم نعم ذو القرنين فأكثر ما يثير دهشته الآن منه هما القرنين على خوذته، إذن هو ذو القرنين.

كانت المجموعة التي خرجت من فجوة بين السدين تتحدث مع ذو القرنين بلغة غير مفهومة و بطريقة تظهر خوفهم من ش يء ما، بل هو ليس خوفا عاديا، إنما رعبا، كانوا يبدون و كأنهم أناس من العصر الحجري، من عصر ما قبل اللغة، أناس لا يملكون لغة تخاطب واضحة المعالم، كانت توسلاتهم له بمساعدتهم تظهر ضعفهم و حاجتهم الماسة للمساعدة. لاحظ كيف أن ذو القرنين بدأ يهدأ من روع المجموعة و طلب منهم أن يشرحوا قضيتهم بهدوء و تروي و بلغة مفهومة حتى يتسنى له معرفة المشكلة و كيف يحلها. قال بنفسه يا لروعة هذا القائد، جرت العادة أن يتخذ الفاتحين البلاد المفتوحة للكسب المادي و النهب و التقتيل و استعباد أهلها و تسخيرهم لأعمال الرق و العبودية، و لكنه وبكل تواضع يستمع إلى شكواهم.

لحظة، لا يجب الانطلاق بعيدا بالتخيلات، فهناك أحداث يجب متابعتها، حيث بدأت القصة تتضح، إذن تحدث شيخ تلك المجموعة والذي على ما يبدو كان احكمهم على رغم وضوح قصور الإمكانيات التعبيرية اللغوية لديه وقال باستخدام بعض الأصوات و الحركات التي أصبحت هادئة: ان هناك قومين يسكنون الجوار مفسدون في الأرض، يقتلون و يسرقون، يخربون الزرع و البيوت، يحرقون ويدمرون، لا يتركوا شيئا على حاله، يأكلون كل ما هو حي بما في ذلك البشر. انتبه بطلنا أن ذلك الشيخ سمى القومين، لحظة ماذا كان الاسم؟ يأجوج و مأجوج؟ يجب أن يتأكد منهم هل تراه سمع عنه قبلا؟ هل يعرف أي معلومة عنهما؟ راح يبحث في

خلايا الذاكرة القريبة و البعيدة منها، لكنه انتبه إلى انه عاد إلى الشرود مرة ثانية و غفل عن متابعة الحديث، فعاد مسرعا لرشده، قال الشيخ هل تساعدنا أن تبني بيننا و بينهم سدا و سنتكفل بكافة المصاريف التي يحتاجها بناء هذا السد الذي سيمنعهم من الوصول إلينا و الكف عن قتلنا و نهب خيراتنا والفساد في الأرض. توجه بطلنا بنظره مسرعا إلى وجه ذو القرنين، ما تراه سيقول؟ ماذا سيكون جوابه؟ هل سيكون كأغلب الملوك ليس لي بكم حاجة حلوا مشاكلكم ب أنفسكم، لدي مشاغلي و فتوحات عظيمة تنتظرني في مكان آخر؟ لكن لا، رأى بسمة رقيقة على وجهه، ليست بسمة استصغار أو احتقار لا، ليست بسمة صفراء لا، لكنها بسمة من فهم حاجة الناس و وصلوهم إلى نقطة الضيق الذي لا يحتمل معه أي ش يء، وصلوهم إلى نقطة الانفجار إذا لم تحل مشاكلهم، وصولهم إلى حد أن ليس من حياة دون هذا التغيير. ثبت نظره بعيون ذو القرنين و حاول أن يقرأ الجواب، هيا قلها، كان يهمس ببنت شفتيه، هي قل يا ذو القرنين انك ستساعد هولاء المستضعفين، انك ستقف إلى جانب الحق، رغم انك ملك عظيم، وكانت المفاجأة التي كانت ستقتل بطلنا من ذو القرنين في البداية على الأقل، فقد قال: لا حاجة لي، وهنا امتعض بطلنا بشكل كبير، لماذا؟ لماذا خيبت ... ولم يكمل بطلنا الجملة حتى وصل إلى مسمعه قول ذو القرنين لا حاجة لي بأموالكم فالله قد أمدني بالكثير الكثير من الأموال و كذلك مكنني في الأرض فقط أعينوني بقوة أجسادكم وسأبني سدا منيعا بينكم وبين المفسدون في الأرض. في هذه الأثناء كان قد وصل كل الجيش إلى تلك المنطقة و توقف ينتظر أمر الملك، وبإشارة منه ترجل المقاتلون و تحول الجيش مع مجموعة السكان المحليين إلى خلية نحل عظيمة تعمل دون كلل أو ملل تحولوا إلى ورشة بناء عملاقة إلى شركة بناء ضخمة. استخدم ذو القرنين وسيلة هندسية مميزة لبناء السّد. فقام أولا بتقسيم الناس إلى مجموعات، منها من يعمل بالحفر و تقطيع زبر الحديد المتواجدة بكثرة في الجبال المحيطة، و منها يعمل على

نقل هذه الحجارة على عربات صنعها من الأخشاب الموجودة في الغابات الكثيرة في تلك المنطقة، وفي الأماكن الوعرة كان الناس يحملوا الحجارة على أكتافهم وعلى ظهور البغال، و مجموعة كانت تعمل بالبناء حيث تم وضع هذه القطع من الحجارة و بنائها فوق بعض في الفتحة بين السدين حتى تساوى الركام مع قمتي الجبلين. ثم أمر المجموعة التي كانت تقطع الأشجار بجلب الكثير من الأشجار و وضعها أسفل البناء ولما تكدس العدد العظيم منها هناك أمرهم بوقد النار على الحديد، وكان قد طلب من مجموعة أخرى تجميع صخور فلزات النحاس و تذويبه بفرن ضخم أنشأه لهذا الغرض وسكب النحاس المذاب فوق البناء الحديدي ليلتحم وتشتد صلابته. فسدّت الفجوة، وانقطع الطريق على يأجوج ومأجوج، فلم يتمكنوا من هدم السّد ولا تسوّره. وأمن القوم الضعفاء من شرّهم.

عمل ذو القرنين مع جيشه و السكان المحليين لعدة شهور لم يحصها بطلنا لشدة ما كان مشغولا بالمراقبة، أم تراه كان واحد من الجنود الذين عملوا هناك؟ ولشدة ما كانت الأعمال كثيرة و الورش المتخصصة بكل نوع من الأعمال كثيرة والكل كان يعمل بدون كلل أو ملل، الكل كان مشغولا بتنفيذ المطلوب منه، لم يتذمر أحدا. بعد أن انتهى ذو القرنين من هذا العمل الجبار، وقف أمام السد و نظر للسّد، وحمد الله على نعمته، وردّ الفضل والتوفيق في هذا العمل لله سبحانه وتعالى، فلم تأخذه العزة، ولم يسكن الغرور قلبه. نعم النموذج الطيب للملك الصالح هو. يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيجتاح الأرض شرقا وغربا؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق. ثم يرجع كل خير يحققه الله على

يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله. وقف بطلنا مذهولا أمام هذا القائد النموذج هذا القائد الفذ، يالروعة هذا القائد، يالعظمته و تواضعه بنفس الوقت، يا لأيمانه القوي و المتين و ارتباطه بالله.

السقوط من عل

كان الراعي يتابع إبله المنتشرة في كل مكان والتي كانت تتنقل تأكل الأعشاب و الشجيرات الصغيرة، و التي هي اقرب إلى الأشواك من الشجيرات، المتناثرة كتلا متباعدة شيئا ما عن بعضها، كان الراعي يضرب الرمال بعصاه الرقيقة و يدندن أبيات شعر لا يعرف مصدرها، وتتابع حركة يده و ضربه الرمال بالعصا الوزن الذي يدندن به أغنيته، ولاحظ أن احد الجمال ابتعد أكثر من اللازم فأشاح بنظره نحوه يتساءل بنفسه ما يقصد هذا البعير، فإذا بشجرة بعيدة، لم يعرها اهتماما بادئ الأمر، قال بنفسه يطمع هذا البعير بالوفير من الأغصان، دعه يسرح، ولكنه توقف للحظة و تذكر شيئا ما يتدلى من تلك الشجرة، شيئا لا يشبه الأغصان، فعاد ببصره يتمعن المنظر من جديد، نعم انه مؤكد، شيئا ما يتدلى من تلك الشجرة، ما تراه يكون؟ وراح يخمن، ولأنه ليس لديه أي شيء يعمله غير التنقل مع هذه الجمال، التي أصلا لا تحتاج إلى وجوده معها، ولأنه يشعر بالوحدة، فلمعت برأسه فكرة انه الآن أمام مغامرة، إذن سينطلق ليمضي بعض الوقت باكتشاف ذلك الشيء المتدلي، و بذلك يكون قد مر بعض الوقت الذي يشعر به بالوحدة، كذلك حب الاستطلاع لدى البدوي أو القروي دفعه للمضي. في البداية كانت حركاته بطيئة بنفس الوتيرة التي كان يتحرك بها عندما كان يدندن أغنيته، ولكنه و كلما اقترب من تلك الشجر أكثر كانت حركاته تتسارع إلى أن أصبحت عدوا و جريا لما

استطاع أن يميز ذلك الشيء المتدلي، أيكون طيرا ضخما علق بتلك الشجرة؟ لا قال يحدث نفسه، ليس معقولا أن يكون طيرا بهذا الحجم، لا لا وطرد تلك الفكرة من رأسه، أيكون رداء أو لحافا حملته الريح و علق بالشجرة، لا لا ليس يبدو كذلك، كان يعرف بقرارة نفسه و لاقترابه أكثر من الشجرة أن ذاك الشيء ليس إلا إنسانا مثله، ولكنه لا يريد أن يعترف بذلك، أو على الأقل حتى الآن هو يريد أن يطرد تلك الفكرة من رأسه. لقد سمع بالأمس عن طائرة سقطت بعيدا عن المنطقة التي يعيش بها، لكنه لم يعرف أي تفاصيل عن الحادثة، و لا عن الجهة التي انطلقت منها الطائرة، ولا حتى الجهة التي كانت تقصدها. صار يتسأل بقرارة نفسه أيكون عدوا؟ أم جارا صديقا؟ أتراه من هذه البلاد؟ أم خواجة؟ ولم يمكنه حب الاستطلاع من الانتظار أكثر للإجابة على هذه الأسئلة فانطلق مسرعا يركض ناحية الشجرة. يا الله انه إنسان، انه شاب، وضع وجهه أمام رأس الشاب المعلق بالشجرة، وشعر بأنفاس الشاب البطيئة والدافئة نوعا ما على وجهه. الحمد لله الحمد لله مازال حيا، مازال يتنفس تمتم بتلك العبارات و نظر للأعلى و لكن كيف علق هناك، كيف أصبح مشنوقا من قدميه، كيف سيساعده من دون أن يؤذيه؟ تمعن بوجه الشاب فعرف انه عربي الملامح انه شقيقه بالقومية انه من نفس البلد أو على الأقل من بلد عربي مجاور. عاد بنظره إلى الأعلى، كيف سيفك تلك الحبال؟ ولو انه صعد الشجرة و قطع الحبال و سقط الشاب ربما دقت عنقه؟ وبدل أن يكون ساعده على النجاة سيكون قتله بيده؟ يا الله ماذا سيفعل؟ وانطلقت عبارة لا حول ولا قوة إلا بالله رددها أكثر من عشر مرات، ثم انتبه لنفسه وقال: يجب أن استدعي المساعدة وانطلق بسرعة الريح نحو جماله، اعتلى أول بعير صادفه و انطلق به نحو القرية.

ماذا عن بطلنا ؟ ماذا يجول بخاطره ؟ هل رأي شيئا ؟ هل سمع شيئا ؟ هل عرف أن الراعي قد عثر عليه؟

للأسف لا، كان انطلاق الراعي فوق بعيره في تلك اللحظة لا يقابل إلا منظر ذو القرنين فوق جواده، مع الفرق الشاسع بينهما، وكانت النوق المنتشرة بالمكان تقابل الجيش الجرار وأيضا الفرق شاسع بين المنظرين. لكن هذا ما كان يراه بطلنا وهذا هو الخيال، حيث يمكننا من رؤية ما لا يصدق أو رؤية ما ليس بواقعي. هل كان بطلنا يحلق بالخيال ليسلي نفسه في هذا الانتظار الطويل في هذه القفار؟ هل كان هو من اختار هذا المشهد؟ في كثير من الأحيان يصعب علينا الرد على هذا السؤال و على الأغلب حتى صاحبها لا يملك الإجابة عنها، إذ أن هناك أنواع من التخيلات، منها أحلام اليقظة و التي تحدث باختيار صاحبها و منها تخيلات تأتي كالروئ كالأحلام لا يملك الإنسان أحيانا تفسيرا لحدوثها.

ها هو الراعي يعود من جديد و معه مجموعة من الرجال، منطلقين بسرعة على ظهور الجمال نحو تلك الشجرة. يتقدمهم الراعي صارخا بسرعة ياشباب انه هناك، هل ترونه؟ انه ما زال حيا. ترجل الرجال من على جمالهم وتحلقوا حول الشاب المتدلي وبدأ كل واحد يحلل الموقف، قال احدهم انه عسكري، وقال الآخر انه يبدو في أول العشرينات من العمر، قال الثالث انه عربي، قال الرابع نعم مازال حيا، وقطع صوت الراعي هذه التحليلات التي لا فائدة منها، قال دعونا الآن نفكر كيف ننزله، قالوا نعم نعم صدقت، قال الراعي سأصعد الشجرة أنا و واحد آخر لنقطع هذه الحبال المتشابكة، بينما أربعة من الأسفل يسندون جسم الشاب لينزلوه ببطء على الأرض وبعدها نفكر كيف ننقله. قال الجميع نعم الرأي وانطلق الراعي يتسلق الشجرة بسرعة واضعا سكينه بين أسنانه و اختار معه شابا خفيف الوزن يصعد معه. عندما وصل إلى الغصن العالقة به الحبال، قال تجهزوا ياشباب، لا يفلت منكم الشاب، قالوا توكل على الله، بدأ الراعي و صديقه بقطع الحبال الواحد تلو الآخر وبدأ جسم الشاب يتمايل و ينزل شيئا فشيئا من احد الجوانب و الرجال في الأسفل يسندونه.

بينما تحرك جسم الشاب نتيجة قطع الحبال من احد الأطراف، حاول الرجال أن يحدثوه، يهزوا رأسه قليلا محاولين جعله يعود لوعيه، بعضهم بدأ بقراءة بعض آيات القرآن مقتربا بشفتيه من أذن الشاب، ولكن لا استجابة. في أعماق الشاب لمعت بشبكته العصبية إشارة بسيطة، بالتأكيد لم يلحظ الرجال شيئا، لأنها مجرد إحساس داخلي لدى بطلنا، دفين و عميق، من الممكن انه سمع أصوات بعيدة جدا لدرجة انه لا يميزها، أم تراها اختلطت مع الكلمات المبهمة التي خاطب فيها السكان المحليون لمنطقة السدين القائد ذو القرنين، كان يستطيع أن يميز شيء عن الحبال، هل تراهم بحارة؟ هل تراهم قراصنة؟ يحاولون ربطه على مركب و تركه ليعوم وحيدا في وسط البحر؟ وعادت وغارت الأصوات عميقا. انزل الرجال جسد الشاب و مددوه على الأرض، قال احدهم يجب أن نحذر بتحريكه، ربما يكون مكسورا فنزيد بكسره وألمه، اقترح الآخر أن يصنعوا نقالة من الأخشاب و يضعوه عليها، ولاقت الفكرة استحسان الباقين، فهرعوا يبحثون عن أغصان طويلة و متينة يصنعوا منها الحمالة، بسرعة كان الرجال قد جهزوا الحمالة و بدئوا بنقل الشاب عليها، عاد الشعور الدفين الداخلي للشاب و تخيل نفسه يصلب على الأخشاب، صرخ، ولكن بدون صوت مسموع، أين تراكم تأخذوني، لماذا تصلبوني؟ ماذا فعلت لكم؟ ما هو ذنبي؟ وعندما وضع الرجال جسده على النقالة، اقترح احدهم تثبيت يديه و رجليه إلى الأخشاب العريضة الأساسية في جسم النقالة، فهز الجميع رأسهم بالموافقة و بدأ صاحب الرأي البحث عن شيء يثبت به اليدين و القدمين، وبسرعة قطع قطعة من ثوبه، و قسمها إلى أربع شرائط و بدأ يربط، صرخ الشاب من جديد، وأيضا من دون صوت، يا ويلكم من الله، ما هو ذنبي لتدقوا المسامير في يداي و قدماي؟ للحظة ظن نفسه شبيه المسيح (عليه السلام) تدق بيديه و قدميه مسامير ضخمة تجعل الدم ينفر من مكانها، حدق نحو يديه و قدميه، رغم أن عيونه كانت مقفلة فما رأى دما، صرخ بهم من جديد، توقفوا، ماذا تفعلون بي؟

لست شبيه المسيح، مالكم لا تسمعون صراخي؟ وأنا اصرخ بأعلى صوتي؟ حدث نفسه، هل تراهم لا يسمعون؟ أم يسمعون و يتجاهلون توسلاتي؟ انتهى الرجال من تثبيته وقال قائل منهم: هل سنحمله؟ قال الآخر لنربط طرف النقالة ببعير هادئ و سوف يجره بلطافة فوق الرمال، أومأ الجميع بالموافقة وبدئوا بتنفيذ المخطط، عاد بطلنا يصرخ بداخل أعماقه، هل ستثبتونني على هذا القارب و تلقوا بي إلى اليم وحيدا؟ كيف لو قلبت الأمواج هذا القارب، صرخ وصرخ ولكن احد لم يسمع له كلمة أو حركة شفة.

انطلق البعير يجر النقالة و عليها الشاب و مع الحركة ازداد القلق الداخلي للشاب، ربما كان يتلفظ بالشهادتين، ربما كان يقول لا حول ولا قوة إلا بالله، حتى هو نفسه ما عاد يتبين تلك الكلمات القادمة من أعماق لا وعيه، قال: يا الله كم هو الموج عالي في هذا اليم، أكيد انه عالي، إنني اشعر بحركة القارب يتأرجح مع هذه الأمواج، وما عاد يسمع أي كلمات حوله، قال: الأكيد أنهم رموني في اليم و تركوني امضي لقدري وحيدا في هذا اليم، وغاص من جديد في حالة من اللاشعور المطلق.

بعد مسيرة ساعة أو يزيد وصل الرجال إلى المركز الصحي بالقرية و تجمهر الناس من حولهم وحول الشاب المحمول فوق النقالة، الكل يتسأل من يكون؟ وكيف وصل به الحال إلى هذه الحال؟ وصار البعض يجيب لابد انه كان على متن الطائرة التي سقطت بعيدا عن هنا. خرج الطبيب و الممرض مسرعين على صوت جلبة الناس في الخارج و طلبوا منهم الابتعاد عنه و نقلوه إلى الداخل.

بينما كانوا يحملونه و وسط هرج الناس، عاد شعاع بسيط يلمع داخل أعماق الشاب، سمع صوتا يهمس دفينا بداخله، ربما وصلت إلى الضفة الأخرى من اليم، ربما عدل القوم عن موضوع صلبي؟ ربما عرفوا أنني برئ؟ ربما تأكدوا بأنني لست

شبيه المسيح؟ صمت قليلا و حدث نفسه من جديد و هل أن يكون المرء شبيه المسيح هي تهمة؟ وعاد يغوص عميقا داخل خفايا نفسه.

بدا الطبيب بفحص قلب الشاب، وقال: القلب يعمل، الحمد لله القلب ينبض ببطء ولكنه ينبض، تحسس تنفسه وقال يتنفس ببطء أيضا، حاول فحص ردة فعل الشاب بتسليط الضوء على عيونه، لا إشارة، نقر على ركبته، لا إشارة، تسآل بنفسه هل تراه يغوص بمكان بعيد؟

نظر الطبيب بوجوه الرجال وبعد أن صفن قليلا قال: لن نستطيع فعل أي شيء له في هذا المركز الصغير، يجب نقله و بسرعة إلى مشفى المدينة القريبة. تحمس الرجال بسرعة للمساعدة و حملوا جسد الشاب ليضعوه على النقالة، قال الطبيب سنضعه على نقالة حقيقية ياشباب. وانطلقوا به إلى العربة.

النفق

كان جسده ممددا على السرير في المستشفى و محلول التغذية موصول إلى ذراعه و قناع الأكسجين على انفه، كان يبدو بشكل أفضل من الأمس، لكنه لا يزال يحلق في مكان ما. دخل الطبيب الغرفة بينما كانت الممرضة تقيس الحرارة و الضغط، سأل الطبيب كيف حال مريضنا اليوم؟ ما هي قراءات الحرارة و الضغط؟ وبدأ بوضع السماعة على صدره و همهم قائلا انه يتحسن لكن ببطء شديد، ألقى نظرة على تقرير المريض اليومي، الحرارة لا تعجبني، يجب أن نعمل على تخفيضها و استقرارها، كذلك الضغط لا يزال منخفضا أكثر من اللازم، لنضاعف كميات الدواء و نزيد دواء جديدا ونرى النتائج في المساء، نظر جهة الممرضة وأردف قائلا: لكن أبقيني على اطلاع في حال حدث طارئا. وانطلق باتجاه الباب لمتابعة جولته

الصباحية على المرضى وعند الباب توقف والتفت سائلا الممرضة، هل عرفتم من يكون؟ هل عرفتم اسمه؟ قالت لا، قالت لديه رقم على معصمه، ربما يدل على هويته، قال إذن اطلبي من الجهاز الإداري الاتصال بمن يلزم لمحاولة معرفة هويته و انصرف.

كان بطلنا قد أمضى ليلته أو النصف منها ممددا على السرير، لا ندري ماذا يجول بخفايا عقله، هل كان يتذكر أشياء حدثت معه؟ هل كان يحلم بماض أو بمستقبل؟ أم تراه كان يتخيل قصص تاريخية؟

في هذه الأثناء خرجت الممرضة من الغرفة لتحضر و حسب تعليمات الطبيب كميات مضاعفة من الدواء التي أعطته إياه قبل قليل و إضافة الدواء الجديد الذي وصفه له الطبيب، بينما كانت تهم بالدخول للغرفة وجدت شخصا ملتحيا يلقي نظرة على الغرفة، سألته هل أنت قريب المريض؟ هل تعرف من يكون؟ أجاب الملتحي بالنفي، قال فقط اعتدت عيادة المرضى للتخفيف عنهم و كسب الأجر، سأل بدوره هل ممكن زيارته، أجابت الممرضة عندما يستفيق من غيبوبته، قال و ما حاله، قالت ألا ترى أني مشغولة الآن و تركته و دخلت الغرفة، وقف الملتحي عند الباب لبرهة، تمتم بعض العبارات، والتي هي على الأغلب دعاء للمريض بالشفاء و انصرف. حقنت الممرضة العلاج المضاعف و الجديد للمريض داخل كيس محلول التغذية، اطمأنت أن أنفاسه ما زالت تخرج و تعود تحسست النبض وقالت الله يشفيك وخرجت. أكملت جولتها على باقي المرضى في القسم و بعد مرور ساعة من الزمن عادت لمكتب الاستقبال الخاص بالقسم لتسجل بعض المعلومات الخاصة بالأمور الإدارية وعند اقترابها من مكتب الاستقبال انتبهت بأن الملتحي ما زال يقف هناك، استغربت الأمر لكنها لم تعره الكثير من الأهمية، جلست خلف مكتبها و بدأت تكتب عندما باشرها بالسؤال، أليس معه أقارب أو معارف؟ اهو

غريب؟ قالت و ما شأنك أنت، قال فقط شعرت بشيء غريب يجعلني اهتم لأمره، ربما لأنه شابا فتيا و ليس احد جانبه، لكن وبمجرد انك قلتي انتظر حتى يستفيق من غيبوبته شعرت بشيء غريب يدفعني للاهتمام به، و أردف سائلا هل ممكن أن ادخل لغرفته وأقرأ له بعض آيات القرآن؟ قالت لكنه فاقد الوعي، قال ربما تساعده، و تأكدي لن المسه أو المس أي شيء في الغرفة، كما أنني لن اصدر أي ضجة، سأقرأ بصوت منخفض جدا، قالت و ما الفائدة؟ قال: فيه شفاء للصدور، شعرت الممرضة بشيء من الراحة وقالت، لا تلمس شيء ولا تصدر ضجة، قال شكرا و كوني متأكدة من ذلك.

بينما كان يجري هذا الحديث بين الممرضة و الملتحي، بدا المريض من الخارج هادئا، لكن انتظر، يا للهول ما الذي يحدث في الداخل ؟ هل هو إعصار يدور بشكل فظيع يجتاح كل ما هو حوله؟ أم بركان يقذف الحمم لتملأ المكان بسخونة عالية؟ أم زوبعة هبت بصحراء تنتقل بها الكثبان بسرعة هائلة؟ انتظر ما الذي يحدث؟ أين يذهب؟ دوائر بدأت كبيرة واسعة ممتدة تحركت بشكل بطئ بالبداية و كأنها صحن فضائي طائر كذلك الذي يحاول فنانو الأفلام الكرتونية رسمه أو مخرجي أفلام الخيال العلمي تخيله و وصفه، يعمل بحركة دائرية يلتف بحركة بطيئة حول محوره ما أن تتسارع بشكل كبير لينطلق الصحن الطائر محلقا بعيدا و بثواني لا تعد تراه، هل يحلق على متن إحدى هذه الصحون؟ بدأت حركة دائرية بطيئة، دوائر تحركها كانت واسعة، تذكر أمه، تذكر إخوته، تذكر طفولته، رأيت وجوه كل من كان معه، مر شريط حياته مسرعا، أمام عيونه، وكنت أرى بعيونه، هل هو يبكي؟ ما هذا الازدحام بذكرياته؟ ما هذه الفوضى بتسلسل الأحداث؟ راحت تضيق الدوائر و تزيد السرعة، وتزداد سرعة عرض شريط الذكريات و تداخلها مع بعض ها البعض أكثر فأكثر، إنها تصل لسرعات جنونية، إنها قريبة من سرعة الضوء، انه يرى نور غامر، نور شديد البياض، يشع بقوة، وبوسطه يستطيع أن يرى فتحة نفق، نعم إنها

فتحة نفق، تكاد لا ترى لشدة سطوع النور حولها لكنها هناك، لكن ما معنى كل هذا؟

في هذه اللحظات دخل الملتحي الغرفة و تقدم من السرير ليلقي نظرة على وجه المريض، لأنه ومن أول مرة شعر بوجهه ش يء من الألفة أو ابتسامة غامضة لم يعرف سببها ولم يجد تفسيرا لها، مما جعله يهتم أكثر، عله يكتشف ش يء، وصار عنده بالإضافة إلى السببين الذين ذكرهم للممرضة سبب أقوى، من ناحية النفس البشرية ألا و هو حب الاستطلاع و اكتشاف الأشياء و شي من الحشرية. أول ما انتبه له هو تصبب جبهة الشاب بالعرق ولاحظ اختفاء الابتسامة و شعر بأن شيء ما غير طبيعي يحدث مع المريض، تلمس جبهة المريض، وجدها تشتعل من ارتفاع الحرارة، ركض مسرعا باتجاه مكتب الاستقبال، و بش يء من الارتباك و الخوف و التلعثم، قال الحقي على الشاب، الحقي ش يء ما يحدث له، خرجت الممرضة مسرعة من خلف المكتب و أسرعت باتجاه غرفة المريض.

دخلت الغرفة مسرعة، لاحظت تصبب جبهته بالعرق، للتذكير فقط ، أول شيء لاحظته الممرضة بخصوص بطلنا، انه أجلى الجبهة أقنى الأنف، استدعت الطبيب بشكل سريع، طلب منها إعطائه خافض قوي للحرارة طلب استعمال كمادات على جبهته، تركتهم يقومون بعملهم من الخارج و غصت مجددا في أعماق الشاب، حيث تركناه يقترب من نور يشع من نفق، هل تراه عبر ذلك النفق؟ و ماذا يكون هذا النفق؟ إلى أين يمضي؟ هل هذه واحدة من رحلاته التخيلية؟ انه ليس هناك، ياللهول أين مضي؟ هل يكون..... ، لا لا يجب، المفروض انه بطل القصة، وقد تعودنا أن البطل يصمد للأخير، لحظة، هناك همس ما، ترى ما هو؟ لا ليس صوته، لقد عرفت صوته من قبل، ليس هو، من يكون؟ هناك على الأكيد أكثر من صوت في ذاك النفق، جمعت قواي لمعرفة كنه الحديث الذي جرى، فهمت بعض

الكلمات مثل، ماذا أتى به؟ لم يحن وقته، عليه أن يعود، ليس الآن، لم أتمكن من رؤية المتحدثين، كان النور الساطع يملأ المكان من جهة بعيدة جدا، لكنني ر أيت خيال شخص، حاولت التركيز وأنا أتمنى بداخلي بكل قوة أن يكون هو، نعم انه هو إنني استطيع أن أميز وجهه المدور و تربيعة جسده انه هو، حتى حركاته، مع أنني لم أراها سابقا، غير أنني متأكد إنها له، إذن هو يعود.

تنفس كل من الطبيب و الممرضة و الملتحي، الذي ما زال يقف بجانبهم دون أن يشعروا بوجوده، لشدة انشغالهم بالمريض، تنفسوا جميعهم الصعداء و قالوا الحمد لله خفضت الحرارة، الحمد لله كدنا أن نفقده، التفت الطبيب للممرضة قال توقفي عن إعطائه الدواء الجديد وسأستبدله بش يء آخر اكتبه ل ه لاحقا بعد أن تأخذي عينات من دمه و تجري تحليلا جديدا عليها، و التفت الطبيب و نظر إلى الملتحي و قال من تكون؟ هل أنت من أقاربه؟ أجابت الممرضة، لا ليس من أقاربه لكنه اعتاد أن يزور المرضى للأجر، كما يقول، و هو الذي نبهنا لتأزم حال المريض، قال شكرا لك، ولكن هذه مهمتك، اطلبي من إحدى الممرضات الأخريات القيام بالأعمال الأخرى و ابقي أكثر وقتك تراقبين هذا المريض، على الأقل لهذا اليوم و الليلة، حتى تستقر حالته، قالت حاضر يا دكتور.

شعر الملتحي بشيء من الحرج، و خرج متمنيا للمريض الشفاء و مودعا الطبيب و الممرضة، كذلك خرج الطبيب ليتابع عمله مع باقي المرضى، خرجت الممرضة و عادت مسرعة و معها الأدوات الخاصة بسحب عينات الدم، و سحبت عينة من الدم و انطلقت بها للمختبر و طلبت إجراء التحليل بشكل مستعجل.

الهدوء ما قبل العاصفة

مرت الممرضة مسرعة على مكتب العلاقات العامة بالمستشفى، سألت الموظفة هناك، هل حصلتم على رد بخصوص المريض الجديد؟ هل عرفتم من يكون؟ نظرت الموظفة بشيء من الاستهجان وقالت و ما الفرق؟ قالت الممرضة: عفوا، ابتسمت الموظفة، فتابعت الممرضة إن الدكتور طلب مني معرفة التفاصيل و تزويده بها فور وصولها، قالت الموظفة: بالتأكيد، على أي حال لم نحصل على أي معلومات حتى الآن، فور حصولنا عليها سأعلمك. سارت الممرضة في الممر الطويل عائدة إلى القسم الذي تعمل به، كانت مشوشة الأفكار، كانت تشعر بتعب و نعس، لقد قضت اغلب ليلتها الماضية في غرفة المريض، تجلس على كرسي جانب السرير، تراقب وضع المريض، تغفو لحظات و تستيقظ لحظات، حتى غرقت في سبات عميق ممكن لم يدم أكثر من ساعة و استيقظت على حركة دخول عاملة التنظيف، تبادرها التحية و تسأل الإذن بتنظيف الغرفة. تذكرت بينما كانت تسير كيف راقبت وجهه، شعرت فورا بشي من الخجل الداخلي، وابتسامة صغيرة قمعتها قبل أن تمتد على شفاهها، هل تعاطفت معه؟ هل وجدته جذابا؟ قالت لا لا يجب أن يتوقف هذا الحوار فورا، لا يجب حتى أن أفكر بهذا الأمر، عادت و تذكرت ما قاله الملتحي عن شعوره الغير مفسر، ترى ماذا كان يقصد ؟ هل أصابني نفس الشعور؟ لكن هو لديه مبررات أخرى، هو شخص يرغب بالأجر الأخروي على عيادة المريض، وأنا اعمل هنا و اكسب اجر دنيوي، مرت بجانب ممرضة أخرى ألقت عليها تحية الصباح، و مرت ممرضتنا دون أن ترد أو تنتبه حتى، قالت الأخرى بتعجب: صفاء، ماذا دهاك؟ ونكزتها بيدها، عندها انتبهت، إذن اسمها صفاء، اسم على مسمى كما يقال، فتاة ببداية العشرينات بوجه أول ما يقول لك : الصفاء، قالت الأخرى: أين تشردين؟ تبدين مرهقة، تنفست صفاء الصعداء، لأنها

وجدت لها مخرجا بنفسها، قالت آسفة جدا، فعلا أنا تعبة لم انم ليلة أمس ، قالت الأخرى بسبب المريض الجديد، قالت: نعم حالته كانت سيئة جدا و طلب مني الطبيب الاستمرار بمراقبته، هزت الأخرى رأسها وقالت: فكرت ! و مضت. مضت صفاء أيضا، قالت بنفسها تراها قصدت شيئا؟ تراها ر أت شيئا بعيوني، و انتبهت لنفسها بماذا صرحت فقط الآن، لا لا ليس بعيوني أي شيء أنا فقط متعبة ليس أكثر. كانت الساعة قد قاربت على الثامنة صباحا، و حان موعد تسليم ورديتها، كانت قد أعطت مريضنا كل الأدوية المطلوبة، و أحضرت نتائج التحليل الذي طلبه الطبيب منها أمس و جهزت نفسها للانصراف إلى المنزل لتعود بالصباح التالي لاستلام وردية جديدة. إذن هي ممرضة جيدة، نفذت كل ما طلب منها، حتى أنها ذهبت للتأكد فيما إذا كان مكتب العلاقات العامة قد علم أي شيء عن هوية المريض، تسآلت مرة ثانية، لماذا هي تبرر كل هذه الأشياء؟ لماذا تعقد الأمور؟ و هي أمور كانت تعملها بشكل يومي مع كثير من المرضى ولمدة ستة أشهر منذ بداية عملها في هذا المستشفى و منذ بداية عملها في الأصل، فهي كانت قد تخرجت قبل ستة أشهر فقط.

عندما كانت تودع الممرضات من الوردية التي تستلم مكانها، حضر الطبيب، توجه فورا بالحديث لصفاء وقال: كيف كانت ليلة مريضنا؟ عرفت صفاء من يقصد الطبيب بالضبط، قالت: الحمد لله لم يحدث أي اضطرابات، نتائج التحليل مرفقة مع التقرير اليومي، كذلك كل معلوماته الطبية لفترات ا لمساء و الليل و الصباح، حقنت علاجه كما أوصيت بالضبط، لاحظ الطبيب التعب على وجه صفاء وقال: الله يعطيك العافية، اذهبي و ارتاحي، قد تعبت الأمس و الليلة الماضية، شكرت صفاء الطبيب لملاحظته جهدها و غادرت مبتسمة. في منتصف الممر المؤدي إلى المخرج قابلت الملتحي، عرفته فورا، و هو كذلك، ألقى عليها التحية، فردت بخجل، قال: كيف حاله؟ شعرت بخجل أكثر ولكنها لم تظهره، قالت: لا يزال في غيبوبته،

لكن حرارته مستقرة، قال: هل يمكنني زياراته، قالت عليك أن تسأل الممرضة المسئولة عن وردية اليوم و مضت مغادرة. برغم أنها الآن غادرت المستشفى، لكن ظلت الأفكار تحاصر ذهنها المرهق، و زاد لقائها الملتحي تشويشا، بعدما حاصرت الأفكار التي راودتها و مسحتها، هي تظن أنها فعلت، لكنها لم تفعل، هي وضعتها بمكان ما من الذاكرة مظلم، فقط كي لا تراها، و جاء الملتحي ليضئ شمعة في تلك البقعة من الذاكرة، قالت بنفسها من جديد: ما سر اهتمامه بالمريض؟ لدرجة انه يأتي مبكرا، مع انه يعلم أن ليس هناك من أي مواعيد للزيارة في هذا الوقت، قالت: ليت أنني سألته، ثم عادت و انتبهت للفكرة و انبت نفسها، كيف افعل شيء كهذا؟ سيعتبر تطفلا بالتأكيد، و انتبهت لممرضة أخرى من قسم آخر تسير بجنبها ، تبادلت التحية معها و ردت على الأسئلة المعتادة التي تطرح بهكذا لقاء، و غرست عيونها في نقطة غير محددة لكنها بعيدة، كثيرا ما يعتقد البعض أننا نحدق بشيء ما حسب اتجاه مسار الرؤية، لكننا نكون بعالم آخر و لا نرى ما مفروض أن نراه ضمن مجال الرؤية و حسب المسار، إذن هل كانت صفاء في منطقة بعيدة؟ أم تراها كانت تبحث عن أجوبة بوجوه المارة و المباني في الطريق، أم تراها كانت تهرب من أسئلة ملئت ذهنها؟

مر اليوم و الليل دون أي تغيرات تذكر على مريضنا، قامت الممرضة المسؤولة عن وردية هذا اليوم و الليلة بكافة الإجراءات المطلوبة على أكمل وجه، كما تعودت أن تفعل كل يوم عمل وبدون أي تعاطف يذكر. حاول الملتحي أن يزور المريض و لكنه فشل وعاد في وقت الزيارة و سمح له فقط بإلقاء نظرة من الباب، فدعا للمريض بالشفاء و ذهب يمر على باقي الغرف يزور المرضى الآخرين و انصرف.

الغصة

في الصباح التالي كانت صفاء تدخل المستشفى و تسير مسرعة ترغب بالوصول بسرعة للقسم الذي تعمل به، صفاء ممرضة مثابرة لا تتأخر عن عملها، لكن رغبتها اليوم بالوصول بشكل أسرع كانت أكثر من المعتاد؟ هل هي فقط الرغبة المهنية و الإنسانية للاطمئنان على المريض؟ ما هو رأيك يا صفاء ؟ قالت : كيف تقول شيء كهذا؟ طبعا هي الحالة المهنية ليس إلا، قلت: لكن هناك مرضى آخرين، قالت: ماذا تقصد؟ وقالت: توقف، و أغلقت النافذة المطلة على ذهنها و طردتني من بين بنات أفكارها. اتجهت مسرعة إلى غرفة المريض، ألقت نظرة سريعة مسحت بها المكان بشكل عام، ليس كل المكان، و لكن المساحة الخاصة بالسرير، تأملت وجهه من جديد و شعرت بالخجل يسري بجسدها، تلمست حرارته و تذكرت انه هناك تقرير خاص بالمريض و ممكن معرفة هذا التفاصيل منه، شعرت بالخجل مجددا، سحبت التقرير المعلق بالسرير، حاولت القراءة و فهم ما يحتوي التقرير، الحرارة معقولة، الحمد لله، كانت تقول بنفسها، الضغط لم يتحسن، لكنه على الأقل لم يسوء، شعرت ب أحد آخر يشاركها الغرفة، أو على الأقل يقف بالباب، التفتت للخلف لتجد الملتحي يقف بالباب، شعرت بخوف، و شعر الملتحي أنها تفاجأت لوجوده، قال مسرعا و بأسف شديد: اعتذر إن كنت أخفتك، تمالكت نفسها و عادت لرشدها وقالت: حرام عليك يا شيخ، ارحمني و ارحم نفسك قليلا، ما زال الوقت مبكرا جدا، قال لم استطع النوم، شيئا ما دفعني للمجيء، قالت: ما ذاك؟ قال: لا ادري، صدقا لا ادري، قالت: الله يستر بس. قال: هل ممكن أن اجلس عنده بالغرفة لبعض الوقت؟ شعرت صفاء بتعاطف كبير مع الملتحي؟ مع تكلفه عناء القدوم باكرا لشخص لا يعرفه، شخص لا يمت إليه بأي صلة، شعرت ببعض الفضول بالشيء الذي منعه النوم و القدوم باكرا، قالت:

يمكن ولكن ليس الآن، انتظر ساعة حتى يكون مر الطبيب و عندها يمكن أن تزوره، قال: أشكرك سأنتظر، كما تأمرين و غادر.

لأول مرة تشعر صفاء بالارتياح لشخص ملتحي، كانت تخافهم بالقبل، تشعر بهم غلظة كبيرة، كانت تنفر منهم، ترى شررا يتطاير من وجوههم، لكن هذا مختلفا عنهم، رغم أنها لم تتعرض إلى أي ملاحظات من الملتحين كما يواجه العديد من بنات جيلها، أكيد، لأن صفاء فتاة ملتزمة، محتشمة بلباسها، خجولة و مؤدبة.

أعادت التقرير الذي كان لا يزال بيدها بعد أن تأكدت أن المريض حصل على كل الأدوية في فترة ما بعد الفجر و همت بالخروج وتفاجأت مرة ثانية بالملتحي قاد عاد، قالت: اتفقنا بعد ساعة! بعد أن يكون الطبيب قد زاره! قال: نعم، قالت: فما أعادك بسرعة؟ قال: لا ادري لكن ش يء ما دفعني، كنت أتلو بصدري آيات من القرآن الكريم و وجدتني اشعر انه يجب أن اتلوها عنده، تفاجأت الممرضة وقالت: حالك غريب ياشيخ، آسفة لقول هذا و لكن و دون أن ينتظر أن تكمل جملتها بادر الملتحي وقال: أنا نفسي اشعر بأن هذا غريب و غير طبيعي، أنا نفسي لا أفهم ما يحدث معي. قالت: ممكن أن اسأل؟ قال: تفضلي، قالت: ما الآيات التي كنت تقرأها؟ اضطرب الملتحي عند سماعه سؤالها، قالت: ألا تذكر الآيات؟ قال: اذكرها، قالت: إذن ! قال : ستستغربين، كما فعلت أنا، فلازلت ابحث عن رابط ولا أجده، قالت: فقط قل، حسنا، ظننتك ستقرأ آية الكرسي و المعوذات، حسنا، يمكنك القراءة لربع ساعة قبل حضور الطبيب، وأنا سأنزل للأسفل قليلا. جلس الملتحي على الكرسي جانب السرير، وضع يده بخفة فوق رأس المريض وبدأ بالمعوذات، كانت فكرة جيدة من الممرضة أن تذكرها، و انتقل لآية الكرسي، وظلت الأفكار تشتته، كانت الرسالة آيات محددة، لم تكن بينها الكرسي أو المعوذات، قال بفكره حسنا، حسنا، لن تضر هذه أيضا، بدون أن يشعر راح يتلو:

طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، حدث نفسه من جديد لماذا اهرب من الآيات التي شعرت أنني يجب أن اقرأها له؟ لماذا هذا الارتباك و الخوف؟ فقط يجب أن اقرأها حتى لو أني لا افهم لماذا هي بالتحديد، حسنا، سأتلو الآيات من سورة الكهف، بدأ الملتحي بقراءة الآيات وأنا غادرته لأغوص من جديد اطمئن على بطلنا من داخل أعماقه، كان يشعر بهدوء رائع، كنت استطيع أن اسمع الآيات، تترقرق كمياهغدير سلسة عبر نفسه، و فجأة، و بدون أي مقدمات انقلب الهدوء إلى عاصفة و الصمت إلى صراخ، كانت الآيات التي يتلوها الملتحي: (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99)) الكهف : 92- 99، حتى أنا تساءلت لماذا هذه الآيات؟ ما علاقتها بالموضوع؟ و عدت اسمع صريخ بطلنا، ماذا تفعل يا ذو القرنين. هل نسيتني خلف السد؟ هل تبني سدك فوق صدري؟ انك ما تركت لي حتى ثقب أتنفس منه، هل أنا من المفسدين؟ كنت شديد الإعجاب بك ولا زلت، ربما انك لم تنتبه لوجودي بالمكان؟ اصبت أنا شخصيا لهذا الحوار، هل بطلنا يحدث ذو القرنين؟ ولكن كيف؟ ذو القرنين عاش من آلاف السنين؟ و بطلنا يعيش اليوم، ما الذي حدث؟ ما الخطأ في الموضوع؟ و عدت اسمع كلام بطلنا يقول، طبعا كلام داخلي، ربما أنني وقفت أراقب من خلف السد، ربما ألقيت نظرة على قومي يأجوج و مأجوج؟ اصبت بالذهول مجددا، هل بطلنا يحلم؟ هل بطلنا يظن

نفسه هناك؟ في هذه الأثناء ألقيت نظرة للخارج، كان الطبيب يتفحص المريض، عندما دخلت الممرضة و قالت بنوع من الفرحة: وصلت المعلومات عنه، قال الطبيب: آه، فهمت انه ينتظر أن تقرأ له، قالت: الاسم: محمد ، اسم الأب: عبد الله، شعر الطبيب برعشة أو انتفاضة خفيفة حدثت على صدر المريض، أرادت الممرضة متابعة القراءة لكن الطبيب أوقفها ليس وقت هذا الآن، أظن أن المريض يتعرض لذبحة صدرية، أسرع و وضع السماعة على قلبه و أكد الموضوع، و بكل ما أوتي من قوة راح يضغط على صدر المريض و طلب من الممرضة تجهيز حقنة خاصة، ركضت مسرعة، أعادتني صرخات بطلنا، التي كنت اسمعها منفردا، و التي تعالت من جديد للغوص من جديد، كانت صرخاته تطلب من ذو القرنين أن يخرجه من هناك، انه ما عاد يحتمل ثقل السد فوق صدره، أخر ما سمعته قوله: من يغمس ذاك السيف بكتفي و يدفعه بكل ما أوتي من قوة؟ انه يخترق الكتف إلى الأسفل كسيخ من النار، شعرت بغصة قوية تخنق صوته الذي كان من ثانية يملأ أركان نفسه، شعرت بالألم الفظيع الذي يعانيه، انه ألم لا تتحمله الجبال، بدأ يختفي صوته، بدأ يهرب إلى أماكن عميقة و مظلمة لم استطيع حتى أن أتبين بها أي شيء، قررت الخروج بسرعة لأرى ما يحث بالخارج، كان الطبيب يحاول بيده الضغط بكل ما أوتي من قوة على صدر المريض، عندما وصلت الممرضة بالحقنة بيدها، قال هاتي بسرعة و غرزها بقلبه مباشرة و حقنها، كنت اشعر بأنها تدخل قلبي أنا وليس قلب بطلنا، شعرت بالخوف، شعرت بالألم، شعرت بقلبي يعتصر، نظرت حولي رأيت وجه صفاء الذي كانت الابتسامة لا تفارقه، ابتسامة ليست عادية كتلك التي تكون على الشفاه فقط أو على غمازات الوجه مع الشفاه و لكن ابتسامتها كانت بالعيون، ابتسامة تملآ عيونها السوداء الكبيرة تزرعها حقولا من ياسمين، ابتسامة تجعلها تغمض عيناها قليلا تزيدها روعة و جمالا، تزيدها سحرا و غواية، لكن انتظر هل هذا وقت التغزل بصفاء؟ ألا تحترم الموقف الصعب الذي يمر

به بطلنا؟ يا للعيب، فعلا شعرت بش يء من الخجل، كانت عيون صفاء كغيمتين كانونيتين مليئتين بقطرات المطر، سوداويتين داكنتين، تنتظران شرارة تجعلهما تنهمران بسيول من الأمطار، يحبس تلك الشرارة دعاء انطلق بداخلها و توسل إلى الله بأن ينجيه، شعرتني أنا نفسي أجهش بالبكاء، شعرت بغصة في حلقي، نظرت إلى الملتحي رأيت دموعه تقطر من ذقنه و أجهش بالبكاء الذي أصبح مسموعا، طلب الطبيب من الممرضة أن تخرجه، ولماذا هو هنا أصلا، كان الملتحي متسمرا كلوح خشب إلى الجدار لا يقدر على الحراك، سألت بنفسي ماذا يحصل في هذه الغرفة؟ ما هذا الجنون الغير معقول، بطلنا يستصرخ ذو القرنين الذي عاش من آلاف السنين، و يشعر بالسد يجثم فوق صدره، الملتحي يبكي كطفل صغير و يبدو متخشبا، صفاء تعيش أسوأ لحظات حياتها، خوفا فظيعا ما عرفت مثله قط قبلا، خلال عملها لستة أشهر رأت عدة حالات وفاة، لكنها لم تتأثر بشكل فظيع كما فعلت اليوم، أنا شعرت بغصة عنيفة ورغبة كبيرة بالبكاء رغم أنني لم أكن طرفا في الموضوع ولا حتى كنت موجودا بجسدي هناك، يا للذهول، يا للجنون، وحده الطبيب ظل متماسكا يضغط بقوة و يحاول بكل علمه و جهده مع المستحيل.

ولجت مجددا، سمعت اصواتا، نعم اعرف هذه الأصوات، سمعتها من قبل، نعم سمعتها، لكن أين ؟ و متى ؟ كانت الأصوات تقول ما بال هذا الشاب؟ للمرة الثانية يحاول دخول النفق، ألم نخبره أن وقته لم يحن؟ و رأيته يقذف به من جديد من فوهة النفق الذي يلفه النور، حاولت أن أرى المتحدثين، لكنني لم استطع رؤية شيء، ولكنه هنا، سألته أين السد؟ طبعا لم أكن انتظر جوابا، لكنني ذهلت عندما قال: أي سد تقصد؟ قلت الحمد لله، الحمد لله و خرجت مسرعا. كان الطبيب يردد كلماتي: الحمد لله، الحمد لله، عاد النبض لقلبه، عندها بكت صفاء، لكنها كانت دموع الفرح، ذرفت صفاء كمية كبيرة من الدمع لم أرى مثيلا لها بحياتي، امتلئ خمارها على صدرها بالدموع حتى صار مبتلا بالكامل، حاولت أن لا يخرج

صوت بكائها ولكنها فشلت، أجهشت ببكاء حزين و معشق بالفرح، كيف يتغشى شعور الفرح العارم الحزن والخوف الذي يأخذك إلى حدود الشهقة أحيانا؟ كيف تختلط و تمتزج السعادة الخالصة بالألم الفاجر؟ تأتي كأمطار قوية تغسل كل شيء تعيد الطهارة إلى مكانها، غريبة هذه المشاعر لدى الإنسان، يتحمل أحيانا ألم اكبر من طاقة الجبال، تمر به لحظة، أو اقل من لحظة، شعور يحس به و كأن قلبه يعتصر بقبضة مارد ضخم، يشعر بتمزق روحه، وبلحظة ممتزجة بالتي سبقتها و مع هطول أول دمعة تغمره السعادة العارمة، يا الله كم يتحمل الإنسان ! كيف تجتمع الفصول كلها بعيون صفاء؟ غيوم داكنة، مطر، ثلوج، شمس، رياح، نسيم أزهار بنفسج و ياسمين؟ كيف تتعشق الأشياء ببعضها؟ نظرت و انتبهت للملتحي يسترق النظر من الباب، شعرت بشيء من الخجل، كيف الرجل يبكي وأنا أناقش أحجية متعلقة بالمشاعر الإنسانية و أسقطها مثالا حيا وبشكل جمالي على عيون صفاء، سمع الملتحي كلام الطبيب ، حيث انه كان متخفيا خلف الباب، لكنه أراد أن يتأكد بعيونه، فخير أن ترى مرة من أن تسمع الف مرة، تذكرت الآيات التي قرأها، نعم لقد قرأ عن ذو القرنين و عن سد يأجوج و مأجوج، لكن ما علاقة هذا ببطلنا؟ هل تراه سمع القراءة و تخيل نفسه يبني السد مع ذو القرنين؟ هل حركت به الآيات ذكريات قديمة؟ رحلة قام بها يوما ما؟ أم أنها مجرد تخيلات و هلوسات اختلطت بعقله الباطن عند سماعها تتلى عليه؟ هل حدث نوع من التعشق هنا بنفسه أيضا؟ اعني تعشق الكلمة بالروح؟ أم أنها ليست بالروح؟ ربما بالعقل؟ أو ربما بالقلب؟ أو بخلايا الذاكرة؟ كم هي معقدة الأمور، فأين تخزن المشاعر فينا؟ شعرت بأنه أصابتني عدوى التعاطف نفس التي أصابت صفاء و ربما الملتحي أيضا، ليس مهما الآن تحليل المسألة، المهم انه عاد، المهم انه هنا من جديد.

القنبلة الكهرومغناطيسية

دخل الطبيب إلى غرفة بطلنا في جولته الصباحية بينما كانت الممرضة تقيس حرارة و ضغط مريضنا، بادرها بالتحية الصباحية و دون أن ينتظر الرد سأل: ما هو وضع مريضنا اليوم ؟ و أيضا بدون انتظار الجواب مد يده ليلتقط تقرير المريض و تابع بسؤاله هل صورتم المريض بأشعة اكس لمعرفة فيما إذا كان هناك كسور في جسمه ؟ وهنا انتهى صبر صفاء على هذه الأسئلة المتلاحقة و قررت قطع سيل هذه الأسئلة. قالت: سلمك الله يا دكتور، هل نسيت انه لا توجد كهرباء و لا أي جهاز الكتروني أو كهربائي يعمل بعد الذي حصل، رد الطبيب، يا الله، فعلا، سمي الإنسان إنسانا من النسيان، أي انه ينسى بسرعة، و رغم ذلك، نعم من الصعب علينا التعود بسرعة على الأوضاع الجديدة، تظل عاداتنا القديمة تظهر نفسها بدون أي إرادة منا. ألم يقولوا: الطبع غلب التطبع. قالت صفاء: معك حق يا دكتور. إذن سنجري فحصا سريريا للمريض للتأكد من عدم وجود كسور و على الأغلب سنضطر إلى الانتظار لمتابعة العلاج واستقرار حالته و حتى يستفيق للتأكد من كل ذلك، أردف الطبيب بينما هو يتابع قراءة ملف المريض، همهم قائلا: الوضع جيد، حالته استقرت نوعا ما، لم تتحسن بالشكل المطلوب، لكن المهم لم تنتكس.

حتى صفاء نفسها لم تكن اعتادت الوضع الجديد بعد الحرب التي وضعت نهاية مريعة للتكنولوجيا البشرية، بلحظة توقف العالم كله، بلحظة تعطلت كل المصانع و الطائرات و السفن و السيارات و الأجهزة و الكمبيوترات و أجهزة الاتصالات و أجهزة المستشفيات، كل شيء يمت بصلة للالكترونيات و يعمل بالكهرباء توقف، كأنما روحا سحبت من جسد واحد مترامي على كل الكرة الأرضية و تركته جسدا مشلولا بلا حراك. بلحظة عادت الأرض إلى ما قبل العصور الوسطى فيما يتعلق

بالأجهزة و التكنولوجيا المتطورة جدا و التي عملت الحضارة الإنسانية على تطويرها خلال القرنين الماضيين.

ياللهول، فكرت صفاء، الإنسان نفسه من طور كل هذه التكنولوجيا التي جعلت من حياته ابسط و ساعدته في شتى مجالات الحياة، لا بل استبدلته أحيانا في مجالات مرهقة و خطرة، و هو نفسه من طور الآلة المجنونة التي أنهت كل هذا الحلم الجميل بثواني بعد قرون من الجهد و العمل المضني لملايين العلماء و الباحثين و المصنعين، هو نفسه من زرع الشر وسط حقول الخير، هو نفسه من أباد حقول الياسمين برشة مبيد.

تذكرت صفاء كيف كانت تنتقل بالحافلة أو السيارة و تصل بسرعة إلى جامعتها و إلى عملها في الأشهر الماضية، كيف كان عملها سهلا مع وجود الكثير من الأجهزة الطبية، كيف كانت تمضي اوقاتا حلوة بمشاهدة محطات مختلفة و تتعرف على أخبار العالم بسهولة و سرعة فائقة، كيف كانت تتواصل مع صديقاتها و أهلها بالهاتف المحمول أو عبر الانترنت. يا الهي، أيكون هذا كله كان حلما؟ أم تراها تعيش كابوسا ستستيقظ منه قريبا لتجد أن أي شيء لم يتغير؟

كانت القنبلة الكهرومغناطيسية هي العامود وليس القشة التي يحكى عنها بالمثل الشعبي و التي قصمت ظهر البعير ولم تكن الضحية البعير طبعا وإنما كوكب الأرض بالكامل قد شل. أنهت هذه القنبلة الحرب العالمية الثالثة التي اشتعلت منذ عدة شهور بين تكتل حلفاء اغلب دول العالم ضد مجموعة دول شرقية، و كانت قد أتت على دمار رهيب لمدن كثيرة في أرجاء المعمورة، دمار للأسلحة الفتاكة التي لا تفرق بين الإنسان و الحيوان و الشجر و البناء و لا تستثني أي ش يء، كانت أعداد القتلى حول العالم بالملايين و تركزت الأعداد بشكل اكبر في البلدان الشرقية و كذلك تركز الدمار الكلي في تلك المناطق، مما اجبر إحدى تلك الدول ، و

بلحظة يأس إلى إلقاء قنبلة، سميت بالكهرومغناطيسية، و طبعا صفاء لا تعرف أي شيء عن هذه القنبلة ولا حتى عن الأسلحة التقليدية الأخرى، ولكن سمعت من الناس أن هذه القنبلة تقضي على المجال الكهرومغناطيسي و تشل عمل الكهرباء و بالتالي تشل كافة الأجهزة الالكترونية و الكهربائية، و هذا ما قد رأته بأم عينها يحدث حولها. لم تكن بلدة صفاء، و الحمد لله على ذلك، قد نالت الكثير من الدمار التقليدي أثناء الحرب، لكنها و كباقي مدن العالم اجمع تعطل بها كل ش يء و عادت إلى القرون الوسطى مع وجود ناطحات السحاب، السيارات الفارهة، الطيارات، القطارات، السفن، المصانع العملاقة ولكن كلها جثة هامدة.

حتى أنها لم تكن تتوقع وجود سلاح له تأثير شمولي على كامل كوكب الأرض، هل يمكن بضغطة زر إنهاء حضارة عمرها آلاف السنين؟ هل يمكن بإلقاء قنبلة ، لا يتجاوز حجمها المتر المكعب ، على بناء في مدينة كانت تعتقد نفسها آمنة، أن ينتقل الدمار و بسرعة الضوء ليغطي الملايين من الأمتار المربعة حول العالم، لا بل كل كوكب الأرض !

طبعا القنبلة و من الناحية العلمية لا يمكن أن تكون فقط كهرومغناطيسية ولكن بالضرورة أن تتكون بالإضافة إلى هذا الشق مع مكون نووي أو شيء آخر اخطر منه، و لكن هذا ما وصل إلى مستوى وعي صفاء بالأمور العسكرية و هذا م ا تناقله العامة من الناس و رددته صفاء مثلهم.

هذه الحرب كانت قد وقعت بعد موجة من الثورات الشعبية التي انتقلت كالنار في الهشيم في اغلب بلدان المنطقة و التي كانت تطالب الشعوب فيها بالحرية و راح خلالها مئات الآلاف من الشهداء و كثر خلالها الهرج و المرج، و لم يعد الناس يعرفون فيما يقتلون، و قبل أن تنعم شعوب المنطقة بالحرية التي حصلوا عليها بأبهظ الأثمان اشتعلت الحرب العالمية الثالثة. و قد كان قبل هذه الثورات احتلال لعدة

بلدان في المنطقة من قبل الجيوش الأمريكية بشكل خاص و الغربية بشكل عام و التي راح جرائها الملايين من الشهداء و المشردين، و التي أدت إلى دمار كبير في البلاد و العباد و وانتشر بعدها كثرة القتل حتى أنه لا يدري القاتل لما قتل و المقتول فيما قتل , و انتشار الزنا بشكل كبير و انتشار الربا و الخمور و العازفات والأغاني والمغنيات والراقصات و تطاول الناس في البنيان.

وكل هذا كان بهدف سلب المقدرات النفطية لهذه البلاد و تدمير جيوشها بهدف تأمين الحماية لدولة محتلة زرعت غصبا بقلب العالم العربي و تسمى إسرائيل.

استفاقت صفاء من هذا الشرود لتنتبه إلى أن الطبيب يطلب منها إحضار جبيرة جبسية مؤقتة، حيث انه شك بوجود كسر بسيط في عظمي فخذ و ساق المريض أو على الأقل شعر في هاتين العظمتين.

قال: لنضع جبيرة مؤقتة، إلى حين أن يعود مريضنا من غيبوبته.

تميم الداري

كان الطبيب و الممرضة تساعده يقومان بلف الجبيرة حول فخذ و ساق المريض، و لم يكن يبدو على مريضنا أي ردة فعل، قررت انه قد مر يوما كاملا و لم أتفقد أحواله، إذن حان وقت الولوج إلى عقله الباطن.

كانت تعم حالة من الهدوء في نفسه تتناغم مع نبضات قلبه الهادئة و دخول و خروج النفس إلى و من صدره، حاولت أن اكلمه، طبعا، لم يكن هناك أي استجابة، حدثت نفسي: كيف أحاول ذلك أصلا و هو غائب عن الوعي، و

للحظة توقفت، تذكرت انه خاطبني، نعم لقد فعل، كيف غاب ذلك عن ذهني ؟ بالتأكيد أنا اذكر انه أجابني أي سد تقصد عندما سألته عن السد عندما تعرض لذبحة صدرية، أنا متأكد أنني لم أصاب بداء الهلوسة كما يفعل بطلنا، أنا متأكد أنني سمعته يقول ذلك و ردا على سؤالي، و لكن هل من الممكن أن يكون رده مجرد مصادفة جاءت من هلوسات يعيشها؟ لا ، لو كانت مصادفة لما تطابقت مع نوع السؤال، لما جاءت كجواب دقيق على سؤال صريح، بالتأكيد يمكنني التخاطب مع عقله الباطن، ولكن كيف و متى؟ كررت محاولتي بالسؤال، لكنني توقف بسرعة لأنني بدأت ألحظ تقلب في ذلك الهدوء الذي ساد المكان من لحظات، ماذا يجري؟ سمعته يتكلم عن قيود، شخص ما مكبل، خرجت لبرهة للخارج، وجدت الطبيب و الممرضة يكملان شد الجبيرة، حللت بسرعة الموقف، هل تراه يشعر بالجبيرة كقيود تشد على ساقه ؟ عدت للداخل مسرعا، مازال يتمتم، فهمت اسم تميم، لكن من يكون هذا التميم؟ ماذا؟ تميم الداري؟ من هو ؟ سألته من جديد، من يكون تميم الداري؟ هل هو صديقك ؟ هل هو شخص تعرفه؟ هل كان معك أثنايقول:ة وقوع الطائرة؟ و للذهول سمعته يقول: انه صحابي، ماذا ؟ صحابي؟ هل تقصد من صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ قال: نعم، ولذهولي لم انتبه إلى انه يحادثني الآن، وليس مجرد جواب واحد قد يكون مجرد صدفة لهلوسات، لكن الوضع اخذ شكل محادثة، انتبهت مجددا، و قلت: هل تراه؟ هل تحدثه؟ ماذا يخبرك؟ سمعته يقول انه هناك، انه مكبل، قلت من المكبل؟ تميم الداري؟ لم يعد يحادثني الآن، عرفت انه يهلوس، أو ربما بدأ رحلة أخرى عبر الزمن، تمنيت لو يأخذني معه، تراه سيعود إلى ما قبل أربعة عشر قرنا للوراء ؟ يا لحظه، سيرى رسول الله (صلى الله عليه و سلم)، لو أنني أسافر معه في هذه الرحلة، لو أنني أتمكن من مرافقته و مشاهدة ما يحدث، لو أنني طلبت منه ذلك عندما كان يحادثني، كررت محاولة طرح الأسئلة عليه، ولكن و للأسف دون جواب. غاص من جديد بعيدا لا اعرف

أين يكون أو ماذا يفعل، لا ادري من يخاطب، أو ماذا يشاهد، منذ يومين كان يخاطب قائدا عاش منذ آلاف السنين ولم يكن فقط يخاطبه بل كان يشعر نفسه موجودا معه هناك بين السدين، لا بل شعر بأن السد بني على صدره، يا لغرابة هذا الإنسان، يتنقل بين الأزمنة، كما نتنقل بين غرف المنزل، لا بل و أسرع مما نفعل.

بالخارج، كان وجه الطبيب مطمئننا فلم اشعر بأي خوف على المريض، ولكنه لا يدري انه قاد غادر برحلة، تراه انطلق بشكل سلس في هذه المرة ؟ فال الطبيب مخاطبا الممرضة : غطي الجبيرة بشكل محكم بكيس من النايلون و اطلبي من اثنين من الممرضين أن يغسلوا جسد المريض و لينتبهوا إلى ضرورة أن لا يحركوه بحركات قوية أو مفاجئة وإنما بسلاسة و بأقل حركة ممكنة، وأردف قائلا: يجب غسل كافة المناطق وحتى من الخلف و انطلق خارج الغرفة.

جهزت صفاء المريض كما طلب الطبيب و استدعت اثنين من الممرضين و شرحت لهم بالتفصيل ما عليهم فعله و الطريقة المطلوب التعامل بها و غادرت الغرفة. بدأ الممرضين بمسح جسد المريض بقطعة قماش مبللة، ثم أعقبوها بأخرى تحتوي على مواد مطهرة و نوع من الصابون السائل و كانوا يهمون بغسله لاحقا بالماء فشعرت بضرورة أن أغوص مجددا في الأعماق لأنني توقعت ردة فعل داخلية. ما أن بدأت بالتسلل إلى الداخل حتى سمعت استغاثات مريضنا، أنه يركب سفينة يلعب بها الموج، ويجرها إلى عرض البحر، فهمت من كلامه المخنوق أن الموج كان عاليا و الماءِ ينهمر على السفينة و من فيها من كل مكان. سمعت انه ينادي من جديد تميم الداري، تذكرت انه كان رَجُلًا نَصْرَانِيًّا فَجَاءَ للرسول صلى الله عليه و سلم فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ ، لحت حوالي ثَلَاثِينَ رَجُلًا على ظهر السفينة ، لَعِبَ بِهِا الْمَوْجُ شَهْرًا كاملا فِي الْبَحْرِ ، حتى وصلوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ كَثِيرَةُ الشَّعَرِ لَا يتبين الإنسان مقدمتها من

مؤخرها مِنْ كَثْرَةِ الشَّعرِ، فَقَالُوا : وَيْلَكِ مَا أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ . قَالَتْ: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ : أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ . قَالَ : لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً . قُلْنَا:انْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا ، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ . قُلْنَا : وَيْلَكَ مَا أَنْتَ ؟ قَالَ قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَحْنُ أُنَاسٌ مِنْ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ ، فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا ، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لَا يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ ، الشَّعَرِ فَقُلْنَا : وَيْلَكِ مَا أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ . قَالَتْ: وَمَا الْجَسَّاسَةُ ؟ قَالَتْ : اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ . فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا وَفَزِعْنَا مِنْهَا وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً . فَقَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ ؟ قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ ؟ قُلْنَا لَهُ : نَعَمْ . قَالَ : أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ . قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ . قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : هَلْ فِيهَا مَاءٌ ؟ قَالُوا : هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ . قَالَ : أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ . قَالَ : لَهُ:رُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ . قَالُوا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ ؟ قُلْنَا لَهُ : نَعَمْ ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا. قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ. قَالَ : أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : كَيْفَ صَنَ وَأَطَاعُوهُ.أَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنْ الْعَرَبِوَأَطَاعُوهُ.. قَالَ لَهُمْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا

اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا. كنت استمع و أنا مذهولا مما أرى و اسمع، حتى أنني نسيت المريض، علقت عيوني بهذا المسخ المكبل بالقيود، كان ممسوح العين، شعره شديد الجعودة، غزير بشكل رهيب ، وأنه شاب أحمر ممتلئ الجسم، قصير القامة ، منحسر الشعر في الجبهة ، عريض النَّحر أعلى الصدر، فيه شيء من الانحناء، أعور العين اليمنى كأنها عنبة بارزة، وأعور اليسرى ولكن العور في اليمنى أظهر ، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤها المتعلم و الأمي. كان منظره رهيبا و مخيفا، شعرت بالرعب يزلزل كياني، وددت لو أننا نغادر ذلك المكان بأقصى سرعة، خرجت مسرعا، كان الممرضين ينشفان جسده و يلبسانه ثوب مستشفى جديد و يبدلون أغطية السرير و الوسادة بمجموعة جديدة و نظيفة. تنفست الصعداء و كأنني عدت من بئر عميق، أو كأنني فررت لتوي من موت محتم، رغم كل الذعر الذي انتابني في هذه اللحظات التي مرت، ظلت نفسي تحدثني، ماذا حدث بعد ذلك ؟ كيف تركته وحيدا هناك ؟ كم أنت جبان ! كيف تتخلى عن أصدقائك بهذه البساطة ؟ قلت: كيف يكون صديقي و أنا لا اعرفه ؟ كيف يكون صديقي و هو مجرد بطل من ورق ؟ أو على ورق ؟ قالت نفسي: ألست على الأقل من أتى به إلى هنا ؟ ألست من ورط نفسه بهذه المغامرة ؟ دون أن أتابع هذا النقاش مع نفسي وجدتني أغوص من جديد، رأيته في غير ذلك المكان المرعب، قلت: هل عدت؟ ولم أكن أتوقع ردا، قال: فعلت، قلت: و أين تميم الداري و باقي الرجال الثلاثون؟ قال يهمون بالعودة إلى ديارهم، قلت: و ما فعل الداري ؟ قال: يذهب إلى يثرب ليخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم بما رأي، قلت: هل تذهب معه ؟ قال سأرافقه إلى رابية من روابي المدينة، قلت ألا ترغب برؤية رسول الله صلى الله عليه و سلم ، قال بل أتوق شوقا لذلك ولكن لم يؤذن لي، قلت هل تأخذني معك ؟ وهنا توقف الحديث، و انتبهت إلى انه كان أطول حديث دار بيننا حتى الآن، و جدته ينطلق مبتعدا في

أعماق نفسه، دسست نفسي خلفه اتبعه في رحلته، تملكني شعور غريب بمتابعة ما يحدث و أين يذهب و ما يرى، كنت مزهوا بالسعادة أنني قد أتمكن من السفر عبر الزمن لأربعة عشر قرنا خلت لزمن كان يعيش فيه سيد الخلق رسول الله محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

حيوانات تتكلم !

كان يجلس بطلنا على رابية من روابي المدينة و كان يراقب راعيا من اليهود الذين كانوا يعيشون حول المدينة المنورة، صلوات الله و سلامه على ساكنها، وفجاءة إذا بذئب جائع يقترب من القطيع و يخطف شاة فهجم عليه الراعي حتى انتزعها منه. فهربالذئب: و صعد على التلّ الذي كان يجلس عليه بطلنا، وجلس على مؤخرته و جعل ذنبه بين فخذيه حتى لزق ببطنه ، فقال : عمدت إلى رزق رزقنيه الله عزّ وجل انتزعته مني . فقال الرجل : وبدت ملامح التعجب الشديد على وجهه، تالله إن رأيت كاليوم ذئباً يتكلَّم ! قال الذئب : أعجبُ من هذا رجلٌ في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وبما هو كائن بعدكم. علم بطلنا من يقصد الذئب بالرجل بين النخلات، بالتأكيد انه يقصد رسول الله صلى الله عليه و سلم ، غير انه لم يتعجب من الحديث نفسه، لأنه قد عرفه قبلا، ولكن كان شديد الانبهار أن هذا يحدث أمامه و يراه بعينه.

ساق الراعي قطيعه و انطلق به باتجاه بيوت المدينة، فبطلنا يعرف بقية القصة.
بينما كان بطلنا يشيع الراعي و قطيعه بنظره لاحظ قدوم تميم الداري نحوه، قال لو تدري ما رأيت لتوي؟ قال وبكل هدوء ما رأيت؟ و اخبره بالقصة فقال تميم أو لم

تسمع بقصة البقرة؟ أو الحيوانات الأخرى التي تكلمت مع البشر؟ سأل بطلنا و ما قصة البقرة ؟

قال كان رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً له فشعر بالتعب فأراد أن يركبها فالتفتت إليه و كلمته فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا إِنَّمَا خُلِقْنا لحراثة الأرض، فتَعَجُّب الناس الذين سمعوا القصة وَفَزَعًوا و قالوا أَبَقَرَةٌ تتكَلَّمُ!! فَقَالَ فَإِنِّي أُومِنُ بِهذا كما آمن به رسول الله صلى الله عليه و سلم و الصحابة أجمعين.

كذلك عندما اخبر الرجل اليهودي النبي صلى الله عليه و سلم عن حديث الذئب معه ، فصدَّقه النبي صلى الله عليه و سلم ، و قال صلى الله عليه و سلم :"إنها أمارةٌ من أمارات بين يدي الساعة ، أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدثه نعلاه وسوطه ما أحدث أهله بعده ".

كذلك فعل صلى الله عليه و سلم عندما أخبرته بما رأيت على الجزيرة في عرض البحر، و كان يحدث الصحابة بنفس الحديث قبل أن اخبره به و قال : إِنَّهُ أَعْجَبَه حَدِيثُي و أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُان يحَدِّثُهمْ عَنْهُ وَعَنْ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ و أضاف إِنْ يَخْرُجْ وَهو فِينا صلى الله عليه و سلم فَأَنَه حَجِيجُهُ دُوننا و هو يتكفل بقتله وَإِنْ يَخْرُجْ وَ هو صلى الله عليه و سلم ليس فينا فَكل امْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَته صلى الهو عليه و سلم عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ و وصانا أن نفر منه و اخبرنا إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنْ الشُّبُهَاتِ.

تملكني شعور بالخوف و الذعر الشديد مجددا من ما سمعت و فررت مسرعا خارج أغوار نفسه. كان جسده ممددا على السرير بلباس جديد تفوح منه رائحة النظافة و أغطية جديدة، و كانت ترتسم على وجهه علامات الهدوء و الرضا، تخيلت السعادة التي كانت تغمر نفسه، تخيلت السكينة التي كان يشعر بها رغم المعاناة التي يعيشها. تخيلته يودع تميما الداري، و يسأله هل سلمت لي على رسول الله صلى

الله عليه و سلم، و تخيلت رد تميم انه يصله صلى الله عليه وسلم سلامك أينما كنت وبأي زمان عشت.

كانت صفاء تقيس حرارته و ضغط دمه للتأكد من أن إجراءات التغسيل لم تؤثر عليه و بعد أن سجلت القياسات بالتقرير الخاص به غادرت الغرفة متسألة بنفسها، أين الملتحي ياترى ؟ لليوم الثاني لم يظهر.

نار الحجاز

كان بطلنا عائدا من مكانه على التلة المطلة على المدينة المنورة، من زمن قبل أربعة عشرة قرنا، عندما مر ببصرى الشام بزمن قبل سبع قرون و يزيد. أبصر أعناق الإبل ترتفع شامخة مذعورة لنار أضأت بالحجاز، الناس كلهم في بصرى كانوا مذعورين، يا لضخامة هذه النار، تضيء من الحجاز حتى بصرى، يا للهول الذي يحدث في الحجاز.

خرجت النار بالحجاز بالقرب من المدينة المنورة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة واستمرت يومين و سكنت، وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة ترى في صورة البلد العظيم عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومآذن، وترى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوى كدوى الرعد يأخذ الصخور بين يديه وينتهي إلى محط الركب العراقي، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة، ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد، وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر، ظلت صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام، و رؤيت من مكة ومن جبال بصرى. انبجست الأرض بنار عظيمة وسال منها واد يكون مقداره أربع فراسخ وعرضه أربع أميال يجري على وجه الأرض ويخرج منه مهاد وجبال صغار.

كانت هذه مشاهدات متفرقة و سريعة مرت بخاطر بطلنا قبل أن يعود إلى هدوء نفسي نسبي و يخلد لنوم بعد سفر مضني عبر الزمان و المكان.

الفجر هادئ هنا

شعرت بالضجر للهدوء الذي ساد نفسه، و الصمت الذي التزمه، والذي طال نسبيا، مع انه مؤشر جيد على استقرار حالته الصحية و الذي من المفروض أن يسعدني و يجعلني مطمئنا عليه، لكن الحشرية تدفعني للبحث عن مغامرات جديدة أسافر بها معه، أدهشتني طريقته بالسفر عبر الزمان و المكان وهو مستلقي بجسده على سرير في مستشفى. تسللت من جديد، علني استفزه ف أدفعه لرحلة من تلك الرحل، خاطبته، سألته ولكن لا جواب و لا حتى أي مؤشر ولو بسيطا على انه يسمعني، رفعت درجة الاستفزاز، فقلت: أي نوع أنت من الأبطال الذي يظل طول الوقت نائما؟ الرواية تكاد تصل إلى نهايتها و أنت ما تزال مستغرقا في نومك العميق، طبعا المعلومة مدسوسة، وهذا التلميح فقط للقراء، فالرواية فقط ابتدأت، و لكنني كنت استعمل أغلظ المفردات لاستفزازه و تحريضه على الخروج من هذا الصمت. تتراكم فينا أحيانا الأحلام و الأماني و الرغبات التي نعجز أن نفصح عنها لأسباب مختلفة، وأحيانا نهرب من خوفنا إلى الأحلام، لنحاول التخفيف عن أنفسنا و التقليل من ضغط هذه التراكمات، و أحيانا أخرى نعبر عنها بصيغ مختلفة كالغضب أو الحزن أو حتى الضحك، ولكننا بالتأكيد نصل إلى نقطة امتلأ الكأس، حيث لا نعود قادرين بعدها على كبت أحلامنا و ما يجول في خواطرنا، و ما أن ينكسر حاجز الخوف لدينا فأننا نفجر كل ما كان كامنا في أعماق أنفسنا، بالتأكيد تختلف معايير و حدود حاجز الخوف لدى مختلف الأشخاص، فالبعض ينكسر لديه بشكل تدريجي فيبدأ بشعر يصيب حواف الكأس ليتمدد شيئا فشيئا

إلى الأعماق ليصل بالنهاية إلى انقسام هذه الكأس إلى نصفين، و لدى البعض الآخر يكون تهشما و تصدعا، و قد يكون لدى جزء آخر تحطما كليا و سريعا يجعل جزيئات الكأس تتفتت إلى قطع صغيرة لا تكاد تحصى، و طبعا يحكم أسلوب التحطم عدة عوامل ك أسباب تراكم هذه الأحلام و مسبباتها و طريقة تفاعل الشخص معها و مدى قوة تـأثيرها عليه و الشعور التي تحفره على جدران روحه و تخزنه في خلايا ذاكرة جسده و وعيه.

بينما كنت مستغرقا بين الاستفزاز و الشرود الذي أصابتني عدواه من بطلنا و نقله إلي كفيروس يتسلل إلى الأفكار دون أن يواجه بكريات مختصة بقمع هكذا نوع من الفيروسات، و دون توفر أي مضاد حيوي أو غير حيوي حتى للفيروسات الفكرية، سمعت ضجة في الخارج.

كانت صفاء تدخل الغرفة لتجد الملتحي جالسا على كرسي قرب سرير المريض و كان يتلو بصوت منخفض بعض الآيات القرآنية، تفاجأت صفاء لعدة أسباب: كان أولها، كيف وصل الملتحي دون أن تراه ؟ و ثانيها لماذا تـأخر كل هذا الوقت ؟ فقد مر يومان و لم يأتي للزيارة ؟ وانتبهت بسرعة إلى شيء قد غاب عن ذهنها، و كانت لا تريد التفكير به، بل كانت تتهرب من التفكير به، لقد اعتادت انه في كل مرة كان يحضر الملتحي كانت تحدث مشاكل صحية رهيبة للمريض، فقالت بنفسها: الله يستر، و سارعت بالحديث للملتحي، من بعد إذنك يجب أن تغادر الغرفة، و ما كان ينبغي عليك أن تدخل أصلا دون إذن، قال الملتحي: السلام عليكم في البداية، قالت صفاء عفوا فقد نسيت إلقاء التحية عليك، و عليكم السلام و لكن يجب أن تغادر، قال اطمئني، بإذن الله لن يحدث ش يء سيئ اليوم، استغربت صفاء، و حدثت نفسها : هل تراه يقرأ أفكارها ؟ كيف هو يعلم و يؤكد بكل يقين هذا الشيء ؟ و عاودت القول : دع لنا التأكيد على حالته الصحية لو

سمحت فهذه حالة صحية بحتة و الرجل لازال يتعافى بعد ذبحة صدرية، قال الملتحي: على كل حال أنا أنهيت زيارتي و سألتزم بتعليماتك و اخرج من الغرفة، و لكنني إنشاء الله سأعود لأكلمه وقت الزيارة، قالت صفاء : طبعا طبعا، و بسرعة خيالية انتبهت لما قال و قالت: تكلمه ؟كيف ستفعل ؟ و هو بغيبوبة ! من تكون ؟ هم الرجل بالخروج و لحقته صفاء مرددة مجددا كيف تعرف هذه الأمور ؟ من تكون ؟ قال: أخبرتك مجرد عبد من عباد الله، يرغب بالحصول على الأجر من عيادة المرضى، و بالنسبة لهذا الشخص شدني شيء غريب حتى أنا لا اعرف سببه. قالت : أين كنت اليومين الماضيين ؟ لم نراك هنا ! قال : لم أكن اشعر بصحة جيدة فلزمت الفراش ، قالت الحمد لله على سلامتك، اجر و عافية إنشاء الله، و عرضت عليه إن كان بحاجة لإجراء كشف طبي و الحصول على علاج فهي مستعدة لترتيب الموضوع، قال : شكرا، كلك ذوق، فقد حصلت على علاجي، و أنا اشعر بحال أفضل الآن و الحمد لله، و انطلق إلى مقاعد كانت موجودة بآخر الرواق في القسم الذي به غرفة مريضنا و جلس هناك، بينما عادت صفاء للغرفة لمتابعة عملها.

أثارتني الأفكار التي عصفت برأس صفاء فيما يخص ترابط سوء حالة مريضنا الصحية و زيارة الملتحي له، راجعت الأحداث بذهني بشكل سريع فوجدت شيء من المنطق و الحقيقة بذلك، قلت لنفسي ماذا انتظر ؟ حان الوقت، ربما شيء ما يحدث بالداخل، و انطلقت مسرعا، كنت أتوقع ثورة تحصل بداخله، انتفاضة عارمة لخلايا جسده الخامل منذ مدة طويلة، تحرك واسع يرفض هذا الترهل، طبعا و بصراحة شعرت ببعض الخوف كما شعرت صفاء و أخفته بأعماقها من أن أفاجأ بشيء لا تحمد عقباه، مكروه يصيبه كما حصل بالمرات السابقة، كنت أحاول أن اطرد هذه الأفكار التي تحاول العبث مع بنات أفكاري الرقيقة و تحاول أن تستدرجها لمستويات من العنف الذي يؤذيها.

فاجأني الصمت السائد من جديد و الهدوء الذي يخيم على المكان، أول ما بدر إلى خيالي مع هذا الصمت، فيلما روسيا قد شاهدته من فترة بعيدة، كان اسمه الفجر هادئ هنا، كان يحكي الفيلم عن فترة الحرب العالمية الثانية، و عن مكان ما في روسيا، عن الجبهة الداخلية، في قرية وادعة تقع على ضفاف احد الأنهار و تلفها الغابات الرائعة، و التي كان مكلفا بحمايتها مجموعة من النساء و الرجال العاجزين عن القتال أو الشيوخ بتلك القرية، حيث اغلب الرجال كانوا في الجبهة، ورغم حالة الحرب الدائرة في كل مكان حول تلك المنطقة، إلا أن تلك القرية و في وقت الفجر، وللتحديد الدقيق لاسم الفيلم و المعنى الدلالي لكلمة فجر في اللغة الروسية فهي تحمل اسم لون الفجر و الذي يدل على تدرجات اللون البنفسجي من الكحلي و حتى الوردي المعشق بالنهدي الخفيف، و الذي بدوره يعطي نوعا من الهدوء للنفس و يدل على انبلاج الفجر و الضوء من رحم الظلام، يدل على ولادة الحقيقة، مهما ما كانت، من قلب الخوف القابع ب أنفسنا، تلك اللحظات كانت هادئة و جميلة و رائعة و خيالية و ساحرة و إلى ما شئت من الأوصاف لدرجة انه لا يخطر ببال احد انه ممكن أن تنقلب إلى جحيم و نار تشعل المكان، وتقلب السكون إلى صراخ و عويل و ألم . يحدد المسلم التوقف عن الطعام في صيامه عند إمكانية التفريق بين خيطين احدهما ابيض و الآخر اسود، بمعنى مع بزوغ أول خيط من خيوط الفجر، فهل تكون المسافة و الزمن بين الهدوء و الانفجار مقدار خيط ؟ مقدار شعرة ؟ هل يكون الفاصل بين الجنة و النار مجرد شعرة، مجرد باب من باطنه الرحمة و من خارجه العذاب ؟ هنا تذكرت المقولة التي تتكرر كثيرا " الهدوء قبل العاصفة" و شعرت بخوف، تذكرت أحداث الفيلم كيف اشتعلت الحرب بتلك القرية، كيف تحول الهدوء و السكون إلى دمار، كيف تحول اللون البنفسجي إلى احمر ساطع بهذه السرعة، تذكرت كيف توقفت الغصة بحنجرتي و اغرورقت عيناي بالدموع وربما بكيت، عند مشاهدة الفيلم، كما فعل اغلب

الحاضرون، اجتاحني خوفا كبيرا من هدوء الوضع لدى بطلنا، و من زيارة الملتحي المفاجئة في هذا الصباح، و لم يكن بيدي أي ش يء افعله إلا أن اكرر قول صفاء " الله يستر " .

خرجت مسرعا، حتى أنني قررت الخروج من الغرفة، فأنا لا احتمل أي مشاهد تفطر القلب الآن، كنت أتوق لرحلة لمغامرة ولكن ليس لمشاهدة الشعرة تنقسم و تقسم معها ظهر احتمالي، لمحت الملتحي جالسا ب أخر الرواق، قلت لنفسي : لم أتجول بنفسه ولا مرة، ترى ماذا يدور بخاطره؟ و ما هذا الهدوء و السكينة اللذان يمتلكهما و قد كان قد خر سابقا من البكاء و الخوف و الأ لم ، قلت : يجب أن اقترب منه، على كل حال هو لن يشعر بي، ولن يراني، فما أنا إلا كائن وهمي افتراضي يتجول كجاسوس الشبكات الالكترونية، و لكن كيف ؟ أنا الواقع و هم أبطال الرواية ! هم الذين من المفروض أن يكونوا وهميين و أنا الحقيقة ! ولكن اللعبة استهوتني فلم أتوقف كثيرا عند هذه الفكرة، سمعته يقرأ قول الله تعالى : ا لم نشرح لك صدرك .. حتى قوله إن مع العسر يسرا، شعرت وبسرعة الضوء بسكينة و هدوء عظيمين، و تذكرت أن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء و أن اقصر طريق للسكينة و الرضا هو الإيمان و التسليم لله و الرضا بقضاء الله و قدره.

العودة

مرت الفترة الصباحية و الأمور على حالها و أجرى الطبيب جولته المعتادة، و الممرضة أعطته الدواء المعتاد، و مازال الملتحي يجلس بكل هدوء و سكينة يقرأ القرآن، انطلق لصلاة الظهر، غاب حول الربع ساعة و عاد ولكنه لم يعود لمقعده الذي احتله من الصباح الباكر، و لكن انطلق يبحث عن الممرضة، قال: السلام

عليكم، هل ممكن أن أزوره، كانت صفاء قد وعدته بذلك وقت الزيارة، و شدة تهذيبه، و حرارة لهفته، منعتها من حرمانه من حق الزيارة، قالت: لا بأس، و لكن دون أي ضجة، و تذكرت المرات السابقة، فأردفت: لنذهب معا، دخلا الغرفة معا، و جلس الملتحي على الكرسي بجانب سرير المريض و بدأ بالقراءة، قامت الممرضة بقراءة قياسات الحرارة و الضغط، هي لم تكن بحاجة لفعل ذلك، لأنها كانت قد قامت بهذا العمل قبل نصف ساعة حسب جدول العمل، لكنها قررت أن تعرف سر الملتحي، لأنه وفي كل مرة كان بمجرد أن يدخل و يقرأ باستثناء الزيارة الصباحية في هذا اليوم، كان يتعرض مريضنا لأزمات قوية، راقبت الملتحي و حاولت سماع ما يقرأ و ركزت بصرها على وجه المريض للحظة و انتقلت ببصرها للملتحي، لحظة ! هل نسيت شيء ؟ هل هي تحلم؟ هل هي تتمنى ؟ عادت بنظرها مسرعة لوجه المريض، لقد رأت ما يشبه الحركة الضعيفة على شفتي المريض، هل فعلا تحركت شفاهه ؟ أم هي مجرد أضغاث أحلام ؟ لا ليست كذلك إن شفاهه تتحرك، و هناك صوت ضعيف، حتى الملتحي انتبه و أنارت وجهه ابتسامة عريضة، نعم كلاهما يسمع كلمة " ماء" ضعيفة جدا و لكن مسموعة، ياللفرحة التي غمرتهما كلاهما، يا للسعادة بعودة شخص مجهول لكليهما، انطلقت صفاء بأقصى سرعة لإحضار الماء، و كان قلبها يسبقها بخطوات، رقصا و طربا، امتزجت المشاعر بنفسها فما عادت تعرف هل ستبكي فرحا ؟ أم ستضحك طربا ؟ ما عادت تشعر أنها تجري الآن على قدميها، بل هي تطير بجناحين من السعادة، هي تسمع طبول تقرع بصدرها، و خلايا جسد تتراقص رعشة مع دقات هذه الطبول، و عيونا امتلأت دموعا، يا الله يا صفاء كم أنت لك الحظ الأوفر من اسمك ؟ عندما خفتي و حزنتي بكيتي و عندما فرحتي و شعرتي بالسعادة بكيتي ، خشيت صفاء أن يلاحظ الآخرون كل هذه الاختلاجات التي اعترتها و لكنها تابعت الركض و أحضرت كأس ماء، كان الملتحي يتمتم كلمات الحمد و عيونه مسمرة يملؤها الفرح

بوجه المريض، أخذت الممرضة بعض المناديل النظيفة، بللتها بالماء و مسحت شفاه المريض بها وهي تردد عبارة حمدا لله على سلامتك و هو ما يزال يطلب الماء، قال الملتحي لماذا لا تعطيه الماء ليشرب، قالت: ليس من الممكن الآن إعطائه إلا هذه القطرات، و أردفت: لو سمحت الآن اخرج لأنني سأستدعي الطبيب لمعاينته ولا أريد أن يوبخني كما فعل في المرات السابقة لأ نني تركتك عند المريض بالغرفة، قال : مفهوم، سأنتظر بالخارج، و ظل واقفا قرب الباب يراقب من هناك وجه المريض و يحمد الله على عودته.

حضر الطبيب للغرفة و الفرحة تغمره هو الآخر ولكن ليست بشكل واضح كما كانت على وجه الممرضة و الملتحي، بادر بالقول: حمدا لله على سلامتك، أخفتنا يا رجل، كيف تشعر الآن، و دون انتظار الجواب كعادته، وضع سماعته على صدر المريض و راح يدس النبض و يهز برأسه مرددا، ما شاء الله تحسنا ملحوظ، و ظل المريض يردد " ماء" ، " ماء"، قال الطبيب موجها كلامه للممرضة: هل أعطيتيه ماءا؟ قالت: مسحت شفاهه بمناديل مبللة بالماء، قال : لا بأس أعطيه قدر نصف فنجان من الماء، أسرعت الممرضة و أخذت الكوب وبدأت برفع رأس المريض و مساعدته لشرب قدر قليل من الماء، قال الطبيب : لا مانع من طلب شوربة خضار خفيفة للمريض على وجبة العشاء، قالت الممرضة: حاضر يا دكتور سأطلب ذلك من المطبخ، حاول الطبيب التحدث مع المريض ولكنه شعر بالجهد الذي يبذله المريض، فقال لا بأس ارتح الآن و سيكون لدينا الكثير من الوقت للحديث. غادر الطبيب الغرفة و كذلك فعلت صفاء متجهة إلى المطبخ لحجز الشوربة للمريض على العشاء.

عندما كانت عائدة راحت تؤنب نفسها عن شعورها المفرط بالسعادة و الذي ربما يكون واضحا للآخرين، و لكن جاءها صوت من داخلها، السعادة ليست ش يء

نصنعه، السعادة ليست شيء نشتريه، السعادة شيء نشعر به دون أي تدخل منا أو من الآخرين، قالت: على كل حال يجب الاتزان أكثر، وصلت الغرفة وراحت تشغل نفسها بترتيب بعض الأدوات و الأشياء على المنضدة المجاورة للسرير، سمعت كلمات ضعيفة: أين أنا ؟ قالت: اطمئن أنت بين اهلك، أنت في المستشفى، كان التعب والإرهاق يبدوان واضحين على وجه المريض، قالت مرة أخرى حمد لله على سلامتك، كانت تتوقع أن يقول شكرا، ليس لأنها تنتظر الشكر منه على عمل هي مكلفة به، ليس شكرا على العناية الفائقة التي منحته إياها، و التي أيضا تعتبر عملها، ليس شكرا على ليالي قضتها على كرسي بجانبه تراقب حالته الصحية، لأن هذه المراقبة كانت جزءا من عملها، ولكن كانت تنتظر كلمة شكرا على اللهفة التي شعرت بها، على التعاطف التي أحست به، على الخوف الشديد الذي اعتراها عندما كان بمراحل الخطر، على الفرح الغامر الذي تملكها عندما كان يعود في كل مرة، و أخيرا على الجناحين الذين طارت بهما محلقة. حدثت نفسها: كم هو جاف ! هل هو عديم الإحساس ؟ هل هو مغرور ؟ بينما كانت تحدث نفسها عاودت النظر لوجهه ربما قال شكرا معبرا بابتسامة أو بإيماءة من رأسه أو بحركة من يده، ولكن وجدته غرق في النوم مجددا، راودها شعور بالخوف، لكن ردة فعله الأولى جعلتها توقف هذا الشعور و انطلقت لتبحث عن الطبيب.

وجدت الطبيب في مكتبه، قالت: بسرعة يا دكتور الحق على المريض ! قال: خيرا خيرا، ماذا حصل؟ قالت: عاد للغيبوبة، قال: لا، لا أظن أنها غيبوبة، انه مرهق جدا، و عاد للراحة و سيستيقظ إنشاء الله بعد ساعة أو ساعتين. قالت: كما تأمر يا دكتور، وسألت: هل من تعليمات، قال: لا، فقط على العشاء الشوربة و الدواء المعتاد، و خرجت من مكتب الطبيب عائدة لغرفة الم ريض، ظل القلق يلاحقها، لا ادري من أين حصلت على سماعات طبيب، وضعتها على أذنيها و وضعت الطرف الآخر على صدر المريض حتى تتأكد من أن قلبه كان يعمل، لم

تكتفي بتحسس نفسه يخرج و يدخل بصدره، لم تكتفي بتحسس النبض على معصمه، هل كان الخوف و القلق ما يدفعها لسماع دقات قلبه ؟ أم ترى، ربما هي فكرت أن كلمة " شكرا" قد يقولها النبض !

كانت تتردد إلى الغرفة كل ربع ساعة لترى فيما إذا عاد المريض من سباته الذي شعرت انه أصبح دهرا، وقبل موعد العشاء بربع ساعة وفقت بأن وجدته يصحو، قالت مرة أخرى: حمدا لله على سلامتك، قال: سلمك الله، قالت: أطلت النوم، آسفة، اقصد كيف تشعر الآن ؟ قال: لما تشعلون الشمع ؟ هل الكهرباء مقطوعة ؟ قالت: صحيح أنت لم تعرف بالذي جرى، نظر مستغربا و سأل: ماذا جرى ؟ قالت ألا تذكر ما الذي أتى بك إلى هنا ؟ غاص محمد في ذاكرته، ينبش جداولها وسجلاتها، ليحصل على الإجابة لهذا السؤال الصريح و المباشر، قاطعته قالت: حسنا لا تجهد نفسك الآن، سأحضر الدواء و العشاء و بعدها أخبرك. وصلت لباب الغرفة لتفاجئ مرة أخرى بالملتحي يقف هناك، ارتعبت مرة ثانية، قالت: حرام عليك يا شيخ، كل مرة تفعل بي هذا، ألم تذهب لبيتك ؟ تنتظر منذ الصباح هنا ؟ أليس لديك أعمال تقوم بها؟ اعتذر الملتحي مرة ثانية و بنفس الطريقة الأولى و طلب الإذن بالزيارة، قالت و لأنها كانت مسرعة : اجل و لكن لا تجهده بالحديث، قال: كما تأمرين، دخل الغرفة قائلا: السلام عليكم، رد المريض، محاولا النهوض، و هنا أسرع الملتحي، و قال: حلفتك بالله لا تزعج نفسك، فقال محمد وعليكم السلام و رحمة الله و بركاته، نظر الملتحي بعيون محمد و قال : ما شاء الله تحسنت أمورك عن ذي قبل، اجر و عافية إنشاء الله، لا بأس عليك، وضع يده فوق يد محمد و وضغط بخفة كمن يصافح و هو يقول: يا رب الناس اذهب البأس، و ما من شوكة يشاكها المؤمن إلا و كتب له فيها اجر، اصبر فأن مع العسر يسرا، شعر محمد براحة كبيرة لسماع هذه الكلمات الرائعة من كلام الله المحكم و حديث رسوله المعطر عليه صلوات الله و سلامه، و أحس بالارتياح لهذه الابتسامة

التي تغمر وجه الملتحي، مع العلم، و هذا بيني و بين القراء فقط، هو كما صفاء كان ينفر من منظر الملتحين.

دخلت صفاء الغرفة و معها الدواء، فتراجع الملتحي إلى الخلف و جلس على الكرسي، قبل أن تطلب الممرضة منه ذلك، لاحظت الممرضة شعور الرضا الواضح المعالم على وجهي المريض و الملتحي فأشعرها هذا بشيء من الانفراج، قالت موجهة الكلام للملتحي: أرى انك استطعت بسرعة و بشكل جيد التعامل مع مريضنا، قال: الحمد لله، هذا رضا من الله، كانت الممرضة تجهز الدواء، عندما تابع الملتحي الحديث بهدوء و سلاسة تامة مع المريض، شعرت صفاء أن الملتحي لم يصب بالذي أصابها قبل ساعات، لم يمتعض من درجة البرودة في ردة فعل المريض بالحديث معه، لم يتذمر بخصوص التحفظ البسيط الملحوظ في تجاوب المريض، لم يطالب بكلمة شكر عن كل الأيام السابقة، و حتى انه لم يذكرها للمريض، بل بالعكس راح يطمئن المريض قائلا: واضح عليك الإرهاق و لا تؤاخذنا إذا كنا نتعبك أكثر بالحديث، نحن أناس متطفلون غرباء نزعجك بوقت أنت محتاج فيه للراحة، ولكن و ليشهد الله كل هذا لأننا فقط نتمنى لك الشفاء، حاول محمد التعبير عن أسفه و انه لا يقصد أي شيء من ذلك البتة، و لكن الملتحي طلب منه الهدوء و قال: أكيد، لم يبدر منك هذا الشيء و حاشا لله، أنا فقط امزح معك، فقط ارتاح و سنتكلم عندما تشعر بتحسن أكثر، ابتسم محمد و كذلك فعل الملتحي، بينما كانت صفاء تقرع نفسها: كيف استطعت أن أظن به سوءا ؟ هو لا يعرفنا أصلا ؟ هو لا يعرف ماذا جرى له ؟ هو لا يعرف ماذا مر به ؟ و كيف وقفنا لجانبه ؟ يا الله كم أنا غبية و أنانية ! كم أنا قليلة عقل، هذا الملتحي وان لم يكن قدم نفس التعب الذي قمت به، مع أنني استلم عليه أجرا، فأنه شعر بنفس الخوف، و يمكن أكثر من الذي شعرت أنا به، و هو لا ينتظر أجرا عليه، يا الله كيف انتظرت و لو كلمة شكرا و المريض ما زال بين الصاحي و النائم، يا الله

كيف انتظرت ردة فعل بنفس المستوى مع انه كان جاهلا لكل ما حصل، أنبت صفاء نفسها و شعرت بخجل يغمرها من رأسها لأسفل قدميها، طبعا لم يلاحظ احد هذا الشيء، ولم يعرف احد هذا الش يء، ولا الملتحي، ولا محمد، و حتى صفاء نفسها ما استطاعت أن تحلل سبب الذي حدث معها.

أنا متأكد أن الكثير من القراء استطاعوا أن يتبينوا الدافع الحقيقي وراء الشعور بشيء من الإحباط الذي أصاب صفاء لحظة الاستفاقة الأولى لمحمد، وانه من السذاجة التدخل هنا لشرح الموقف، و لكن لا بأس من التعليق ببعض الجمل. ففي كثير من الأحيان نحن نبني قناع اتنا و أفكارنا على ما يجول بخاطرنا فقط، دون الالتفات إلى ما يعتقده أو يفكر به الآخرون، نحن كثيرا ما نقع بفخ مصادرة الر أي الآخر، و حتى لا نتساءل إذا ما كان هذا الآخر على اطلاع و معرفة برأينا، كثيرا من الأحيان نحن نبني قصور من خيال في أذهننا و نعتقد أن الآخرين يرونها، و نتناسى أن هذه القصور هي مجرد خيال و فوق هذا فأن هذا الخيال فقط موجود بمخيلتنا نحن فقط. و بالمقابل كثير من الأحيان نحن نفترض أن الآخرين يعرفون مشاعرنا دون أن نخبرهم عنها و نعتبرها ش يء افتراضي، أي وجوب معرفته من قبلهم، ولا حاجة أن نذكرهم بها بين الحين و الآخر، علي سبيل المثال الكثير منا لا يقول لأمه انه يحبها، مع العلم انه لا يوجد شخص على سطح الكرة الأرضية لا يحب أمه، ولكن الكثير منا لا يقول هذا لها بشكل مباشر و صريح، و كذلك الأمر للزوجة و الزوج و الأب و الأولاد و الأخ و الأخت و الصديق مع تزايد صعوبة التصريح كلما ابتعدنا أكثر في القرابة، وهذا لا يعني أننا لا نحبهم، ولكننا نستصعب التصريح لهم بهذا، على سهولته و بساطته، فهو لا يأخذ منا سوى أربعة حروف " احبك".

القصة

كانت صفاء تقضي إجازتها اليومية في المنزل، حيث اعتادت العمل بشكل مناوبات، كانت تتمنى أنها لو استمرت بالعمل هذا اليوم و لم تحصل على إجازة لتتمكن من معرفة كل تفاصيل الحادثة التي أضافت إلى حياتها نوع من عنصر القلق لم تكن قد تذوقته سابقا، قالت بنفسها: و لكن ما شأني بكل هذا؟ طبعا كانت تحاول الهروب من الحديث الصامت الذي جرى بداخلها، و لكن و بصورة فورية كانت الحشرية تخترق الصمت السائد لثواني لتصرح: انه فقط حب الاستطلاع ليس إلا، انه فقط الشعور و الاهتمام المهني ولا شيء غيره، إذن لا بأس بشيء من القلق هنا و الانتظار، هل كانت تبرر لنفسها ؟ على كل حال هي تتوق بشكل كبير أن يمضي هذا الليل الطويل، الذي أصبح كابوسا يقبع على صدرها، لتذهب بالصباح الباكر بعد انقطاع يوم وليلة عن معرفة ما جرى هناك.

دخلت الغرفة في الصباح كعادتها تحمل الأدوية و أجهزة قياس الحرارة و الضغط لتقوم بواجبها الوظيفي، و رغم كل القلق و الانتظار الذي عاشته الأمس، كله زال بلمح البصر بمجرد أن رأت أجمل ابتسامة قد رأتها بحياتها، رغم أنها كانت ابتسامة ممزوجة بالتعب الجلي على وجهه، لكن كان ممكن وصفها بكلمة واحدة، بأنها ابتسامة صادقة، صافية، تنبع من القلب، قالت: صباح الخير، قال: صباح الخير، قالت : كيف تشعر اليوم ؟ إنشاء الله أفضل، قال : الحمد لله نعم، تمتمت هي الأخرى عبارة الحمد لله، و حاولت أن تخفي امتزاج فرحها و قلقها بأن قالت : لنفحص نبضك و حرارتك، و باشرت بالفحص، قالت : ما شاء الله، فعلا الوضع متحسن اليوم، و شعرت بأنه يجب أن تتكلم بأي شيء، قالت: هل زارك الملتحي أمس، قال نعم و على فكرة شكرا لك على كل ما فعلتي لأجلي، قد علمت منه أنني تسببت بسهرك و إجهادك لبعض الأيام، قالت: العفو، هذا عملي، وأنا دائما

أقوم به على أفضل ما يمكنني، بينما كانت تقول بنفسها: رغم كل التعب و القلق الذي أقحمتني به، فأنا أجد هذا الشعور محببا، رغم قسوته، فقد شعرت بتغير ما أزال حاجز الرتابة و الخواء الذي كانت نفسي تشعر به، و تابعت قائلة له: المهم أن يثمر هذا الجهد عن نتائج طيبة، و تكون راضي عن الخدمة هنا، قال : معاذ الله، بل أنا ممتن لكم جميعا، شعرت هنا بالخجل، فهي بعد أن طالبت على كلمة شكر فقط، ها هي تحصل على ما هو أكثر من الشكر، فسارعت لتغيير مجرى الحديث، قالت: آمل أن لا يكون الملتحي قد أزعجك بكثرة حديثه، قال : على العكس، لقد كان رجل مهذب و هادئ جدا، فقد أتى للاطمئنان و قرأ لي بعض الآيات القرآنية ، و تحدثنا بشكل بسيط، وأنا قد أحببت زيارته، وسأل: هل أرسلتم أي ش يء لأهلي بخصوص وجودي هنا ؟ قالت : نعم قد فعلنا، عرفنا هويتك عن طريق الرقم الذي كان حول معصمك و على الأغلب الأهل لديهم علم الآن بمكان وجودك و إنشاء الله هم في طريقهم إليك، و أردفت على الأغلب انك اشتقت لهم، قال: طبعا فعلت، رغم أنني اشعر أنني بين أهلي هنا، و هنا اجتاح صفاء موجة من القشعريرة التي نقلت رجفة خفيفة إلى أصابعها و خافت أن يشعر بها، فابتعدت لتحضر الدواء قائلة: هذا من لطفك، سألته: هل تعتقد سيحضر احد منهم ؟ قال بالتأكيد الوالدة لن تستطيع الصبر، مع أنني لا ارغب بتكليفها مشقة السفر، لكنها لن تبالي لأحد و ستصر على الحضور، و على الغالب ستحضر معها احد إخوتي أو الشايب، قالت: هكذا هم الأمهات دائما، و سألت كم عدد إخوتك ؟ قال نحن ثلاث ذكور أنا أصغرهم و وثلاث إناث، قالت ما شاء الله، الله يحفظكم لبعض، و في هذه الأثناء دخل الطبيب محييا: السلام عليكم، لا، ما شاء الله أنت اليوم بحالة جيدة، و اخذ التقرير الذي دونت به الممرضة لتوها القياسات الحديثة، قال: همم ممتاز، و بدأ يلمس رجلي المريض و يسال هل تشعر بألم في مكان ما ؟ قال نعم، كرر الطبيب حركة يده فوق الساق

و الفخذ و قال: حاول أن تحدد مكان الألم ، حدد المريض مكان بالساق و أخر بالفخذ، قال: إذن كما اعتقدت، لديك على الأغلب كسرين، و ربما سنضطر لإجراء عملية جراحية، و لكن على الأغلب سننتظر حتى تتعافى أولا، و إنشاء الله الجبيرة المؤقتة ستبقي الكس ور دون تأثير سلبي للكس ور، سأل : هل ترغب بأي شيء؟ هل ينقصك أي ش يء هنا، قال: شكرا فطاقم التمريض لا يقصر معي، غادر الطبيب قائلا: أراك لاحقا.

خرجت الممرضة مع الطبيب، لأنه ا لم تعد قادرة على البقاء في الغرفة بعد كل هذا المديح دون أن تضطر لاكتشاف أمرها، و عند مكتب الاستقبال تف اجأت بالملتحي، لأول مرة أحبت قدومه، كيف لا و وجوده سيكسر حاجز النوع من الخجل في الحديث مع المريض، و سيقوم هو بالمشاركة الأكبر في الحديث بينما هي تستطيع سماع الحوار و فهم بعض الأمور عن حياته السابقة، قالت : السلام عليكم، أرى انك مبكرا كعادتك، و لكن لا بأس فالدكتور قد مر عليه و يمكنك زيارته الآن، قال : و عليكم السلام، لطفا منك، همت بالدخول خلف المكتب، عندما سألها الملتحي: هل يتوفر لديكم علبة خاصة بالتيمم، فقد سألني عنها البارحة، قالت: بالطبع سأحضرها حالا، و قالت بنفسها : " اجت و الله جابها" ، بعد قليل انضمت إليهم بالغرفة لتجد الابتسامة تعلو وجهيهما، قالت : هذه هي علبة تراب التيمم، قال الملتحي: شكرا لك، ضعيها لو سمحتي على المنضدة بالقرب منه، سألت المريض هل احضر لك ش يء آخر، قال: بعض الماء لو سمحتي، فخرجت مسرعة لتحضر الماء و لتعود لتستمع القصة.

عندما عادت كان المريض يخبر الملتحي بقصة سقوط الطائرة، قال: أنهيت دراستي في معهد الإدارة بعد تخرجي من الكلية العسكرية، و كنت ادرس علوم التفاوض و التخطيط و التحليل، سأل الملتحي: هل هذا ماجستير، قال المريض: شيء من هذا

القبيل، قال الملتحي: و ما كان موضوع الدراسة ؟ ألا تقومون بتنفيذ موضوع محدد لهذا الغرض ؟ قال: بالتأكيد، و أردف قائلا: كنت قد قدمت دراسة عن قائد تاريخي، حاولت بها تحليل شخصيته و طريقة قيادته و تحقيق انتصاراته، قال الملتحي ما شاء الله، على الأغلب هو واحد من قادة الفتوحات الإسلامية ؟ قال: لا، أبعد من ذاك، و صمت الملتحي منتظرا المريض أن يتابع حديثه، فهو لا يريد أن يجهده بالحديث، بل يترك له الخيار للحديث حسب استطاعته، قال: انه رجل عاش من ذ قرون طويلة، وردت قصته بالقرآن الكريم، انه ذو القرنين، و هنا شرد الملتحي لبعض الوقت، متذكرا الآيات التي شعر بأنه من الضروري وج وب قرأتها له، و وقتها لم يفهم لماذا هي بالتحديد، ولكن انتظر، حتى الآن هو لا يفهم، هب أن المريض قد نفذ هذه الدراسة و عرف الكثير عن ذو القرنين، و لكن ما دخل الآيات بحالة المريض ؟! قاطعت الممرضة شرود الملتحي، و توقف المريض عن الحديث للحظات قائلة: هل أصيبت الطائرة التي كنت بها ؟ قال: لا ندري، كنا نطير بشكل طبيعي و فجاءة تعطلت مؤشرات كل الأجهزة بالطائرة و توقف المحرك و بدأت بالسقوط، ولم نلاحظ أي صاروخ أو طائرة أخرى تهاجمنا، و الأمر الطبيعي بهذه الحالة كان أن أمر قائد الطائرة الجميع بالهبوط بالمظلات، لأنه أيقن أن الطائرة واقعة لا محالة، و هكذا سقطنا بالمظلات، و كنت أول النازلين و شعرت بأن مظلتي لم تفتح بشكل جيد وفقدت وعيي قبل أن أصل إلى الأرض لأستعيده و بحمد الله على سريريكم هذا. قال كليهما: الحمد لله على سلامتك و نأسف لما حدث لك، قال الملتحي: إذن الدراسة حول ذو القرنين هي كانت أخر نشاطاتك الدراسية و البحثية ؟ قال: ربما الدراسية و لكن ليس البحثية، فقد جرني التعمق في قصة ذو القرنين بقصص أخرى مرتبطة بها، قال الملتحي و ما ذاك؟ قال: مكان السد، قومي يأجوج و مأجوج و بعض اشراط الساعة الأخرى كالأعور الدجال و الدابة التي تكلم الناس و غيرها، قال الملتحي : ما شاء الله بحث واسع و جدي، أتمنى لك أن تصل إلى

نتائج طيبة به، و سأل: هل كنت تنوي القيام به لمجرد الرغبة الشخصية ؟ قال: في الحقيقة هي كانت رغبة شخصية بالإضافة إلى أنني كنت اطمح بمتابعة الدراسة للحصول على شهادة الدكتوراه لولا هذه الحرب التي اشتعلت و توجب علي الالتحاق بقطعتي العسكرية و تأدية واجبي اتجاه الله و الوطن، قال الملتحي: إنشاء الله ستعود معافى إلى ديارك و تتابع دراستك فالحرب قد ذهبت بلا رجعة بعد تلك القنبلة الرهيبة التي أخذت معها قرون طويلة من تراكمات الإنتاج العلمي للحضارة البشرية و لا أظن أنها تعود، قالت الممرضة رغم أننا كنا نشعر براحة كبيرة بوجود ذلك الكم الهائل من التقنيات و الأجهزة و المعدات و عناصر الحضارة و لكن الحمد لله لم تتأذى بلادنا و أهلونا. قال الملتحي: إنشاء الله، سنقرأ لك عن قريب، نتائج أبحاثك المستقبلية.

ملك الخيال

كان السكون يخيم على جميع أقسام و غرف المستشفى، و كل المرضى نيام، و حتى الممرضين و الأطباء المناوبين، إلا بعض الممرضات في كل قسم ممرضة لحالات الطوارئ، كان مستلقيا كعادته على فراشه، هل تراه يغط في نوم عميق ؟ اقتربت أكثر، لا هو ليس نائم ! انه يفكر، و لكن بماذا ؟ هل يمكن التسلل في حالة الوعي ؟ هذا ما س ألت نفسي، قررت المحاولة، فأنا لن اخسر ش يء، قلت كيف حالك يا صديقي ؟ قال:هذه لعبة من ألاعيبك الجديدة ؟ تفاجأت، في حين توقعت المفاجأة من طرفه هو، هل تراه يذكرني ؟ قلت أي ألاعيب تقصد ؟ قال: محاولات السيطرة و الظهور بمظهر المتحكم بالأمور، تفاجأت من جديد، ماذا يقصد بالسيطرة و التحكم؟ هل يعتبر ولوجي إلى داخل وعيه محاولات تحكم و سيطرة ؟ لم استطع فهم المقصود، لذا قررت اخذ مكان لاستراق السمع، علني

افهم قصده فلم يعد همي الوحيد مشاركته خيالاته، كان يحلل و بكل واقعية، بما انه الآن قد انتهت كل أشكال التقنية الالكترونية، وبما أن الحياة مستمرة فعلى الإنسان أن يستمر بالبحث، أو على الأقل الاستفادة من الخبرات الماضية المتراكمة في الحضارة البشرية و التي استخدمت قبل اكتشاف الكهرباء لتسهيل حياته، فكر لحظة و قال: استخدم الإنسان القطارات البخارية، إذن يمكن العودة لها، يمكن تطوير السيارات و الحافلات لتعمل على البخار ! شعر بنوع من السعادة يغمره، ولكنه لم يتوقف كثيرا عنده، تابع التفكير، و من حيث بدأت حاجاته تظهر، قال : البريد، حاجة الناس للتواصل، قد استخدمت منذ زمن طويل و على العربات و الخيل، يجب التفكير بطريقة ما لإعادة هيكلة عمل هذه الخدمة الضرورية، المعلومات ! يجب الناس معرفة الأخبار و ماذا يحدث حولهم و في البلدان المجاورة، كذلك نشر الفكر، سأل نفسه : هل الطباعة أقدم أم الكهرباء، تذكر انه سمع عن طابعات قديمة تعمل بدون كهرباء، صحيح أن العمل بها كان مضنيا، وان كل صفحة تحتاج لعمل ختم خاص بها و وقت طويل لانجازها، و لكن ما المشكلة ؟ لقد استخدمها الناس سابقا، و استطاعوا أن ينشروا بها الأخبار و القصص و الأشعار و العروض التجارية، نعم يجب العودة إلى ما قبل عصر الإلكترون، انتقل بسرعة إلى ميدان ثاني، انه مجال دراسته و بالواقع عمله، صمت للحظات، وأردف: بالطبع السيف، سيعود الناس للسيف، الرماح و النبال، تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم " علموا أولادكم السباحة و الرماية و ركوب الخيل" صدقت يا رسول الله صلى الله عليك و سلم هي الحل، فهي أدوات المحارب في وقت توقفت به الطائرات و الدبابات و الصورايخ، طبعا هو ليس من مشجعي الحرب، ولا يتمناها، لكن يجب أن يكون جاهزا لها فيما إذا فرضت على بلده، انتقل يحلل مشاكل أخرى نتجت عن توقف عمل الآلات و المعدات و الأجهزة بمختلف أنواعها، رأيته يمسك كل قطاع من قطاعات الحياة و يحلل مشاكله و يحاول أن يجد

الحل لها، حل استخدمته البشرية قبل عصر الكهرباء أو حلا يعدل به ما هو موجود اليوم ليعمل بإمكانيات ما قبل عصر الكهرباء، بخفة شديدة وصل إلى انه يناقش الأمور على مستوى وزارت، لا بل على مستوى حكومات و ربما البشرية، كان طرحه، فيه كثيرا من المنطق، كان الأمثل للخروج من الإحباط العام الذي أصاب البشرية و لبلده تحديدا و المضي قدما بعجلة الحياة.

اكتشفت اليوم خاصية جديدة عند بطلنا، كنت قد عرفت سابقا، مواهبه في السفر عبر الزمان و المكان في حالة الغيبوبة، فعقله الباطن كان شديد النشاط و لا يحده أفق، لكن ممارسة التخيل بالوعي ! سمعت كثيرا عن أحلام اليقظة و عن صراعات تدور بين العقل الباطن و العام، لكنني لم أكن اعرف انه على ثقافة عالية و مقدرة تحليلية و تخطيطية رهيبة، لكن اكتشافي هذا لم يوصلني إلى فهم ما قصد بالبداية من محاولات السيطرة و التحكم، فكر: يجب أن احدد شيء ذو أهمية للمجتمع و أبدأ نشاط فعلي به، سمعت: كف عن هذا يا رجل، نحن نتخيل فقط، ولكن الأحلام أبدا لا تأتي، صعقت هنا، لدرجة أنني شككت بنفسي، أنني أنا من قال هذا، لكنني لم افعل، إذن من يكون ؟ هل هناك قاعد آخر للسمع ؟ يا للهول فهمت الآن، الصراع يدور بينه و بين عقله الباطن، إذن هو كان يظنني عقله الباطن متخفيا بشكل ما ! ولكن ما علاقة السيطرة و التحكم ؟ تذكرت هنا أنني قرأت ذات مرة، انه إذا نام العقل الباطن قبل العقل الخارجي، فقد يتعرض الإنسان للسير في نومه، و إذا حدث العكس فأن الأحلام تسيطر عليه، إذن مفهوم السيطرة بدأ يتوضح الآن، هل هو شجار يحدث بين العقلين ؟ هل يحاول الباطن أن يسيطر على الأمور ليبدو بدور القائد و يبقيه طريح الأحلام و الخيالات ؟ و الآخر يحاول السيطرة لينفذ الأفكار التي راودته ؟ لازمت صمتي، قال الصوت الآخر: ألم أكن منذ الصغر أدعمك بأحلام كثيرة كانت تنعش لياليك الطويلة، ألم نبني سوية قصور من خيال، حتى وقت كنت تتلذذ بأحلام العذاب، عندما كان

تخيلك نفسك مظلوما أو مقهورا يعطيك شعورا بالراحة، الم كنت تصل لدرجة البكاء أحيانا ؟ شعر هنا بالحرج، قال: ربما أنت من طلب ذلك ؟ أو من كان يرغب بذلك، كانت أحلامي أكثرها بالتطوير و البناء، بالتجديد و التغيير، بتحسين الحياة من حولي، و مساعدة الآخرين بتحسين أمور حياتهم، هل نسيت فكرتي بإنشاء مدينة كاملة تقع على بحيرة بوسط الصحراء، بحيرة استجلب مياهها من البحر عبر قناة طويلة، تقع على ضفافها منشآت سياحية، و مباني سكنية تتسع لملايين من الناس، و تشمل مناطق صناعية فيها مشاريع صغيرة و متوسطة و كبيرة تغطي احتياجات العاطلين عن العمل و المصنعين المتوسطين و الكبار الذين يرغبون بتوسيع نشاطهم، ومساحات زراعية شاسعة تؤمن العمل و الغذاء للبلد و البلدان المجاورة و تسمح بتطور و نهضة كبيرة للبلد. هل نسيت حلمي بتأمين مساكن طابقية عالية لعائلات المناطق العشوائية في مداخل المدينة و هدم تلك المساكن العشوائية المسيئة للمنظر الجمالي للمدينة و تحويلها إلى أحياء تجارية و سكنية و ترفيهية راقية يمكن للبلد أن يحصل على دخل عالي من استثمارها و رفع مستوى دخل المواطن بشكل عام و الوصول إلى جمالية رائعة بالمدينة و مستوى عال من التطور الاقتصادي و العمراني و الثقافي. هل نسيت أحلامي بخصوص الإصلاحات الاجتماعية و السياسية في البلد للوصول إلى درجة من الرقي في الحياة الإنسانية و العيش بكرامة كما يجب للإنسان أن يكون. كنت اسمع كل ذلك، و ابحث عن كلمة تصف حالتي، فلم يعد معنى الصعق يصف حالتي و لا الاندهاش، فعلا رغم شطوحه الغريب في الخيال، شعرت انه يتحدث عن أحلامي، عن أفكاري و عن رغباتي.

تدخل الآخر من جديد، قال كل هذا أنا من ابتدعه، لم تكن إلا مستمعا متسليا بالأفكار أحيانا، أو متباكيا على حالك أحيانا أخرى، أو بالكثير كنت تشغل نفسك معي لأنك بكلمة بسيطة لا تستطيع النوم، لم أتصور يوما أن يحتدم

الشجار بين العقلين لهذه الدرجة، كنت انوي أن أتدخل بالحديث، لأساند صديقي، و لكن تذكرت شيئا، من منهما يكون صديقي ؟ في السابق، و على الأغلب، أنا تحدثت مع الباطن، و لكنني أحب الآخر أكثر، ولكن هل يعقل أنني تحدثت معه و ليس مع الباطن، هل يعقل أن يتبادلوا الأدوار في أوقات ما ؟ ليس هذا مهما الآن، فقد عاود صديقي الحديث وفجر قنبلة قائلا: تلك كانت أحلام يقظة فكيف تكون أنت صاحبها ؟ إذن هو يعترف، قال الآخر وان يكن فهي ظلت خيالات كامنة فهي مجالي، تدخلت هنا للمساندة، قلت: لكنك ستنفذ ما تستطيع منها، أليس كذلك، انتبه هنا لوجودي، و اختفى الآخر عميقا و قال: من تكون ؟ و كيف تجرؤ على التسلل إلى مناطق خاصة جدا و معزولة عن السمع ؟ اخرج الآن، قلت هل نسيت رحلتنا على متن السفينة؟ هل نسيت ما أخبرتني به عن ذو القرنين و تميم الداري و الجساسة و اعور الدجال؟ قال: لا اعرف ماذا تتحدث عنه، و الأكيد انك مخبول و قد أخطأت العنوان، فلم أسافر معك أو بدونك على سفينة، ولا أعرفك ولم أحدثك بشيء أنا لم أقم به.

الخالة أم فهد

وصلت والدة محمد في ساعة متأخرة من النهار و مع بداية غروب الشمس، كانت برفقة أخوه الأكبر، لم تستطع الانتظار للذهاب لتأمين مسكن لهما، بل أتت فورا إلى المستشفى حيث يرقد وليدها، هي لا زالت تعتبره طفلا صغيرا، و في هذا الشهر المنصرم، ذرفت عليه من الدموع ما لم تذرفه طوال حياتها، صحيح لقد قالوا: أحب الأبناء صغيرهم حتى يكبر و مريضهم حتى يشفى و غائبهم حتى يعود و قد اجتمعت هذه الخصال الثلاثة بمحمد فهو مهجة قلبها أخر العنقود من الذكور لديها، أم فهد ككل الأمهات مرهفة الإحساس، تعبر عن فرحها و حزنها بنفس

الطريقة " البكاء، لم تنتبه إلى وجود احد بالغرفة، مجرد أن لمحته من الباب انكبت عليه حاضنة إياه مقبلة وجهه و يديه مرددة عبارة : الحمد لله أن أطال بعمري لأملي نظري برؤيتك يا حبيبي مرة ثانية، الحمد لله انك طيب و بخير، و راحت تطرح سيل من الأسئلة دون أن تنتظر أي إجابات: كيف أنت ؟ هل تشعر بألم، ريت الذي أصابك أصابني أنا ولم يصبك، و محمد يحاول تهدئتها مرددا: بعيد الشر عنك يا أماه ، كيف صحتك أنت يا حبيبتي ، اشتقت لكم و يحاول الوصول إلى يدها التي كانت لا تستقر أبدا تمر على كل خلايا وجهه و صدره و كأنها تريد الاطمئنان على كل خلية بذاتها، تقدم مساعد، مساعد هو ا لابن الأوسط لام فهد، بصعوبة اخترق المكان الضيق بين أمه و أخيه و استطاع أن يضع يده فوق يد أخيه و يصافحه و يطبع قبلة على جبينه قائلا: اجر و عافية يا بطل، ما عليك شر، إنشاء الله ذهب البأس.

كانت الممرضة تقف مزهوة وسط هذا السيل العرم من العواطف الجياشة و الصادقة، هي بطبيعتها إنسانة رقيقة و حساسة و تفهم شعور أم فهد، ولكن ليس بالحد الذي تفهمه أم فهد نفسها، طبعا لافتقار الخبرة العملية، انتبهت أم فهد لوجود الممرضة، قالت اعتذر يا بنيتي، الشوق لوليدي جرفني بقوة دون أن القي السلام عليك، قالت: خذي راحتك يا خالة، فأنا اقدر حالكم، سأترككم لبعض الوقت و أعود لاحقا لإعطائه العلاج، قالت: لا يا بنيتي، أتمي عملك، جزاك الله عنا كل خير، فنحن لن نعطلك، حقنت الممرضة المريض ب إبرة و أعطته بعض الحبوب و قالت ربما يقرر الطبيب غدا وقت العملية، قالت أم فهد: أي عملية يا بنيتي ؟ قالت : لا تشغلي بالك يا خالة، حاجة بسيطة، حضنت أم فهد محمدا من جديد، مرددة : كم تحملت من الألم يا وليدي و كم ستتحمل بعد، يا الله لو أنني استطيع أن احمل عنك كل هذا التعب، شعرت هنا صفاء بشعور غريب يجتاح

براري نفسها، تراه شعور الأنثى الطبيعي للأمومة ؟ أم فيض الحنان لدى أم فهد ؟ أم مشاعر تحريضية نتجت عن بوح الأم لحبها لمحمد !

همت صفاء بالخروج، عندما اقتربت أم فهد منها و مدت يدها مصافحة قائلة، اعذريني يا بنيتي، لم اسلم عليك كما ينبغي و لم أشكرك على عنايتك بوليدي، لم تجد صفاء أي كلمة ترد بها غير أن رمت نفسها بحضن أم فهد، و كأنه كان أمرا غير منطوق من أم فهد فهي الأخرى كانت ترغب بهذا الحضن و لم تكن متأكدة بأن الممرضة ستتقبله، على ما يبدو حصل انسجام على مستوى الطاقة بين روحين أم فهد و صفاء، قالت صفاء: حمدا لله على سلامة محمد، فهو بطل و لا يخاف عليه، و خرجت مخبأة دموعا ك ادت أن تنهمر من عيونها، لحق مساعد بها، قال: عفوا يا أختي، ما العملية التي تكلمت عنها ؟ قالت: حسنا، أصيب أخوك بكسور في ساقه و فخذه، و يعتقد الطبيب إنها كسور مضاعفة، فسيعمل عملية لزراعة سفود معدنية لتساعده على جبر الكسور بشكل صحيح، قال: هل هي عملية معقدة، صعبة، خطرة ؟ قالت: لا، يجرى منها الكثير يوميا في هذا المشفى، ولكن تأخذ وقت طويل أحيانا لاستخراج هذه ال سفود مجددا، قال: هل سيبقى في المشفى حتى ينزعوا ال سفود، قالت: طبعا لا، على كل حال في الصباح سيأتي الدكتور و يمكنك طرح كل هذه الأسئلة و فهم كل التفاصيل عن هكذا نوع من العمليات و عن عملية محمد بشكل خاص، فهو الخبير بها، وأنا معلوماتي عنها سطحية، فقد أخيفك بدل أن أطمئنك و أردفت: لا داعي لنقل كل هذه التفاصيل إلى الوالدة، فأنا شعرت كم هي معلقة بمحمد و قد لا تتفهم الوضع كما نفهمه نحن، قال: وهل هناك أي خطورة ؟ قالت: إنشاء الله ليس هناك من خطورة، ولكن أنت تعرف قلب الأم، قال: صدقتي، و شكرا لك.

عاد مساعد للغرفة، كانت أم فهد ما تزال تحضن محمد و تغمره بسيل من القبلات و الحنان و عبارات الشوق و الحب، قالت و بحزم: ماذا أخبرتك عن العملية ؟ قال: اطمئني يا أمي، عملية عادية لتجبير الكسر، قالت: و لكني أرى جبيرة هنا على كل رجله، فما الحاجة إلى التجبير مرة ثانية، قال: هذه جبيرة أولية، وضعوها إلى أن استعاد عافيته و سيضعون واحدة أساسية، قالت: انظر بعيوني، هل تخبئ أي شيء عني؟ قال: حاشا لله يا أمي، عادت لمحمد سائلة: كيف تشعر هنا ؟ هل يعتنون بك جيدا ؟ و وأشاحت بنظرها لتتأمل أرجاء الغرفة و محتوياتها، و قالت: يبدو أنهم جيدون هنا، و الممرضة مثل البلسم، قال: هذا من رضا الله و رضاك أنت و الوالد الكريم علي، اقتربت و طبعت قبلة على جبينه قائلة، بي رضا عليك عدد شعر رأسي وأكثر و الله يعلم ، الله يرضى عليك و على إخوتك، قاطع مساعد هذا الحديث العاطفي قائلا: أظن يجب علينا استئجار شقة للسكن أو نجد لنا فندقا قريبا، قالت: أنا سأبقى هنا، قال محمد: لا أريد أن أتعبك بالبقاء هنا، فهم يعتنون بي جيدا، قالت: هل مللت من العجوز بهذه السرعة ؟ قال: يعلم الله أنني لا أطيق فراقك لحظة، و لكن أريدك أن تكوني مرتاحة، قالت: راحتي بأن أكون قربك، قال مساعد: إن اضطر الأمر أنا سأبقى معه بالليل و أتي لإحضارك بالصباح لتبقي معه كل النهار، قال: ولكن هل يسمحون ببقاء مرافق، لم تنتظر أم فهد و لكن نهضت و سرألت أين تكون الممرضة، فقال مساعد و ما حاجتك بها ؟ قالت فقط اخبرني، قال: في بداية الرواق على اليمين، و خرجت.

كانت الممرضة تجلس خلف مكتب الاستقبال الخاص بالقسم تسجل بعض المعلومات، عندما رأت أم فهد قادمة نحوها، نهضت و خرجت مستقبلة أم فهد، قالت: هل من خدمة أقدمها لك يا خالة؟ قالت ما شاء الله، كلك ذوق و أدب، فقط كنت اسأل إن كان بالإمكان أن أكون مرافقة لأبني ؟ قالت: وان لم يكن بالإمكان أعتنك عليه، ولكن يمكنك أن ترتاحي و تطمئني على محمد عندنا،

قالت: معاذ الله، أنا واثقة من رعايتكم الجيدة و لكن قلب الأم و أكيد انك تعرفين ما اقصد و سألت هل لك أطفال، شعرت صفاء بخجل حتى احمرت وجنتاها، قالت: لم أتزوج بعد، قالت أم فهد: كيف تكون فتاة بهذه الرقة و الجمال و الأدب ولم يتخطفها العرسان؟ و ازداد خجل صفاء و شعرت أم فهد بذلك، فقالت: إنشاء الله يجيكي نصيب يطيب خاطرك و قالت: سأرسل ولدي مساعد ليجد لنا شقة أو فندقا و بعدها نرى ما يحصل، قالت الممرضة: تفضلوا عندنا بالبيت، تكونون ضيوفنا، قالت أم فهد يشرفنا، و لكن هل سنثقل عليكم هنا و هناك أيضا، قالت الممرضة: حاشا لله أن تثقلوا علينا، فو الله اشعر بك كأمي، قالت أم فهد: الله يحفظ لك و يسلم لك الوالدة وأنت كذلك دخلتي قلبي بلا استئذان. قالت: فقط إن كنت تنصحينا بسكن ما قريب أو فندق نكون لك من الشاكرين، قالت: رأيت بالقرب من المشفى الكثير من الشقق المفروشة و لكنني للأسف لا أعرف أي تفاصيل عن خدماتها و أسعارها، ربما اسأل احد من موظفي القسم الإداري فهم على اطلاع أكثر و أعود إليك و أخبرك، قالت : حسنا و مشكورة يا بنيتي.

عادت أم فهد إلى الغرفة لتجد مساعد و محمد غارقين بحديث طويل تخلله بعض الضحكات و القليل من المزاح اللطيف، قالت: الله يديم المحبة بينكم و ما يفرقكم أبدا.

ذهب الفرات

مرت عشر سنوات و يزيد اليوم على خروج محمد من المستشفى، كان قد أنهى علاجه في ذاك المستشفى و عاد لبلده ليخضع بعد سنتين لجراحة لإزالة الأسياخ المعدنية من عظمي ساقه و فخذه، لازال يتذكر، كيف كان أخاه مساعد يجلس بجانبه واضعا يده على رأسه و رجله المجبرة يقرأ عليه القرآن و يتبادلون الذكريات وكيف كان يؤلف عليه النكات بينما هو كان يحاول التعلم السير باستخدام العكازين أو الكرسي المتحرك. محمد الآن شخص ذو مكانة مرموقة بالمجتمع، فهو يحمل شهادة دكتوراه في علوم الإدارة العسكرية، و قد نشر العديد من المؤلفات، على الصعيد العملي، هو يدرس علوم الإدارة العسكرية في الأكاديمية العسكرية، كما يتابع عمله الإداري في الجيش، و على الصعيد الاجتماعي فهو قدم دراسات و أبحاث عديدة للأفكار و الأحلام التي كانت، و ما زالت، تشغل باله، الكثير من أفكاره و دراساته تم تطويرها لتعمل لصالح المجتمع و تسهيل حياة الناس اليومية، كما انه خطيب فذ و متمكن، فهو يخطب خطبة الجمعة في مسجد الأكاديمية، و بالطبع ولأن محمد هو الخطيب فتجد المسجد ممتلئا من الداخل و الخارج و المصلين يأتونه من داخل الأكاديمية و خارجها، و الكل يأتي مبكرا لتأمين مكان قريب لمشاهدة الخطيب واستماع الخطبة. على صعيد الاستثمار الخاص، فقد أسس محمد جريدة منوعة ينشر بها مقالات: دينية، دعوية، ثقافية، أدبية ، علمية و سياسية من تأليفه و تأليف كتاب آخرين، كانت تصدر بلغات متعددة و يرسلها إلى بلدان الغرب، فقد ساهم بطريقة ما على دخول الكثير من الغربيين في الدين الإسلامي، طبعا ليس بجهوده منفردا و لكن بجهود الكثير من الدعاة الآخرين و العرب و المسلمون المقيمون في تلك البلدان، كل هذا ساهم بنشر الدعوة بشكل كبير. كما

أسس مدرسة متخصصة بتعليم الرماية و السباحة و ركوب الخيل و مهارات استعمال السيف و الرياضات الدفاعية.

هو الآن رب أسرة صغيرة مكونة من زوجة و أربعة أطفال اثنين من الذكور و اثنتين من الإناث و طبعا أم فهد تعيش معه بنفس البيت بعد أن توفى والده من حاولي خمس سنوات، أمه و زوجته كانتا قد منحتاه كل ما يملكون من ذهب لينفذ مشاريعه الخاصة بثمنه، أطفاله يحصلون على رعاية عالية و تربية ممتازة و حب كبير من الوالد و الوالدة و الجدة، بالحديث عن الزوجة، فقد عادت إلي حمى الحشرية للتعرف عليها، لأنني على يقين أن كل هذا النجاح و الترتيب بحياته يجب أن يكون بجانبه إنسانة على مستوى عال من الثقافة و الأخلاق و الحب و الحنان، تدعمه بمسيرته و تعطيه الدعم والراحة الكافيين لهذا النجاح، من تراها ؟ ب أعماقي كنت أتمنى ش يء، ربما اغلب القراء تمنوه معي، سمحت لنفسي باختلاس نظرة، يا لسعادتي، هذه صفاء، صحيح أنني كنت أتمنى ذلك، و لكنني لم أكن واثقا انه سيتحقق، إذن صفاء هي مصدر السعادة و الصفاء بحياته.

كان جالسا في فترة ما بعد الظهيرة مع أسرته، يلاعب أطفاله و ينتظرون الغداء، عندما طرق الباب، أسرع ابنه عبد الله ذو العشر سنين لفتح الباب، عاد مسرعا يقول: والدي والدي في الباب شخصا يسأل عنك، قال: هل دعوته للدخول لغرفة الضيوف؟ قال: نعم فعلت، خرج محمد ليرى شابا في بداية العشرينات من عمره، بادله التحية قائلا: نتغدى سوية، قال: جئت مودعا، فأنا في عجلة من أمري، قال: أين تذهب ؟ قال: سمعت انه انكشف نهر الفرات على جبل من ذهب فأريد السفر بسرعة إلى هناك عسى أصيب شيئا من هذا الذهب، قال: العذر منك، هل أنت طالب عندي؟ قال لا، فقط حضرت بعض خطبك، و عند استئذاني لوالدي بالسفر قال أوافق إذا فعل الشيخ محمد، فلذا أنا هنا، قال: حسنا فعل، وأردف

قائلا: و ما حاجتك للذهب ؟ قال: أغير حياتي و أكون أسرة و عمل و تعرف الباقي، قال: و هل انكشف نهر الفرات فعلا عن جبل الذهب هذا ؟ قال: نعم أكد لي احد الأصدقاء ذلك، قال: و هل أصاب صديقك شيء منه ؟ قال: عند مروره بالقرب منه كان قد تجمع الناس بكثرة و بدئوا قتالا عنيفا حول الذهب، خفت أن ادخل معهم و ليس لي إخوان معي فأقتل، لكننا الآن اتفقنا مجموعة كبيرة للذهاب إلى هناك، قال محمد: الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على رسوله الأمين، فقد صدق حديثه، و أعوذ بالله من فتنة الدجال، قال: و ما شان الدجال ؟ قال: اجلس يا أخي ح قال:دثك بحديث رسول الله حول جبلك هذا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يُحْسَر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، فيقول كل رجل منهم : لعلي أكون أنا أنجو .
و في رواية ثانية، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً . و في رواية ثالثة عن عبد الله بن الحارث بن نوفل رضي الله عنه قال: كنت واقفاً مع أبي بن كعب، فقال: لا يزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدنيا ؟ قلت : أجل ، قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يوشك الفرات أن ينحسر عن جبل من ذهب ، فإذا سمع به الناس ساروا إليه ، فيقول من عنده : لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله ، قال : فيقتتلون عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة و تسعون .
هل تفهم ما أقول؟ استطيع الآن، إذا كان خبرك صحيح، أن اصف لك ما يجري هناك و أنا جالس في مكاني هذا في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: و لكن الحديث يقول ينجو واحدا فلعلي أكون أنا الناجي ، قال: و ما تقول في الرواية الثانية: فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً ؟ و أردف قائلا: هي والله العظيم

من الفتن و أشراط الساعة ، فما حاجتك للذهب وللدنيا كلها عند قيام الساعة ؟ وأزيدك من الشعر بيت، سيفقد الذهب قيمته الآن فيصبح بثمن التراب، فهل ترغب أن تدق عنقك، و تخسر أخرتك بحفنة من تراب ؟

شرد محمد للحظة و تذكر سدا قد بني بعصر الكهرباء و قد نشر في الفترة الأخيرة انه معرض للانهيار من جهة جانبية، حلل الأمور برأسه بسرعة، و رأيتني أقف بجانب ذلك السد الضخم، انه ينهار من جانبه، و المياه تتدفق كسيل عرم ضخم تشق لها طريق آخر غير طريق النهر المعتاد، تفتح لها نهرا جديدا يغمر القرى المجاورة و يحطم المنازل و يجر الحيوانات و الناس، كل ذلك القدر الهائل من كميات المياه المخزنة في البحيرة الشاسعة خلف السد انطلقت كإعصار رهيب. كان الوقت صيفا، الحرارة كانت عالية جدا، عطش الأراضي المجاورة التي فتح الماء خلالها مجراه الجديد جعلها تمتص المياه، شاهدت العديد من الدوامات في المجرى الجديد، العديد من الخسوفات في الأرض و المياه تغور عميقا، لم تذهب فقط مياه البحيرة، لكنها سحبت مياه النهر في مجراه الأول، و بدأ ينكشف جبل الذهب، الناس كانوا مذهولين، رعب الانهيار و خوف الغرق و فقدان المنازل و الأهل و الممتلكات من طرف و جبل من ذهب من طرف آخر، يا لطمع ابن آدم ! دائما الأمور عنده بمقدار شعرة، بلحظة رمى هلعه و حزنه و آلامه و هجم يقاتل على نصيبه من جبل الذهب ؟ دارت معارك شرسة هناك، معارك حدثت بأدوات بسيطة، عصي، سيوف، خناجر، و حتى الأيادي، الموت كان أكثر من قطرات مياه البحيرة على عظمتها، لم تعد تدري من أين اجتمعت أفواج الناس بهذه السرعة، للحظة ظننت أن يأجوج و مأجوج قد خرجوا من محبسهم، كان المتقاتلون على الذهب من كل حدب ينسلون، منهم الراكب على الخيل ، منهم الراكض، الجنون و القتل وحدهما كانا يخيمان على المكان، انتشرت الجثث بشكل رهيب حتى لم يعد يظهر من جبل الذهب أي معلم حتى حوله بمسافات بعيدة، رائحة الموت و الدماء غطت المكان،

يا لابن ادم يستمر في الركون إلى الدنيا والاستكثار منها مع كل ذلك الجهل والاغترار، يطلبه رغم ما ينشأ عن أخذه من الفتنة والاقتتال عليه، يأخذه و هو يعلم انه لا ينفعه ، فكيف إذا ظهر جبل من ذهب ، كَسَدَ الذهب ، و الكساد مع كثرته سيبطل قيمته و لو اقتسمه الناس بينهم بالتسوية وسعهم كلهم ، فاستغنوا أجمعين ، فحينئذ تبطل الرغبة فيه ، و أما إذا حواه قوم دون قوم ، فحال من لم يحصل له منه شيء باق على حاله ولكن صدق من قال: الطمع ضر ما نفع.

الاحتباس الحراري

في أول خطبة جمعة بعد بدء فتنة جبل الذهب، وقف خاطبا يشرح للناس الفتنة و أهوالها و يتنبأ، ما التالي ؟ هل هي حبة من حبات العقد ؟ لا، هي ليست من الاشراط الكبرى، و لكنها مؤشر لقرب الاشراط الكبرى، هل سيخرج المهدي قريبا؟ تمنى لو أن أجله يكون قبل فتنة الدجال، عاد لخطبته: منذ ما يقارب الخمسة عشرة سنة، بدأ المناخ يتغير على سطح الأرض، بدأت معدلات الحرارة ترتفع بأماكن كانت تعتبر باردة جدا، و توقع العلماء وقتها ذوبان الثلوج في القطب الشمالي و انغمار بعض البلدان أو القارات حتى، ذكر دراسة قرأها عن شبه الجزيرة العربية؛ حيث أظهرت الصور الجوية وجود مجرى لنهر قديم عملاق يخترق شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق وقد ذكرت وجود كميات هائلة من المياه الجوفية في مسار النهر القديم الذي لا بد أنه عاش على جانبي النهر في العصور السحيقة عندما كان النهر يجري بالمياه قبل 5000 عام، فقد كان انتشار المسطحات الجليدية في الأجزاء الشمالية – أثناء العصور الجليدية – يؤثر في مناخ الأرض، فيؤدي إلى زحزحة نطاق المطر إلى الجنوب؛ فتدخل شبه الجزيرة العربية

والصحراء الكبرى بشمال إفريقيا في نطاق الرياح الغربية الممطرة التي تهب الآن على غرب أوروبا، فيؤدي ذلك إلى ازدهار تلك الصحارى وامتلائها بالأنهار والوديان الخصبة، إذن ستعود الجزيرة خضراء كما ابلغ عليه الصلاة و السلام، هو لا يشك بذلك، هو فقط يحلل الأمور ليتنبأ بالخطوة القادمة و تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم " لا تقوم الساعة حتى تعود ارض العرب مروجا و انهارا إلى أخر الحديث، و تذكر أيضا أن كثرة الزلازل و الأعاصير و البراكين التي وقعت بكثرة في القرن الماضي و ما زالت تقع هي من العلامات المتوسطة، كذلك حصار العراق و الشام، وكذلك كثرة الخسف و المسخ و القذف، و الأمطار التي لا تصمد أمامها إلا بيوت الشعر و تهلك بيوت الطين، و المطر الذي لا ينبت منه شيء، و الفتنة التي تستنظف العرب فيكثر فيهم القتل و الهلاك و كلها اشراط وقعت، لكنه، بداخله، ينتظر شيء آخر، نعم هو يستشعر الاشراط الكبرى.

ذكر دراسة أخرى قالت : إن كوكب الأرض يمتص أشعة الشمس أكثر مما يعكسها باتجاه الفضاء الخارجي و أن أنشطة الإنسان تزيد من حرارة الكوكب و إن سبب احتباس هذا المقدار الزائد من الطاقة هو ارتفاع نسب غازات كثاني أكسيد الكربون، والتي تمتص إشعاعات كان عليها الانعكاس والرجوع إلى الفضاء الخارجي، إن هذه التغييرات كانت دائما تحدث بطريقة بطيئة، لكن الخراب الذي نلحقه بكوكبنا يتخذ الآن وتيرة لا تصدق وحتى لو أوقف الإنسان إنتاج الغازات المسببة للاحتباس الحراري، فلن تظهر النتيجة مباشرة لأن الغلاف الجوي أخذ وقتا طويلا لتمرير حرارته إلى المحيطات، كما تنبأت وقتها بأن منسوب مياه البحر قد يرتفع بمعدل يصل إلى متر ونصف المتر و هذا ما يحصل الآن . إن الزيادة السريعة بارتفاع منسوب مياه البحر خلال السنوات الماضية و المقبلة مرتبط بسرعة ذوبان الطبقات الجليدية، أن طبقات الجليد في القطب الجنوبي بدأت بالفعل تفقد جزءا من كتلتها

بفعل ذوبان الجليد. ومن المعروف أن النينيو ولانينيا، وهما ظاهرتان طبيعيتان، عبارة عن تيارات بحرية ضخمة في المحيط الهادئ يمتد تأثيرهما الضخم إلى كل مناطق العالم، وهما ظاهرتان متقابلتان فبينما تؤدي النينو إلى تدفئة كوكب الأرض تؤدي لانينا إلى ترطيب المناخ العالمي، و قد شهد المحيط الهادئ تيارات لانينا قوية، ساهمت هذه الظاهرة الطبيعية في الأمطار الغزيرة التي شهدها و يشهدها العالم وفي درجات الحرارة الأكثر برودة والمصحوبة بالثلوج، والتي شهدتها بعض أجزاء العالم، إذن أفضل تفسير لما يحدث من تغييرات في مستوى سطح الأرض ومعدل هطول الأمطار هو ازدياد تركيز الغازات الناجمة عن الاحتباس الحراري بسبب أنشطة البشر، دائما هو الإنسان خلف كل مصيبة تلحق به. قال: و الله اعلم القصة اقتربت و سنشهد عودة الخضار إلى بلادنا حمد الله وأثنى عليه و صلى على نبيه عليه أفضل الصلاة و التسليم و أم الناس للصلاة.

فوضى ظلم و جور في كل مكان

مات الحاكم بعد مرور عدة سنوات من تلك الخطبة و عمت البلاد فوضى و ظلم و جور، و تقاتل ثلاثة من أبناء الحكام على الملك و نشروا القتل و الدمار و الذعر في قلوب الناس. مرت ثلاث سنوات شداد أصاب الناس فيها جوع شديد، حيث حبست السماء و بأمر الله في السنة الأولى من هذه السنون الثلاث ثلث مطرها، و الأرض حبست ثلث نباتها، ثم في الثانية حبست ثلثي مطرها، و الأرض حبست ثلثي نباتها، ثم في السنة الثالثة حبست السماء مطرها كله، فلم تقطر قطرة، والأرض حبست نباتها كلها، فلا تنبت خضراء، فلم يبق أي مواشي إلا هلكت؛ إلا ما شاء الله، كان يعيش الناس على التهليل، والتكبير، والتسبيح، والتحميد،

ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام. و كأنما الطبيعة تؤاطت مع الفوضى و الظلم و الجور على الإنسان العادي، لم تقتصر الفوضى و الظلم و الجور على بلد محمد و لكن بلدان أخرى شاعت بها نفس الظروف، استشعر محمد بشيء من الفزع، ليس فزعا يشعر به الجبان، و لكن فزع و قلق على أوضاع الناس، هو بطبيعته إنسان مسالم، يكره بشدة الملك و ضرورات القمع التي تصاحبه، البعض يبرر هذا الحجم من القمع و الظلم لضرورة استتباب الأمن لعامة المجتمع، و البعض يجدها فوق المحتمل و المطاق و يرفضها بشدة و يعتبرها أداة الحاكم للبقاء على كرسيه، وان الكرسي هو الهم الأول و الأخير لديه و أخر ما يعنيه هو شعور الناس. محمد يمقتها بشدة و حتى لا يقحم نفسه بمشاكل فهو لا يرغب بالتفكير بها حتى، وسط هذه الفوضى و القتل و التشريد، ج اءته وفود كثيرة في المدينة، كلها تطلب منه الرأي و العون، كان يساعدهم بقدر ما يستطيع و ما يملك من مشورة و إيواء و إطعام، حتى انه فتح مدرسته الخاصة بتعليم السباحة و الرماية و ركوب الخيل لحشود الناس لتجد ملجأ آمن فيها، لم تتوقف حشود الناس من الاندفاع إليه، لم يكن به ضيق من الناس لو لا أن بعضهم بدأ يطلب منه ما لا يطيقه ولا يرغبه و لا يفكر به أصلا، ما هو ذاك يا محمد الذي تنفر منه ؟ طبعا هو الملك ! يتقاتل الأخ مع أخيه، و الابن مع أبيه لأجل الحكم و أنت تنفر منه ؟ يأتوك الناس برغبتهم يطلبون منك أن تقودهم لتنهي هذه الفوضى و أنت تزهد به ! لله درك يا محمد. قرر محمد الفرار، ليس لأنه جبانا، ليس لأنه ضعيفا، لكنه يعي تماما انه لم يخلق للحكم، وان للكرسي سطوة على جالسه، لا يرغب محمد بأن تتملكه هذه السطوة، لا يرغب بأن يكون على سيفه و برقبته قطرة دم من أي إنسان، و لا حتى مظلمة ولو كانت صغيرة لأي إنسان في عنقه، هذا ما يخشاه محمد، إذن، هو يعلم انه يخذل هذه الحشود، و لكنه يريد أن يبقى نظيف اليد، برئ الذمة، وابعد ما يمكن أن يكون عن احتمالية وقوع ظلم أو مقتل لأحد على يديه، أوصى أخاه

مساعد بمتابعة تقديم خدمات الإيواء و الإطعام للناس المحتشدين عنده، و تقديم كل ما يلزم لهم من معونة و سد حاجاتهم و لو اضطره الأمر إلى بيع كل ما يملكه.

خرج تحت الظلام قاصدا بيت الله الحرام، قال موجها كلامه لام عبد الله : سيكون الوضع أكثر آمانا هناك، و لن يعرفني الناس هناك، س أضيع بين المعتمرين و الحجاج، فلن يطلب مني احد ما لا طاقة لي به، و لكن من أم عبد الله هذه ؟ أجل هي صفاء، هي الآن سيدة تقترب من الأربعينات من العمر و لديها أربعة من الأولاد كبيرهم شاب في السادسة عشر من عمره، قالت: إني أحار بين خيارين أحلاهما مر، فهم قصدها، فسأل: هل توافقين أني فعلت الصواب ؟ قالت : اكره مثلك الحروب، و اكره أمور الحكم، ولكن ما أخشاه ضياع احترامك بين الناس وقد أحبوك و وقروك و اطمئنوا لكلامك طول هذه السنين و شيوع انك تتخلى عنهم في أول محنة، قال: أعي كل هذا ، و لكن ما قولك بين موقفين: أن يقول الناس جبان و هرب، قاطعته قائلة: حاشا لله، ما عنيت هذا بكلامي، قال: اعرف انك لم تنطقي بهذه الكلمات، و لكن المعنى العام يقول بهذا، و اعرف أنها ليست كلماتك، و لكن ما سيتداوله الناس فيما بينهم، و الموقف الآخر، أنا واقف بين يدي ربي يوم الحساب و بعنقي الحقوق و الدماء ؟ قالت : هذا ما عنيته أنا أيضا، قال تعرفين، انه كان يعرض علي خلال تلك السنوات التي عشناها سوية الكثير من المناصب الهامة في الدولة و أنا كنت لا أفكر فيها حتى و ارفضها فكرة و تطبيقا، قالت: اعرف هذا تماما و لا داعي لتبرر أي موقف، فأنت صاحب القرار، و أنا أثق بل مطمئنة جدا لأي قرار تأخذه، و كلانا يعرف بأن المقادير بيد الله، فلا قضاء غير ما أراد الله و نعم القضاء هو، نقبله بكل رضا و حمد، قال: الحمد لله أن من علي بنصفي الآخر المطابق كليا للأول و أعطاني معك من المودة و الرحمة و السكينة ما يغمر الكون.

كان جالسا عند جدار الكعبة يدعو ربه مبتهلا أن تزول هذه المحنة عن بلاده و سائر بلاد المسلمين و كان الدمع يذرف من عيناه عندما تقدم منه سبع أشخاص، انتبهت أم عبد الله إليهم، شعرت بشيء من الخوف، ركزت بصرها لتفهم الحديث و ما ينون عليه، كانت تجلس بين مجموعة من النسوة مع طفلتيها ليس بعيدا عن الكعبة، كانت حركة الطائفين تمنعها من رؤية زوجها و المجموعة بشكل كامل، كانت تقرأ بشفاهه انه ينفي شيئا و لكن ما يكون ؟ مر شخص بتلك اللحظة من الطائفين ما بينها و بين زوجها و المجموعة، قالت: يا الله الآن وقته ؟ كدت استقرأ الموضوع ! كانت تشتعل غيظا على هذا الشخص، و لكن لحظة، إنني اعرف ذلك الشخص، و لكن كيف ؟ و أين؟ حركت نظرها تبحث عنه، نعم انه هناك، توقف عن الطواف، يقف بمكان قريب من زوجها و مجموعة الرجال، هل ينوي الغدر به ؟ هل يسترق السمع ؟ لحظة، يا الله، إنني اعرف هذا الشخص، رأيته قبلا، و لكن أين ؟ و متى ؟ فكري يا صفاء ، فكري بسرعة ، ليس لديك وقت طويل، الأمور بدأت تتعقد، ربما ينوون الشر، اعملي بحث سريع في خلايا الذاكرة، ضمن هذا القلق الذي تعيشه صفاء الآن بلحظات قليلة و الذي بدأ يأخذ شكل جبل شاهق، شعرت بخوف مفاجئ، هي بالضبط لم تشعر بالخوف المفاجئ، و لكنها استردت شعورا حصل معها مرتين أو أكثر نتج عن تفاجئها بوجود شخص بشكل غير منتظر، نعم هي شعرت بهذا الشعور مرتين أو أكثر، لا زالت تذكر الصدمة و النقزة التي روعتها عندما تفاجأت مرتين بظهور الملتحي بشكل مفاجئ، هو الملتحي، أصبح اكبر سنا، لحيته أصبحت بيضاء بالكامل بعد أن كان يتناوب فيها الليل و النه ار تلك الأيام، أصبح انحف من ذي قبل، لكن معا لم وجهه لا زالت تذكرها بدقة، كانت تردد، كما اعتادت أن تقول بالسابق، الله يستر بس.

أيكون هو ؟

ظلت صفاء تقتسم النظر بين زوجها من بين حشود الطائفين محاولة أن تفهم ما يدور بينه و بين المجموعة التي تقدمت منه، و الملتحي الذي كان يقف في مكان قريب، كانت خلال الخمسة عشرة سنة التي عاشتها مع زوجها اطلعت على أمور كثيرة متعلقة بموضوع اشراط الساعة و المحن التي ستدور قبلها، كنت قرأت و ناقشت أبحاث زوجها بهذا الخصوص، داهمتها أفكار غريبة، لا ليس من المعقول ! و لكن لماذا ؟ لماذا ليس من المعقول؟ أليس اسمه محمد و اسم أبيه عبد الله ؟ ألم يعرض عليه الناس الأمر و رفضه ؟ أليس هو خبيرا بهذه القضايا ؟ أليس وسع جبهته و أرنبة انفه الدقيقة مع حدة و دقة بالوسط هي ما شد انتباهها الأول عندما رأت وجهه أول مرة و هي من علامات... حتى انها لم تكن تجرؤ على تسميته، ربما هذا مجرد مصادفة، فالكثير من الناس لديهم هذه الأوصاف، الكثير من الناس اسمهم محمد و اسم أبيهم عبد الله، إنهم اسمين منتشرين بكثرة في البلاد العربية و الإسلامية، ليس من المعقول، هي رتبت ترتيب آخر لحياتها معه و أسرتها الصغيرة، حياة هادئة، حياة بعيدة عن الحروب و السياسة و الحكم، أهذا وقت الشرود يا صفاء ؟ عادت لرشدها، يجب مراقبة الوضع.

سأل الجماعة محمدا هل أنت فلان من المدينة ؟ قال: أنا من المسلمين ، قالوا : ولكن الناس الذين سألنهم عنك وصفوك لنا بدقة، قال: ربما شبه لكم، كان جوابه قاطعا و لم يحاول حتى معرفة ما يريدون من فلان أو من هو فلان حتى، استمع الملتحي للحوار القصير الذي دار بينهم، لكنه ظل واقفا ولم يتدخل، رمقه محمد بنظرة خاطفة، عرف كل واحد منهم صديقه، لكن كليهما أبدى و كأنه لم يفعل، ترك الرهط من الرجال محمدا و ذهبوا يبحثون عن صاحبهم، تقدم الملتحي من محمد قائلا: السلام عليكم و رحمة الله و بركاته، رد محمد التحية بأحسن منها دون

أن يقوم للمصافحة و العناق، ظل جالسا و الدموع لم تجف من عيونه و لحيته، قال الملتحي: كيف أنت ؟ قال: الحمد لله أنا بخير و لكن دعك مني الآن، أخبرني، متى قدمت من الشام ؟ قال: لتوي، قال: و ما الأخبار ؟ قال: عن أي ش يء تسأل؟ قال: بيت المقدس، قال: إذن أنت مطلع على الأمور ! متتبع للأخبار ! قال: ياشيخ أنسيت انه مجال تخصصي، قال: لم أقصد التخصص، قال: فما هو اذن ؟ قال: انت تدري ماذا اقصد !، قال: دعك من هذا و اخبرني، هل تم عمار بيت المقدس؟ قال: نعم، فعلوا، و هذا ما جاء بي إلى هنا، قال: و ما حال الناس؟ قال: و ما شأنك أنت ما دمت ترفض الأمر، قال: يا شيخ، أنا فرد من هذه الأمة و يسوؤني ما يسوؤه ا، و تعرف أنني أتابع هذا الموضوع، والحديث يقول: عمار بيت المقدس خراب يثرب، أنا فقط أتابع العلامات، و أردف قائلا : ما حال السفياني ؟ قال عبد الرحمن: كثير الظلم و الجور، لا يحفظ لمسلم إلة ولا ذمة، دعك منه، فمصيره معروف سيأتي لقدره فأنت تعرف هذا و سيكون الخسوف به و جيشه التثبيت و قال: لقد ظهر الشيب بر أسك و لحيتك، عرفتك شابا فتيا بدون لحية حتى، أول ما يلفت انتباه المرء فيك جبهتك الجلية و انفك المدبب و دقته بالوسط، وقد قل الشعر عند جانبي الجبهة عندك عن ذي قبل، قال: لقد مرت سنين طويلة على ذلك اللقاء، هل تريدني أن أبقى شابا كما رأيتني أول مرة ؟ السنين لها حكمها، قال: نعم مرت سنين طويلة، أظنها ستة عشرة عاما و أردف قائلا: هل هذا صحيح ؟ و بدون انتظار الجواب، سأل: كم بلغت من العمر ؟ قال: أربعون. يعي تماما محمد ماذا قصد الملتحي بالصفات الخلقية التي ذكرها بخصوصه، لكنه ظل رافضا بداخله حتى التفكير بالأمر.

صمت الاثنان كصمت القبور، كسر الملتحي حاجز الصمت قائلا: هو كذلك لا يعرف بنفسه و لا بالمهام التي توكل إليه، و لكن يصلحه الله في ليلة عندما يبلغ

الأربعين، قال: أو تظنني اجهل هذه المعلومات، قال: العفو: فأنا قرأتها في كتابك، قال: أنت قلت بنفسك "هو"، فعسى الله أن يهدينا إليه، قال: آمين، أن يهدينا و يهديه و ثبت نظره مبتسما كعادته بعيون محمد. قال: لما لم تخبر الرجال حقيقة من تكون؟ قال: أنا هربت من حشود اجتمعت لدي في المدينة لأنجو بنفسي مما يدعونني إليه، فهل تراني افضح أمري هنا ؟ قال: ر أيت الحشود، قال: هل حقا فعلت ؟ قال: نعم، مررت بداركم في المدينة و قابلت مساعدا، و هو الذي اخبرني بمكانك، قال: حسنا حسابك عندي يا مساعد، قال: هل انزعجت من قدومي، قال: لا لم اقصد، و الله يعلم و إننا هنا متعلقين بأستار الكعبة أنني احبك و اجلك و أحب لقائك، ولكني أخشى أن يبلغ الجميع بمكاني، قال: والله الذي استشهدت به إنني احبك به أيضا و مستعد لأسير معك إلى أخر العالم، قال: هذا لطفا منك ولكن لا حاجة لك لأن تسير معي إلى أي مكان، نظر عبد الرحمن بعيون محمد دون أن يهمس ببنت شفة، و كأنه ينتظر منه أن يكمل كلامه، قال محمد حسنا، حسنا، إن ظهر سرنا معا تحت إمرته، قال عبد الرحمن: لما رفضتها ؟ قال: وما شأني بها ؟ لست صاحبها، و لست أرغب بها، و لست اقدر أن أؤديها حقها، و لا ارغب أن احمل بعنقي حقوق و مصائر و دماء الناس، لا لم اخلق لها، فقط لننتظر صاحبها و نسير معه، قال: عبد الرحمن: صدقت، فأن الصبح لناظره قريب، تأمل محمد وجه عبد الرحمن متفاجأ بجوابه، من أين لديه هذه الثقة، كان خائفا أن يسأل فيجعله يخوض بالحديث بشكل أعمق، هو يريد أن يتوقف هذا الحديث، فبدأت الأفكار تهاجم عقله، هل ستتملكه هذه العدوى ؟ هل سيسيطر عليه حب الدنيا و الملك ؟ طبعا هو لا يرغب ب أي شيء من هذا، ولو كان العكس لما فر من المدينة، لا ليس الموضوع كذلك، و لكن الأفكار ظلت تجتاحه، قرر انه يجب أن يغير المكان و الحديث و الرفقة حتى، قال: هي بنا نتناول بعض الطعام سوية، ستفرح أم عبد الله بزيارتك، و سأعرفك بأولادي، قال: أشكرك و

يشرفني زيارتكم و لكن ليس الآن، يجب أن انهي مناسك العمرة و اختلي قليلا بنفسي أتعبد ربي و ربما في المساء أزوركم، ودع الاثنان بعضهم، قال عبد الرحمن: موعدنا الصبح إذا لم أتمكن من زيارتك الليلة.

البيعة

خرج محمد مع صفاء و أولادهم من الحرم متجهين للشقة التي يسكنوها، قال: هل تعرفين من قابلت ؟ قالت: اعرف، ر أيت كل شيء، و لكن ما شأنه ؟ و ما شأن الرهط من الرجال قبله، قال: فأما الرجال، فأظنهم يريدون ما أراد المحتشدون في المدينة، و لم أعرفهم بنفسي، قالت: و هو ؟ قال: لمح إلى ذلك تلميحا دون أن يفصح بشكل واضح ولم أناقشه بالأمر طويلا، لكنه قال لي: موعدنا الصبح مع أنني دعوته للعشاء معنا و قال ربما يأتي و لكنني لا أظنه يفعل، فكرت صفاء بكلام زوجها، ماذا قصد الملتحي من قوله " موعدنا الصبح"، تذكرت كيف كان كل حضور له في المستشفى يكون علامة لش يء ما، قالت: هل علم أنك بلغت الأربعين؟ قال: حتى أنت يا صفاء ؟ صمتت صفاء، وقالت بنفسها كالعادة " الله يستر" و لنرى ما ينبلج الفجر عنه، ظلت الأفكار تلهو برأسها إلى أن وصلوا البيت و انشغلت بتحضير الطعام، وفي تلك الليلة نام محمدا باكرا لأنه شعر بتعب شديد، ظلت صفاء ساهرة بقربه تراقبه، في البداية نام بهدوء و بعمق، ما أن مرت ساعة حتى بدأ بالهذيان و الحديث أثناء نومه، و بدأ يتحرك بنومه و يتقلب على غير عادته، كانت تسمع عبارات و أسماء و أشياء غير مفهومة، اقتربت أكثر لتستوضح العبارات و الكلمات، كان كمن هو في معركة، كمن هو في قتال، ثم هدأ، هل هو يحلم ؟ هل هو كابوس ؟ من يستطيع أن يشبع حشرية أنثى حاصرتها الأفكار و

الرغبة الشديدة بمعرفة ما يجري الآن ؟ حاولت تهدئته و تغيير طريقة نومه، علها تخلصه من الكابوس الرابض فوق صدره، هزت جسده، نادته يا أبا عبد الله، يا محمد، يا حبيبي، لكن دون جدوى، قالت: يا الله، في أي العوالم هو الآن ؟ لو أنني معه ! عندما هدأ، رأت ابتسامة رائعة على وجهه، ابتسامة لم تعرفها قبل قط، كان يغط بنوم هادئ من جديد كطفل ينام بحضن أمه، يشعر بالحنان و الطمأنينة، أم تراه بحضن آخر ؟ لا يا صفاء كيف يمكن أن تفكري بهذا الشكل ؟ قالت: لم أعني هذا، و الله لم أعنيه، فقط تذكرت رؤيا قصتها علي صديقة أنها رأت بمنامها رسول الله صلى الله عليه و سلم يلفها بعباءته قائلا هذه ابنتي فلا يؤذيها احد، وقالت لي وقتها: أنها شعرت بأنها ملكت الدنيا و أحست بطمأنينة غريبة، أطمأنت عليه و نامت قربه.

مع آذان الفجر استيقظ بكامل نشاطه، و أيقظ أهله للصلاة، قالت صفاء: صباح الخير حبيبي، ماذا حصل لك بالأمس ؟ ماذا كنت ترى في منامك ؟ قال: و كيف عرفت ؟ قالت: تكلمت بنومك و تحركت على غير عادة منك، قال: هل سمعتي شيئا ؟ قالت: فعلت و لكن لم استوضح أي ش يء، لكن عندما رأيت الابتسامة على وجهك اطمأننت عليك و نمت، قال: سأحدثك لاحقا، أريد الذهاب الآن لصلاة الفجر في الحرم، قالت: فقط طمني ، قال: هو خير إنشاء الله اطمئني، و خرج مسرعا. صلى مع الناس و بعد الانتهاء من الصلاة جلس بين الركن و الحجر و راح يذكر الله، هو الآن يعرف من سيأتي من جديد، أول من وصل كان عبد الرحمن، قال: السلام عليكم يا مولاي، قال: حاشاك مولاي و مولاك الله يا سيدي الكريم فأنت أكبر مني سنا، لم يتفاجئ عبد الرحمن لا من خلق محمد ولا من عدم معارضته للفظ، إذن الرسالة وصلت ! لكن سينتظر وصول الرجال. لم يطل انتظاره كثيرا فهاهم قادمون، قالوا: السلام عليكم، فرد محمد و عبد الرحمن السلام بأحسن

منه، قالوا: لقد سألنا و الكل يؤكد أنك أنت غايتنا، قال: صدقتم أن فلان الذي تسألون عنه، لكن لا أدري فيما تطلبونني، قالوا: حلفناك بالله، مد يدك لنبايعك، خلفنا حشود كبيرة من الناس وكل هم يبايعونك أيضا، قال: هناك ثلاثة من أبناء الحكام يتقاتلون عليها، لماذا لا تقصدون احدهم فتبايعونه فينتصر بكم، قالوا: أأنت من يقول هذا؟ و قد علمت و علمتنا أنها لا تصير لأحد منهم، قال: صدقتم، فعلى ماذا تبايعون ؟ هنا انفرجت أسارير عبد الرحمن، و أراد من فرحته أن يحضن محمدا و أن يقبل يديه، لكنه التزم الصمت، فأميره الآن يتكلم، قالوا: نبايعك أنك أنت إمامنا و أميرنا و قائدنا نقطع خلفك القفار و نخوض البحار لنفتح الديار أو نستشهد فنكون مع الأبرار، قال: نعم الحديث و مد يده، لم يكد عبد الرحمن يصدق ما يحدث حوله، قام واحد من الرجال فأعلن على الملأ: يا أيها الناس، هذا إمامكم المهدي، تعالوا فبايعوا، بلحظة واحدة اندفع الناس حوله كأسراب النحل حول خليتها، أصبحت الحشود بالآلاف بادئ الأمر، ثم بعشرات الآلاف، ثم بمئات الآلاف، لم ينقضي عصر ذلك اليوم حتى وصلت وفود الطائف و جدة و المدينة و المدن المجاورة، امتلئ الحرم على بكرة أبيه بحشود المبايعين، و مازالت الوفود تصل كأسراب الجراد الطائر إلى حقلا أخضر.

وقف خاطبا فقال بعد أن حمد الله و أثنى عليه و صلى على رسوله نبي الرحمة المهداة للعالمين: يا أيها الناس، تعرفون أنني لا أرغب بالإمارة و أنفر منها، ولكنه قدر الله، و تعرفون أنني لا أميل إلى البغي و العدوان، ولكننا سيفرض علينا القتال وهو أمر الله، و تعرفون أنه لا ينتظرنا حياة هانئة بل معارك طاحنة و فتوحات شاسعة وفتن صعبة و نرجو العون و النصر من الله، فمن كان لا يقدر النهوض معنا و يخاف أن لا يوفي ببيعته فهو في حل منها الآن، أمهلكم و أمهل نفسي

ثلاث ليال، فإن تأكد الأمر تمت البيعة وان لم يكن فأنا و أنتم في حل منها، ردت الحشود بصوت اهتزت معه ارض الحرم بايعناك بحول الله.

ثم وصلت الأخبار أن الرايات السود قد طلعت من قبل المشرق وقاتلوا أبناء الخلفاء الثلاثة قتلاً لم يقتله قوم حتى قضوا عليهم و من معهم، و كف الله أيدي أصحاب الرايات السود عن الحرم و المدينة المنورة فقد علموا بعديد الناس الذين بايعوا المهدي، و كان عدد أصحاب الرايات السود ليس بالكثير فتراجعوا و امتنعوا عن قتال المهدي و فضلوا انتظار وصول قوات تدعمهم.

جيشا تخسف الأرض به

لا أحد يدري كيف طار خبر البيعة إلى الشمال بهذه السرعة، و الأنكى من ذلك كيف تجهز جيش عرمرم بهذه السرعة أيضا و انطلق يريد مكة المكرمة، بالطبع لم يتحرك هذا الجيش بعظمه يقطع هذه الصحاري و يطوي الفيافي ليبايع كما فعلت الحشود، لكنه يريد صاحبنا، و على الأصح يريد رأسه. كان جيشا عظيما، حتى لا يكاد أوله يتمكن من رؤية أخره، كل أفراده يمتطون الجياد القوية و السريعة، كلهم مدججين بالأسلحة من سيوف و رماح و رماة نبل و كذلك كانوا يجرون خلفهم بعض المناجيق و المعدات الحربية الأخرى المختلفة الأحجام و المقدرات. كانت حركته وسط الصحراء تنشر الذعر و الخوف بين البلدان التي يمرون بها، صحيح أنهم لم يتعرضوا لأحد بأذى، فليس لديهم الوقت الكافي لأي مشاكسات جانبية، همهم الوصول بسرعة لمكة و القضاء على دعوة المهدي ببادئ أمرها قبل أن تستفحل و تعظم قوته. كانت سحب الغبار تتطاير خلفهم و أصوات حوافر خيولهم لا تتوقف عن الضجيج و كأن الجيش تحول إلى أرتال دبابات ضخمة من

التي كان يستعملها البشر قبل ستة عشرة سنة تسير بأعداد كبيرة لا تنتهي و تصدر أصوات مجنزراتها ضجيجا عظيما وحده يرعب الأعداء.

استمرت الوفود المبايعة بالوصل إلى الحرم من كل المدن المجاورة، وصل أخويه و أبنائهم و كل الحشود التي كانت تقيم عندهم بالمدينة مع الكثير من أهالي المدينة، مرت الأيام الثلا ثة و رفع الآذان لصلاة المغرب، بدأ عبد الرحمن يشعر بش يء من القلق، و الناس بدئوا يتهامسون، وحده محمد ظل هادئا متمنيا أن لا يصل ما ينتظره الناس، و على غفلة من جميع الحشود التي اصطفت للصلاة كان ينطلق رهط من الناس المتهالكين من التعب و الفاقدين عقولهم من الذعر و من هول البلاء الذي رأوه، تخطوا رقاب المصلين المصطفين في الساحات الخارجية للحرم للوصول إلى الصحن، كانوا يركضون كالمجانين، يرددون صاحبكم هو المهدي، صاحبكم هو المهدي، لقد خسف بالجيش في البيداء ما بين المدينة و مكة، وارتموا على الأرض بين يدي الإمام من شدة التعب و الخوف، حيث لم يكن هناك من مكان فارغ في كل الحرم غير جنب الإمام. استمر الناس في صلاتهم، كان المهدي في الركعة الثانية من الصلاة وقد أتم الفاتحة فقرأ بعدها، عند سماع النبأ من الشاردين من ذاك الجيش، من سورة المرسلات: و المرسلات عرفا ... حتى قوله تعالى إنما توعدون لواقع، استبشر الناس خيرا و اطمئنوا أكثر في صلاتهم، و ما أن سلم الإمام حتى تهافت الجميع نحو الشاردين، قال محمد: هونا عليهم يا أخوان، فهم مذعورون متعبون، إلينا ببعض الماء يرووا عطشهم و يستعيدوا وعيهم، فأوتي لهم بالماء، و شربوا كما لم يروا الماء منذ سنين، قال: إذن اخبرونا بالقصة، هموا بالحديث جماعة، قال: ليحكي واحد القصة، قال احدهم: بينما كان الجيش يسير في صحراء بين المدينة و مكة فإذا خسف عميق في الأرض يهوي به وسط الجيش بأكمله، تتعالى صرخات الجنود الذين كانوا بالوسط و الذين أصبحوا في قاع الخسف، يتعالى

صهيل الخيول، تنزلق خيول مؤخرة المقدمة و مقدمة المؤخرة في الخسف، يتنادى أفراد المقدمة و المؤخرة يحذرون بعضهم و لكن لا مفر من أمر الله اخذ الخسف يتسع بسرعة رهيبة ليبتلع المقدمة و المؤخرة و يكون الجيش كله على بكرة أبيه في أعماق سحيقة من الأرض و لم ينجو إلا نحن و هرعنا إليكم نخبركم بالأمر، قال المهدي حسنا فعلتم، قالوا أأنت هو ؟ قال: نعم، فهجموا على يديه يقبلونها و يطلبون العفو عنهم، و أنهم و كثير غيرهم كانوا مجبرين على الخروج و كرهوا الخروج لقتاله، لكنهم لم يستطيعوا عصيان الأوامر لأنهم هددوا بأهاليهم، قال: لا تثريب عليكم فالله يبعث الناس على نياتهم.

اللحاق بالشام

كانت صفاء تجلس وحيدة في غرفة النوم، حلقت يديها حول ركبتيها وغرست وجهها فوق ركبتيها و ذرفت دموعا غزيرة، ما بالك يا صفاء ؟ فيما نحيبك؟ بالتأكيد لم تكن دموع فرح، فأنا اعرف صفاء عندما تبكي فرحا، كانت دموع حزن بدأ يتراكم منذ أيام قليلة، ليغطي سنوات عديدة، اقلها سبعة أو ثمان سنوات، قلت: أصبحت الآن زوجة قائد الأمة ! و بمصطلح المجتمعات البشرية أنت الملكة ! لم تهمس ببنت شفة، بل تابعت بكائها المتقطع، المتهدج و الدفين، جربت طريقة الاستفزاز فقلت: منذ ثلاثة أيام كنت تحاولين، أو على الأقل تلمحين، أو لنقل تتسألين ، أيكون هو ؟ كانت تراودك رغبة عارمة بأن يكون هو، هل أنا مخطئ ؟ كنت تتوقعين أنه هو، أم تراك كنت تحلمين أن يكون هو ؟ لم أتوقع أن أسمع ردا وسط هذا البكاء، وسط هذه الأحزان، وسط هذا الشرود البعيد، هي تعرف الأحاديث كلها، تعرف القصة كاملة الآن، و تعرف النهاية، أنا أعرف ما يبكيها،

لكنني أتألم عندما أراها تبكي، صفاء، يجب أن تظل رمز الصفاء، رمز التضحية و العطاء، رمز الإيمان و التسليم بالقضاء، قررت زيادة جرعة الاستفزاز، أنا اعرف أنه عندما نكون بحالة ضعف، فنحن دائما نحتاج إلى من يساندنا ولو معنويا، نحتاج إلى من يدعم موقفنا فقط لنخرج من دائرة الحزن التي أقفلنا على نفسنا بداخلها، و بعدها يكون أسهل علينا تقبل الأمور مهما كانت صعبة، نحتاج لأحد يفتح لنا النافذة ليدخل شعاع النور إلى الزوايا المظلمة التي اختبأنا فيها بأعماقنا و أضعنا طريق العودة، أو بتنا نخشى الخروج و أصبحنا نشعر أننا مشلولين فلا نحاول حتى النهوض، قلت: لما أنت أنانية يا صفاء ؟ بكت بعنف، لم يعد هنا بكائها أنينا متقطعا، و لكنه أصبح بكاء عاليا بشهقات، بكاء كبكاء الأطفال الصغار، قلت: ابكي يا صفاء، ستساعدك الدموع، قالت: و ما تعرف أنت عن البكاء و الدموع ؟ لم انتبه أنها تحدثني، و أردفت قائلة: ماذا تعرف أنت عن الألم بصدري الآن ؟ ماذا تعرف عن تمزق روحي داخل جسدي ؟ يا الله ! كم أنت رقيقة و محبة و حنونة يا صفاء، قلت: لكنك تمنيت ذلك، قالت: حسنا، لقد فعلت، ألا يحق لي أن أتصرف بعض الأوقات كامرأة عادية ؟ ألا يحق لي أن اشعر ببعض الفخر ؟ ألا يحق لي أن اشعر ببعض التميز ؟ قلت: و كان و سيكون لك ذلك ؟ قالت: انك لا تفهم شيء، كل ذلك قشور، كل ذلك بهرج القول، و لكن الحقيقة أنني اعرف قدره، اعرف خطواته يوم بيوم، منذ الخسف و حتى ....، لم تستطع حتى أن تنطق الكلمة، و أجهشت بالبكاء من جديد، سبع أو ثمان سنوات، فما يشعرك أنت بالألم الذي يعتصر قلبي والحزن الذي يفتت روحي ؟ قررت تغيير إستراتيجية الهجوم فقلت: لو كان ملكا من ملوك الدنيا الذين عرفناهم كان هذا حالك الآن ؟ قالت: لا أريده أن يكون واحدا منهم و لا أقبل، قلت: حسنا إذن، لو كنت... ، لم أكمل جملتي و دخل محمد الغرفة، توقفت عن الحديث و تنحيت جانبا، ألقى التحية على صفاء، و ضم رأسها إلى صدره و قال: ما بال مليكتي تبكي ؟ هذا

اللقب ليس جديدا عليها، فهو اعتاد أن يسميها به من أول يوم زواج، اعتاد أن يناديها بملكتي الرقيقة، شقيقة روحي، حبيبة قلبي، و الكثير من كلمات الغزل، حتى أنني سأكشف لكم سرا، ولو أن ليس مكانه و وقته الآن، هو نظم بها و لها الكثير من قصائد الغزل و الوجد و الهيام، فبقدر ما هي إنسانة رقيقة و رومانسية فكلامه ارق، وكان و مازال يجعلها تدوخ، تهيم، تحلق في الخيال معه، بالطبع هو لم يناديها بلقب مليكتي الآن بسبب التطورات التي حصلت مؤخرا، ولكن، هو فعل لأنه من ناحية يشعر بها كذلك من أول يوم وقعت عيونه عليها، و من ناحية أخرى هو يعرف كم تحب هي هذا الاسم، تحب دائما أن يؤكد لها، وكل يوم، أنها مازالت الملكة الأبدية المتربعة على عرش قلبه، لذلك هو اختار هذا الاسم، طبع قبلة على رأسها و قال: وما تدري نفس ماذا تكسب غدا و ما تدري نفس بأي أرض تموت، بكت بقوة أكثر من ذي قبل، قالت: ولكننا ندري بشأنك، قال: لكل أجل كتاب، و ما يدريك لو أنني لم أكن هو أن لا يكون اجلي بعد بضعة دقائق ؟ هل تضمنين لي أكثر من ذلك ؟ بكت و غرست وجهها في صدره، قال: على الأقل، و إنشاء الله، أنت تضمنين الآن من سبعة إلى ثمان سنين، قالت: لم تبدأ المعارك و الفتوحات و ما عدنا نراك، فكيف إذا بدأت، قال: انه قدرنا يا حبيبتي، و الحمد لله أن اختارنا لقدر نخدم فيه الإسلام و نكون شهداء إنشاء الله، و يكون لنا الحياة الأبدية في الجنة، إنشاء الله، مع الأنبياء و الصديقين و الشهداء والصالحين و حسن أولئك رفيقا، لم اعرف إلا إيمانا قويا عندك، لم اعرف إلا رضا و قبول بقضاء الله و قدره لديك، لم اعرف إلا عزيمة ثابتة و راسخة لديك، فلا تسمحي للشيطان أن ينزغ بصدرك، فالمؤمن يقبل بقضاء الله وقدره و يحمد الله عليه فيؤجر على ذلك، و الذي لا يصبر على الابتلاء لا يناله غير السخط، وأمر الله نافذ رضي أم سخط، وأنت إنسانة مؤمنة و قوية العزيمة، و تحكمين العقل بكل أمورك و هذا ما يميزك، فلا تجعلي أمور الدنيا تجرك للوقوع في رفض قضاء الله و

قدره و هو ركن من الإيمان و أنت تعلمين هذا، قالت: والله، وأنت تعلم، ما على نفسي احزن، ولكن ....، قال اعلم ذلك، إنشاء الله لن يطول غيابنا عن بعض، حضنته بقوة و بكت مرددة احبك، و لا أطيق فراقك ثواني. قال: جهزي متاعنا والأولاد نسافر الفجر إنشاء الله، قالت: إلى الشام ؟ قال نعم، نمر على المدينة و منها إلى الشام، سيرافقنا الكثير الكثير من الحشود التي تجمعت هنا و التي وصلت من عصائب أهل الشام , و أبذال العراق ، وجنود اليمن وأهل مصر و الذين في المدينة. أما تذكرين حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم " إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة" و أنت تذكرين أن مكان اجتماع المسلمين للملحمة الكبرى بغوطة دمشق وهي من خير مدائن الشام، فالحديث يقول " إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة، إلى جانب مدينة يقال لها دمشق هي من خير مدائن الشام" و الحديث " يأتي زمان لا يبقى فيه مؤمن إلا لحق بالشام"

معاهدة الروم

ام الناس لصلاة الفجر في الحرم، لم يكن هناك مكان فارغ لا داخل الحرم ولا خارجه، و كأن مسلمين الأرض زحفوا إليه، هطلت الأمطار بغزارة و كأنها بشرى خير من الله رب العالمين، خطب في الناس بعد أن حمد الله و صلى على نبيه، وقال: يا أيها الناس، هو قدر الله، و قدره ماض، و أمامنا عمل كثير بين يدي الساعة، فلنخلص النيات و الأعمال، لا يكون أحدكم من الثلث الذي لا يتوب الله عليه، لأن نقابل ربنا مضرجين بدمائنا خير لنا مما على الأرض جميعا، و لمن سيبقى منكم هنا، وليت عليكم فلان، فمن كان له حق رده له، و من كان له

مظلمة على من كان قبلنا فليتقدم بها و سيرد له حقه، و من كان له حاجة فليأتي و يطلبها، الملك لله و ما نحن إلا عمال عليه، و أجرنا ،إنشاء الله، على الله، خير البلاد للعباد والناس سواسية ما أقاموا حدود الله وتلا قوله تعالي : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ و قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، بينما هو يقرأ تقدم منه احد الرجال و همس في أذنه، ثم عاد للناس و تلا عليهم قوله تعالى : فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ. قال لقد جاء نبأن الآن، أولهم مؤكد لأشراط الساعة و هو حصول خسفين: خسف في المشرق و خسف في المغرب، و هذا ما اخبر به الصادق الأمين صلوات الله و سلامه عليه، و أما الثاني: فأن الشرق قد حشدوا لنا، هي معركة انطلقت إليها منذ ستة عشرة سنة ولم أصلها، و الله اعلم، كتبت علي، فيجب دائما إتمام ما نبدأ به، نسأل الله التأييد و الثبات و النصر، فانطلقوا بعون من الله إلى فسطاطنا في دمشق.

كان خلال الأيام الماضية قد أمر مساعديه بتأمين الخيول و الأسلحة لكل الذين ليس لديهم ما يحملون عليه و ليس لديهم سلاح، كذلك جهزوا مؤننا كثيرة يحملوها معهم في الطريق. كذلك أمر بتجهيز عدة مشافي ميدانية ترحل معهم و مزودة بكافة الأدوية و العلاجات و الأدوات اللازمة لعملها. كذلك أمر بتجهيز عربات خاصة بالنساء و الأطفال، فالكثير يرتحل مع أهله، وهو كذلك يفعل.

سارت الجيوش بهيبة عظيمة ولكنه أوصى الجميع أن لا يؤذوا لا بشرا و لا حيوانا و لا شجرا و لا حجرا، و بالعكس يجب أن يساعدوا كل من يحتاج المساعدة في الطريق، تذكر موقف ذو القرنين و فعله مع الذين لا يفقهون قولهم، كيف هو ساعدهم بكل تواضع و وقار، وصلت الجيوش قرب المدينة المنورة، فطلب من

الجيش الاستراحة بينما يمر يسلم على رسول الله صلى الله عليه و يسلم و يولي احد على المدينة و يوصي برد الحقوق إلى أصحابها، لم تطل إقامته في المدينة، بل كان بشوق للوصول إلى دمشق، طلب من عجوزه البقاء في المدينة، قالت: و بحسم، إن كنت تأمرني كحاكم أطعتك، قال: حاشا لله أن أأمرك، أنا فقط لا أريد أن أحملك مشقة السفر و انحنى وقبل قدميها، قالت: حلفتك بالله لا تفعل: فأنت خليفة المسلمين، قال: ولكنني اطلب الجنة، و هي تحت قدميك، فبكت و قالت: فأما و أنك تطلب الجنة و تعرف قدر أمك، فلا تحرمني الجنة، فأنا أيضا اطلبها، أريد أن أكون معكم، أساعد فيما استطيع، لا أطيق فراقك، نستشهد معا، بكى هو أيضا و قبل يديها و رأسها وقال: السمع و الطاعة، يا الله ماذا تفعل بي يا أيها المهدي ؟ من أي طينة أنت جبلت ؟ لتكون بهذا التواضع، بهذه الحنية، بهذا الحزم، نعم فأنت حفيد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و الله من أصلحك، هنيئا لك، بل هنيئا لنا بك، ي الله ماذا تفعل بي يا أيها الحاكم ؟ ما هذا النموذج الذي قرأنا عنه فقط في الكتب، لله درك أعدتنا لعهد الراشدين أبو بكر الصديق، و عمر الفاروق، و عثمان ذو النورين، و علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، أعدتنا لزمن العظماء بإسلامهم و علمهم و عدلهم و عملهم، لله درك تبكيني مرتين، ولا ادري إن كنت ستبكينني أكثر، مرة في المستشفى و مرة تنحني لتقبل قدمي أمك !

كان الخضار يعم جميع المناطق التي مروا بها و كل ما ازد ادوا قربا من حدود الشام ازداد الخضار و ارتفعت الأشجار، خاطب عبد الرحمن قائلا: أترى يا عبد الرحمن، لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجا و انهارا، هذه هي المروج و ستظهر الأنهار إنشاء الله، أترى الخير يا عبد الرحمن، فأين ما سرنا الأمطار غزيرة و الزروع كثيرة، الحمد لله الذي سقانا بعد عطش، و الذي أطعمنا بعد جوع، و الذي وحدنا بعد فرقة، و الذي أعزنا بعد ذل صنعناه بأيدينا، و الذي نشر بيننا العدل

بعد ظلم و جور، قال عبد الرحمن: إنما الفضل لك يا مولاي، قال: بل الفضل لله، و ما أنا إلا عبد من عبيده، ارجوه أن يعينني على ما كلفني به، وكم مرة قلت لك لا تناديني بمولاي، كنت تناديني بأبا عبد الله فأفعل كما كنت، أو نادني بمحمد كم كنت تفعل بالمشفى، قال: حاشا لله، فأنت الآن أمير المؤمنين، قال: أوليس المؤمنون إخوة، قال: بلا، قال: فنادني يا أخي يا أبا عبد الله.

ما أن اقترب الجيش من مشارف الشام، حتى لاح في الأفق مجموعة من الفرسان يرفعون راية بيضاء رسم عليها الصليب، قال عبد الرحمن هولاء رسل الروم يا أبا عبد الله، ما تظن ورائهم، قال: يصلون و نعرف، اقتربت المجموعة من مقدمة الجيش و سألوا عن قائد الجيش فهم يحملون رسالة للملك من ملوكهم و يريدون أن يعرفوا هل الملك في مكة أو المدينة لسلموه الرسالة، يا للغرابة يخاطبون الملك و لا يعرفونه، طبعا، فلباسه كلباس العامة و مظهره كمظهر العامة و تواضعه اقل من تواضع العامة، كان في مقدمة السائرين بالجيش، و لم يفترضوا أن يكون قائد الجيش في المقدمة و لم يتخيلوا أن يكون الملك في الجيش وفي مقدمته، سرحت بفكري، تذكرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما كان يقصد القدس على حمار وهو أمير المؤمنين لتسلم مفاتيحها و مر بموكب معاوية رضي الله عنه فلم ينتبهوا له مرافقي معاوية رضي الله عنه، لله درك يا أيها المهدي، فهذا عهد الخلافة الراشدة من جديد، قال عبد الرحمن: هذا أمير المؤمنين و أشار إلى المهدي، قالوا: المعذرة لا نفهم، هل تقصد أمير الجيش ؟ قال: لم أقل أمير الجيش، بل قلت: أمير المؤمنين، قال المهدي رويدك يا عبد الرحمن، فالروم لا يعرفون هذه التسمية بعد، تنحى عن مقدمة الجيش و أشار للرسل أن يلحقوا به إلى تحت شجرة وارفة الظلال، صحبه عبد الرحمن و همت مجموعة من المسلمين أن ترافقه فأشار لهم أن يستمروا بالسير مع الجيش، ما أن وصل إلى قرب الشجرة ترجل عن فرسه عقد رباط فرسه بغصن

من الشجرة و جلس على الأرض تحتها، و قال: تفضلوا و هاتوا ما عندكم، اصيب الرسل بالذهول، ملك يجلس على الأرض ؟ على التراب ؟ ملك يقابلهم دون حراسة، دون حاشية، ملك يلبس كعامة الشعب، ملك يركب فرسا ؟ أيكونون يتعرضون لخدعة ؟ نظر بعضهم إلى بعض ؟ فهم المهدي ذهولهم، قال مبتسما: لستم تتعرضون إلى خدعة، أنا محمد ابن عبد الله المهدي الذي تريدون، قالوا و هم مترددين، جاءنا برسالة من ملوك الروم، و سلموا الرسالة للمهدي، قال : ألا ترتاحون قليلا، انتبهوا إلى أنهم ما زالوا يخاطبونه واقفين و هو جالس، قالوا لا يصح أن نجلس بحضرة جلالة الملك، قال: أو ليس الملك بشرا ؟ أو تجلسون أو أقف مثلكم، أشار عبد الرحمن لهم فجلسوا متفاجئين، فتح الرسالة و قرأها، قال موجها الحديث لعبد الرحمن، عرفوا بأمر تحرك الشرق، و قد كانوا بحلف مع العرب في تلك الحرب منذ ستة عشرة سنة ضد الشرق، يريدون أن نجدد ذلك الحلف معهم، يريدون قتال الشرق معنا، ما رأيك ؟ قال: الرأي لك، قال: أنا أسألك المشورة، وان لم تفعل أوقفت الجيش كله و استشرته، قال: أرى أن ندخل معهم في حلف، على الأقل نكسب جانبهم بينما نحن مشغولون مع الشرق، قال: أحسنت الرأي، فهذا رأيي أيضا، لكن أحببت أن اسمع منك أيضا، و أردف: لديهم ثار قديم مع الشرق فالدمار الذي لحق بالعالم في تلك الحرب رهيب، و جعلهم يخسرون كل تفوقهم على العالم، قال: اكتب يا عبد الرحمن،

من عبد الله محمد ابن عبد الله المهدي خليفة المسلمين إلى ملوك و رؤساء الروم السلام على من اتبع الهدى

أما بعد،

استلمنا كتابكم و لا مانع لدينا من الدخول في حلف معكم لمقاتلة المعتدين من الشرق وفي الشرق فقط و لهذه المعركة أو مجموعة المعارك، على شرط انه إذا وقعت المعركة في أراضي الشرق، فأنتم تعبرون أراضي المسلمين عبورا و لا تقيموا فيها، و إذا وقعت المعركة فأنتم ترحلون بجنودكم عن أرضنا فور انتهاء المعركة و لا تقيمون بأرضنا، و على جنودكم أن يحترموا أعرافنا و قوانين بلادنا و من لا يفعل نحاكمه حسب قوانيننا نحن، و أعطيكم عهد الله ما دمتم على العهد فان نقضتموه فأنا و المسلمين في حل منه. كما لا يلزمنا العهد معكم مقاتلة إخوان لنا مسلمون ولو كانوا في الشرق، فنحن من يحدد العدو و الصديق، كما لا يلزمنا هذا العهد القتال في أماكن أخرى أو زمان آخر إلا أن يكون عهدا جديدا بيننا و بينكم.

فإذا كانت شروطنا مناسبة لكم فمرحبا بكم ملوكا أو مندوبين عنكم ضيوفا علينا في دمشق.

أخذه من عبد الرحمن، قرأه، وقعه و ختمه بختمه و سلمه للرسل، قال: إن كنتم في حاجة للراحة و الزاد فمرحبا بكم، وان ترافقونا في الطريق للشام فمرحبا بكم أيضا، فنحن في عجالة من أمرنا.

فتح فارس و ما ورائها

وصلت الجيوش غوطة دمشق، كان أهالي دمشق و من حولها من المدن ينتظرونه بالورود و الأهازيج و الزغاريد مرحبين به و بجيوشه، مبايعين له وكل يدعوه للنزول عنده، ترجل عن فرسه صافح العديد من الناس، و الكثير منهم كانوا يأخذونه بالأحضان، حمد الله و أثنى عليه و صلى على رسوله وقال: تعلمون مكان

الفسطاط الغوطة، فأرجو من أهلها التكرم و السماح لنا بنصب خيامنا في مكان هم يختارونه، ما جئنا للقيام، ولكنها فتوحات ننطلق من الشام إليها و نعود للشام حتى يأذن الله لنا، قال أهل دمشق: تقيم في قصر من قصور دمشق و يقيم الجيش حوالي دمشق، قال: لا حاجة لي في القصور، و سأكون مع جيوشي وفي خيمة كخيامهم، هتف أهالي الغوطة: كل بيوتنا و قلوبنا قبلها مفتوحة لك و لجيوشك، قال: اقدر لكم ذلك ولكنني لا أدخل بيتا، فهي استراحة بسيطة و بعدها نتحرك للشرق، و الفسطاط يكون خارج بيوتكم. وجه حديثه للجيش ووصاهم أن لا يعتدوا على أملاك الناس، و يحفظوا حرماتهم، و لا يطلبوا شيئا من الأهالي و لا يجبروهم على فعل شيء، و ليتقوا الله في دماء و أعراض و أموال الناس، ردد الجيش و الأهالي سمعا و طاعة.

بدأ الجيش يعمل كخلية نحل لنصب الخيام و تجهيز المخيمات الضخمة لهذه الجيوش الضخمة و الأهالي كانوا يعدون الطعام بقدور كبيرة و كثيرة لإطعام الجيوش، لاحظ عملهم هذا فشكرهم و طلب منهم أن لا يعودا لمثل هذا، قالوا: أو لسنا مسلمين، أو ليس لنا دور في المعركة، قال: بلى، من منكم يرغب بالالتحاق بنا فليفعل، قالوا: و دور أهلنا بالمساعدة بتجهيز الطعام و تمريض الجيش، قال: فليكن لكن تحصلون على نفقات من الخزينة و لا تتكلفون من أموالكم الخاصة، قالوا: نحن و أبنائنا و نسائنا و أموالنا فداء لك، قال: بل فداء لرفع كلمة الله و لوجه الله.

دخل على خيمة أسرته، كان ابنه عبد الله ذو الخمسة عشرة سنة يجهز سيفا له و لباسا عسكريا، قال: السلام عليكم، ما تصنع ؟ قال: أجهز نفسي للحرب، قال: حربك في مكان ثاني، قال: ما تقصد يا والدي ؟ قال: حربك في العلم و التعلم، قال: ولكن ما فائدة العلم و قد اقتربت الساعة، قال: الم تسمع حديث رسول الله

صلى الله عليه و سلم " إن قامت الساعة و في يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها" إذن معركتك في التعلم فلتكملها، قال: و لكن يا والدي، ارغب بأن أكون من خير جند الأرض أقاتل تحت لوائك، قال: س تأتي دورك و تقاتل، فما ولت فتي، قال: و لكن رسول الله صلى الله عليه و سلم كلف اسامة بقيادة جيش كبير و ما زال شابا صغيرا، قال: صدقت فعل صلى الله عليه و سلم ، ولكن اسامة كان اكبر منك، قال: و علي كرم الله وجهه قاتل و هو شاب، قال: فعل رضي الله عنه، ولكنك لست عليا و لم تحصل على تدريب كاف بعد، قال: احصل عليه و التحق بكم، قال: ليس اقل من سنة و إنشاء الله تفعل.

انطلق من دمشق جيش كبير جداً من المسلمين الذي اجتمعوا من كل بقاع الأرض، لم يجد هذا الجيش بقيادة المهدي وقتاً للراحة ولا للنوم، بعد فارس و النصر العظيم الذي حققته الجيوش بقيادة المهدي، وصلت الجيوش خوزاً وكرمان، وهي بلاد يحدها من الغرب بلاد فارس، ومن الشمال خراسان، ومن الجنوب الخليج الفارسي، أو بحر فارس كما كان يُسمى قبل ذلك عند العرب، سكانها حمر الوجوه، فطس الأنوف، صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة، كأن وجوههم كالتروس المستديرة التي غطيت بالجلد، يلبسون الشعر ويمشون في الشعر، نعالهم من الشعر، و من ينظر إلى نعال سكان المناطق الباردة يعلم يقيناً أنها تصنع من الشعر، من الفرو المعلوم بلغتنا نحن، ومعظم الثياب التي يرتدونها من الفرو الجلود من الشعر، فلباسهم الشعر ويمشون في الشعر، أي: تصنع نعالهم من الشعر. خاضت الجيوش الكثيرً من الملاحم والحروب والمعارك التي تحمر فيها الحدق، ويرتفع فيها صهيل الخيول، وتسمع فيها قعقعة السيوف والرماح، وتبلغ فيها القلوب الحناجر، ويسقط فيها كثير من القتلى والجرحى، حتى انه في بعض المعارك خاضت الخيول في برك من الدماء والأشلاء، فلك أن تتصور أن الشرق، حتى الآن، يقف على قلب رجل

واحد لقتال المهدي، يخوض المهدي كل هذه الملاحم والمعارك التي نصره الله عز وجل فيها كلها؛ ليتحقق وعد الله، وليتحقق وعد رسول الله، بأن الإسلام سيعم أرجاء الأرض، وتصور أن العالم كله بعد ظهور المهدي سيقف صفاً واحداً لقتال المهدي! وأبشر فما من معركة سيخوضها المهدي إلا وسينصره الله.

خلال تلك الفتوحات و المعارك المشتركة بين جيوش ش المهدي بالتحالف مع الروم ضد الشرق، انبهر الكثير من جنود الروم و ضباطهم بطريقة تعامل المهدي مع جيوشه، و كيف انه دائما في أول الصفوف، و كيف انه يخاطر بنفسه لإنقاذ جريح أو الدفاع عن محاصرين مهددين بموت محقق، و كيف هو عطوف و حنون و متواضع مع الجميع، يأكل معهم و ينام بينهم و يتفقد الجميع و يسأل عن الجميع، كان العديد منهم مسلما من قبل بدء المعارك فيعيش في بلاد الروم أكثر من 100 مليون مسلم و هذا عدد لا يستهان به، و دخل الكثير من الجدد منهم في الإسلام أثناء تلك الفتوحات المشتركة، و انضموا لإخوانهم المسلمين يتعلمون منهم كل شيء عن الإسلام، و يمارسون العبادات مع المسلمين، يأكلون معهم، بمعنى آخر، هم انسلخوا عن قياداتهم و عاداتهم و طريقة تفكيرهم الرومية و انضموا تحت راية الإسلام، تحت لواء المهدي.

حققت الجيوش انتصارا عظيما جعلت مدن الشرق تسقط واحدة تلو الأخرى و تفقد الأعداد العظيمة من مقاتليها و ترضخ بالنهاية للاستسلام و إعطاء الطاعة للمهدي،

عادت الجيوش بمغانم هائلة من الشرق، مغانم تكفي كل البشر على الأرض و تزيد، حتى صار المهدي يقسم المال صحاحاً، بالسوية بين الناس يعطي الناس، كان يحثي المال حثيا، أي يأخذه بالقبضة، و لا يعده عدا و لكن كمن يزنه وزنا تقديريا لكثرة المال، بينما هو يوزع المال على الناس، جاءه لرجل، فيقول: يا مهديُّ أعطني، أعطني، قال: او معك شيء تأخذ به المال ؟ قال: لا، فرفع الرجل ثوبه و المهدي

يحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحملَه، ظل يوزع الناس حتى ما عاد احد منهم يطلب مالا، أرسل مناد ينادي بين الناس: من له في مال حاجة ؟ فما قام إلا رجل واحد، قال له: اذهب لخازن المال و قل له يأمرك المهدي أن تعطني مالا، فذهب للخازن، و الخازن يعد له المال: قال الرجل: احثيه حثيا يا رجل، ففعل، نظر الرجل إلى المال بين يديه و ندم، قال: أنا بلا شك اجشع امة محمد صلى الله عليه و سلم نفسا أعجز عني ما وسعهم ؟ فشعر بندم كثير، فرجع إلى المهدي يرد المال، فلا يقبل منه، قال: نحن لا نأخذ شيئا أعطيناه. أرسل الأموال الكثيرة و الوفيرة إلى كافة أمصار المسلمين توزع على الناس هناك، كذلك أعطى جيش الروم نصيبه الوافر من الغنائم. وعادت الجيوش بعد أن كلف أمراء له على تلك المناطق جميعها.

الملحمة الكبرى

في طريق عودة الجيوش، كانت الأمطار غزيرة وفيرة و الخضار و الخير يملأ البلدان، و الماشية كثيرة العدد في كل البلدان. وصلت الجيوش إلى مرج دابق بالقرب من حلب، قرر المهدي التوقف هناك للاستراحة و توديع جيش الروم الذي شارك الفتوحات معهم ، حيث كان و حسب العهد الذي تم بينهم أن يغادر جيش الروم أراضي المسلمين شاقا طريقه من تلك النقطة عائدا إلى بلدانه، هو يعلم المكان، يعلم ما يعنيه هذا المكان من مقدمات لفتوحات تأتي، و يعلم الغدر الذي يأتي فهو لا يتعجل قدر الله، بل يترك الأمور تسير على، كان جالسا تحت شجرة مسندا ظهره لجذع الشجرة حينما اقترب منه عبد الرحمن، قال: وصلنا دابق، يجب أن ننبه جنودنا، قال: لا تفعل، فقدر الله ماض، و ما أظن احد منهم لم يسمع بحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم، أرسل مجموعات الاستطلاع لينظروا مواقع حشود جيوش الروم الأخرى غير الجيش الذي قاتل معنا فهذا نعرف مكانه،

تعدادهم من المفروض أن يكون قريب المليون مقاتل، قال سمعا و طاعة و انصرف.
في كثير من الأحيان عندما تشاهد أو تقرأ رواية تاريخية، فأنت تعلم الخطوط العريضة للأحداث، مع انك في بعض الأوقات تتمنى لو انك تستطيع تغيير مجرى بعض الأحداث لتكون في صالح الطرف الذي تؤيد، ولكن هذا مستحيل، فمن الأفضل أن لا تفسد قرأتك أو مشاهدتك بكثير من الـ " لو" و أن لا تسمح للخيال بأن يأخذك بشكل جامح بعيدا عن الحقائق، مع أنني من مشجعي التخيل، ولكن على مستوى فردي و محدود وليس على مستوى جماعي و على مستوى خيارات امة و أشياء وقع عليها القلم و جف حبرها، بالأكيد هو لا يريد أن يفسد على القارئ سير الأحداث فلا يستبق ما سيقع لاحقا. كان عبد الرحمن يتنقل بين خيام معسكر جنود المسلمين يبحث عن المهدي، حتى وجده يتفقد أمور المسلمين، قال: صدقت و صدق حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: بل صدق حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: يحتشدون تحت ثمانين راية، و تحت كل راية اثنا عشر الفا، و بحساب بسيط الرقم الإجمالي تسعمائة و ستون الف مقاتل يعني قريب المليون. صمت المهدي و غرق في التفكير، قال عبد الرحمن: هل تفكر بخطة ؟ لم يجاوب المهدي و إنما ظل غارقا في شروده، قال عبد الرحمن: هل تخشى على جيوشنا ؟ قال: لا أخشى على جنودنا، و لكني احمل هم الثلث الذي يفر من جيوشنا، عدد كبير، قال عبد الرحمن: هل تخشى أن نخسر المعركة بدونهم، قال: لا أخشى خسارة المعركة بدونهم فالمعركة محسومة بإذن الله، فمنذ أول فتوحات الإسلام، كانت المعارك محسومة بالنسبة لنا بإحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، ما يقلقني حرمان هذا العدد الكبير من مغفرة الله، فأنا و أنت و الجميع يعرف ذلك، و لكن قدر الله ماض، و رغم أن الإنسان يعرف هذا، يظل يؤمل نفسه و يظل بعضنا يسلم نفسه للدنيا و الفرار من الموت و كأنه سيخلد في الأرض، يا للعجب من بني آدم، يفتح له الله باب الجنة أو النصر فيدير ظهره و

يفر ! أردف قائلا: يا من قلوبنا بين يديه يقلبها كيف يشاء، ثبتنا على الإيمان، و أيدنا بجنودك و انصرنا بنصر مبين، قال عبد الرحمن: آمين اللهم آمين.

بينما كانالمسلمين: سلمين تصل تباعا إلى تلك المنطقة حيث خيمت أول طلائع المسلمين وصولا لمنطقة مرج دابق بضاحية من ضواحي حلب، قام رجل من الروم و رفع الصليب و صاح انتصر الصليب، غار رجل من المسلمين فقام و دفعه، فأظهر الروم غدرهم و تصافوا للقتال و جيوش المسلمين لم تصل كلها بعد، و الروم قد جهزوا حوالي مليون مقاتل، قالوا: خلوا بيننا و بين الذين سبوا منا، هم يعتبرون الذين اسلموا من جيش الروم الذي كان يقاتل مع المهدي و انضموا لجيش المسلمين، يعتبرونهم سبي، بمعنى أن المسلمين أجبروهم على الإسلام و أخذوهم كأسرى، هم يعرفون أن المسلمون لم يجبروا احد، و لكنهم يبحثون عن مبرر للغدر فما وجدوا إلا هذا الادعاء. ردت جموع المسلمين : لا؛ والله! لا نخلي بينكم وبين إخواننا ولقد صاروا إخواناً لنا من المسلمين. يرى جمع المسلمين حشود الروم الضخمة التي جمعت لهم، و لم تكن جيوش المسلمين قد وصلت كلها لمرج دابق، يفر ثلث جيش المسلمين من المعركة، التي بدأت حامية الوطيس، ملتهبة لدرجة أن الرؤوس و الأطراف و الأشلاء كانت تتطاير و الدماء ملئت المكان حتى صنعت بحيرات من الدم، فر ثلث جيش المسلمين و عيون المهدي مليئة بالدموع عليهم أن خسروا أنفسهم أن استبدلوا دينهم بدنياهم، هو ليس خائف من المعركة، هو متأكد من نصر الله و تأييده للمسلمين، لكنه حزينا على من فر، يجتمع المسلمون حول أميرهم يتعاهدون على قتال ينتهي بالنصر أو بالاستشهاد، يشترطون فيما بينهم شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون مع الروم قتالا عنيفا، تسقط فيها أعدادا هائلة من المسلمين حتى يحجز بينهم الليل، فيرجع هؤلاء وهؤلاء، أي المسلمين و الروم، كل غير غالب، فهي حرب سجال ليس فيها غلبة لأحد وتفنى الشرطة،

أي العهد الذي تعاهده المسلمين فيما بينهم ، و في فجر اليوم الثاني و بعد صلاة الفجر ، يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، وهذا هو اليوم الثالث، فإذا كان اليوم الرابع وصلت باقي حشود المسلمين و نهد إليهم أهل الإسلام فيجعل الله الدائرة على أهل الكفر- فيقتتلون مقتلة لم يُر مثلها، حتى امتلأت الأرض بالجثث و الدماء و انتشرت رائحة الموت في كل مكان حتى إن الطائر يمر طائرا فوقهم و بالقرب منهم فما ينتهي بالطيران فوقهم حتى يخر ميتاً، قال المهدي محدثا عبد الرحمن: انظر تفاصيل حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم تقع بالضبط كما اخبر و كأنه صلى الله عليه و سلم كان يقف هنا يراقب المعركة قبل وقوعها منذ زمن بعيد.
لاحظ المهدي شاب يبحث مذعورا عن ش يء ما، ناده، قال: عن ماذا تبحث، قال: لي مائة من الإخوة، كلهم أبناء أبي من عدة نساء، لا أجد واحد منهم، قال: استرجع الله، احتسبهم شهداء عند الله، و تلا عليه قول الله تعالى: و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون، و ضمه إلى صدره، قائلا: كلنا إخوتك، قال الشاب: إنا لله و إنا إليه راجعون، اللهم ارزقني الشهادة كما رزقتها إخواني، و انحنى يريد تقبيل يد المهدي، قال: قم يا يرجل، لا تفعل فأنا أخوك، و انطلق ساعد إخوانك في دفن شهدائنا، تلك المعركة سميت بالملحمة الكبرى لان أعداد القتلى كانت عظيمة لدرجة كبيرة انه لم يحدث شبيه لها بتاريخ البشرية بالنسبة لعدد القتلى و مناظر الرعب التي حدثت خلالها، ففعلا كانت كما وصفها رسول الله صلى الله عليه و سلم: { فيقتتلون مقتلة لم يُر مثلها }. حصل المسلمون بعدها على غنائم كثيرة جدا، و لكن احد منهم لم يفرح بغنيمة و لم يطلب غنيمة و لم يقتسم أي ميراث، الكل زهدوا بالدنيا و متاعها و

أموالها بعد هذا القتل الرهيب الذي شاهدوه، و بعد مقتل الكثير من أبائهم و أبنائهم وإخوانهم و أقاربهم و أصدقائهم، الكل كان غارقا في حزن شديد.

فتح القسطنطينية

هربت فلول جيوش الروم باتجاه القسطنطينية، وكان المسلمون منشغلون بدفن شهدائهم، أمر المهدي بتجميع الغنائم، و عرض على المسلمين من الروم الحصول على ما يرغبون من الغنائم، قالوا و الله لا نأخذ منها شيئا، زهدنا بالدنيا كما فعل إخواننا العرب، نرجو منك متابعة الفتوح للقضاء على فلول جيوش الروم و فتح بلادنا، هذه الغنيمة الوحيدة التي نرجوها منك، قال: أو تقاتلون أهلكم، قالوا: ما أهلنا إلا المسلمين، و نود أن تفتح بلادنا فيدخل أهلنا بالإسلام و يغنمون نعمة الإسلام كما غنمنا، و ينجون بأنفسهم من النار كما نرجو أن ننجو نحن، حمد الله و أثنى عليه، قال: يا عبد الرحمن، هل تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم : "لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق..." و قرأ حتى أخر الحديث، هؤلاء هم بني إسحاق، أرأيت كيف أن ظن بعض المفسرين كان خطئا، بعضهم فكر ربما كان هناك خطأ إملائيا و المقصود بني إسماعيل و ليس بني إسحاق كما ورد في الصحاح من الحديث، أليسوا هولاء من بني إسحاق يا عبد الرحمن، قال: بلا، هم كذلك، هم من سلالة عيص ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهما سلام الله كما ورد في الحديث، تلهف المسلمون من الأصول الرومية لمعرفة كامل الحديث فطلبوا من أميرهم المهدي إخبارهم به كاملا، قال: حسنا، ستعجبون من هذا إذا علمتم أن القسطنطينية لن تفتح بسيف ولا برمح، ولا بخيول، وإنما ستفتح بلفظة: (لا إله إلا الله) و(الله أكبر)، هكذا قال الصادق، روى

الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل أصحابه: { سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ }
والنبي صلى الله عليه وسلم ما رآها، ولكنه يصفها وصفاً كأنه رآها، فيقول لأصحابه: { سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم، يا رسول الله! سمعنا بها، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق، فإذا جاءوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيسقط أحد جانبيها الذي في البحر، ثم يقولون في الثانية: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيفرج لهم، فيدخلوها فيغنموا، فبينما هم يقتسمون الغنائم إذا جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون } أي: إلى ملاقاة الدجال، وهكذا تفتح القسطنطينية بلا قتال وبلا سلاح ولا سهام. كبر المسلمون جميعا و حمدوا الله، قال المسلمون من الأصول الرومية، سنكون تحت لوائك ؟ قال: إنشاء الله.

دفنت جثث شهداء المسلمين كلها، فقد استشهد من ذلك الجيش العرمرم ثلثه بعد أن فر الثلث و بقي الثلث، أمر المهدي بجمع الغنائم و حملها كلها إلى الشام و الأمصار الأخرى لتوزع على الناس هناك و أرسل كل القوات التي جاءت معه من الجزيرة العربية و الشام ليعودا بالغنائم فلهم مهام أخرى تنتظرهم هناك، أبقى معه تسعة رجال على رأسهم عبد الرحمن بالإضافة إلى سبعون ألف من مسلمين الروم.

قرص الشمس

في طريق الرحلة الطويلة من مرج دابق بضواحي حلب إلى القسطنطينية و قبل سقوط الليل تهيئ الجيش للمبيت، كان الجميع مشغولون بتجهيز الخيام و الطعام، وحده ارتقى تلا مرتفعا مليئا بالصخور، جلس على إحدى الصخرات الكبيرات و راح يتأمل منظر سقوط قرص الشمس في الأفق، كان قد مر زمنا بعيدا لم أتحرش به، لم أتطلع على خيالاته، أنا اعلم أنها لم تعد مجرد خيالات كما كانت بالسابق، هي الآن واقع ملموس، هي أحداث رهيبة تقع كل ساعة، تأمل المكان حوله، الوديان من تحته، كانت مناطق كلها جبال و كهوف، مناطق تتشارك فيها الجبال و السهول و الوديان، قلت: هل زرت هذه المناطق قبلا ؟ بالتأكيد لم أتوقع ردا، فهو الآن لا يبالي لهذه الخيالات و المهاترات الفارغة، لديه مهام عظام ليس فقط يفكر بها و لكن ينفذها، قال: الصدق و الصدق أقول، لم أزرها سابقا، ولكن، صدمني باثنتين، الأولى انه تجاوب بالرد و الثانية لكن هذه، دائما يكون وراء لكن أشياء لا نتوقعها، أشياء أحيانا كثيرة ننفر منها، نكرهها نرفضها، و أحيانا أشياء تقلب الموازين، تغير كل ما خططنا له، تركته يكمل الحديث، لم ارد أن أقاطعه فيتبين أنني تسللت إليه، قال: لست ادري، لدي شعور غريب أنني كنت هنا سابقا، تذكرت بدوري أنني في كثير من الأحيان ازور أماكن أو التقي بأشخاص أو اسمع حديثا فيخيل لي أنني زرت هذا المكان أو التقيت هذا الشخص أو سمعت أو شاركت بهذا الحديث سابقا، الكثير من علماء النفس يسمون هذه الحالة بالحاسة السادسة، احتفظت بصمتي، أردف قائلا: يخيل لي أنني سرت بهذه الوديان، تسلقت بعض هذه الجبال، لست ادري، ربما هي الحاسة السادسة، قلت: أظنك تحب مراقبة غروب الشمس، توحي ببعض الشاعرية، اعني قرص الشمس الساقط بنعومة في الأفق، و الذي يبدو اكبر من حجمه و بلون مشبع، قال: كنت أحب

مشاهدة الغروب في الصحراء و في البحر، في البحر يبدو لك القرص أكبر، و انعكاسه على موجات البحر يعطيك شعورا بالتعشق ما بين الشعاع الخافت و الموجات، ينغمس فيها يتغلغل حتى يبدوان في تمازج جميل، قلت: لكن من المؤكد لست تراه الآن كما كنت تفعل في السابق، فهم قصدي، لكنه سأل: ماذا تقصد، قلت من المؤكد انك تنظر إلى ما وراء القرص وليس إلى أمامه، قال: صدقت، قلت و ما ورائه ؟ قال: اكبر فتنة ستمر على البشرية، فكرت للحظة، لم استوعب قصده، لم اعرف أن لقرص الشمس فتنة ذكرت في أي من الكتب، قال: ليس هو المقصود بعينه، أنت لا تقرأ الأشياء كما تبدو، فهناك دائما كلمات لا تكتب، بل تكون بين السطور و على الأغلب هي أهم من الكلمات المكتوبة، قلت و ما ورائه ؟ قال: يمكث في الأرض أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، و يوم كأسبوع و باقي أيامه كأيامنا العادية، قلت قرص الشمس؟ قال: بالأكيد انك تركب غير الموجة اليوم، ما بالك ذهنك مشتت ؟ لا تفهم لغة الإشارات ، قال: الدجال، قلت: إذاك المسخ الرهيب الذي شاهدته مقيدا عندما كنت مع تميم الداري في تلك الجزيرة ؟ قال: هو، قلت: و ما ذكرك به، قال: أولسنا قادمون على فتح القسطنطينية ؟ قلت: إنشاء الله بلى، قال: سيخرج، قلت و ما بال أيامه، و كيف تكون، اقصد كيف يتحقق ذلك، قال: هذا ما أحاول تحليله الآن، قلت و ما وصلت إليه ؟ قال: هناك عدة نظريات و دراسات و أبحاث و حتى تنبؤات و تكهنات قرأت عنها بالس الشمس،ا بالتأكيد ارفض التكهنات و التنبؤات إلا ما جاء عن صحيح حديث نبينا صلى الله عليه و سلم، و الأصل أن الساعة علمها عند الله، و لكن هناك اشراط هي تحدث الآن، و هناك تغيرات تحدث تؤدي إلى تغيرات تتبعها تؤدي بالنهاية إلى انقلاب وضع الأرض، أنا منذ الصغر كنت أحب تحليل هذه النظريات العلمية، ولو حتى لمجرد المعرفة بالش يء، لكنني دائما كنت ارفض إسقاط الأحداث على تواريخ محددة، إحدى هذه الدراسات تقول: أن كوكباً

يعادل حجم الشمس اسمه نيبيرو سيمرّ بقرب الأرض وسيعترض مسار الأرض وسيتمكن الجميع من رؤيته كأنه شمس أخرى ، وهو كفيل قبل اصطدامه بإحداث خلل في التوازن الأرضي كزلازل هائلة وفيضانات شاسعة وهذا ما وقع بشكل كبير منذ القرن الماضي و بداية القرن الحالي و ما زال يحدث، وتغيّرات مناخية مفاجئة يموت جرّاءها الكثير من سكان العالم و هذا حصل و يحصل. وهذا ما يفسّر التغيّرات المناخية التي نشهدها منذ سنوات والذوبان في القطبين الشمالي والجنوبي .
و حسب الدراسة فأن هذا الكوكب الغامض ذو قوة مغناطيسية هائلة تعادل ما تحمله الشمس ، سيعمل على عكس القطبية ، أي أن القطب المغناطيسي الشمالي سيصبح هو القطب المغناطيسي الجنوبي. وهذا ما سوف يجعل الأرض تدور حول نفسها بعكس الاتجاه . و أن هذا الكوكب يستغرق في دورانه 4100 سنة لإكمال دورة واحدة حول الشمس، أي أنه قد حدث وأكمل دورته السابقة ، وهو ما يفسّر سبب انقراض الديناصورات قبل 4100 سنة تقريباً وانفصال القارات عن بعضها بعضاً، ربما أن هذا الكوكب سيكمل دورته قريبا ، و من المفترض أن يعيد مروره بكوكب الأرض، المهم في الموضوع هو ما ورد في أبحاث العلماء عن التأثيرات التي سيسببها مرور هذا الكوكب الضخم ذو الجاذبية العالية بكوكب الأرض ، و هذا ما أحاول تحليله و فهمه كما أوضحنا سابقا فإن آخر مرة زار فيها هذا الكوكب الضخم كوكب الأرض كانت قبل 3600 سنة ، أو ما يسميه العلماء بالزمن أو العهد الآشوري ، و هو العهد الذي يسبق عهد الفراعنة .
و قبل مروره بالأرض في ذاك الزمان، حسب الدراسة فأن الأرض كانت تدور حول نفسها حول محور رأسي مستقيم ليس فيه أي انحراف ، حيث كان القطبين المتجمدين الشمالي و الجنوبي مختلفين في مكانهما عما هما عليه في زماننا هذا الآن ، و كانت جزيرة العرب تقع على مدار من الأرض هَيئ لها ظروف خاصة ، لأن تكون أرض خصبة ذات غابات و أنهار .

و عندما مر هذا الكوكب الضخم ذو الجاذبية القوية من كوكب الأرض ، غير من زاوية محور دورانها حول نفسها و ذلك بفعل جاذبيته العالية ، فبعد أن كانت الأرض تدور حول نفسها حول محور مستقيم ، أصبحت تدور حول نفسها حول محور منحرف قليلا عن زاوية الاستقامة ، أي كما هي عليه من الدوران اليوم . فأدى ذلك الانحراف المحوري للأرض إلى ذوبان الجليد في الأقطاب الشمالية و الجنوبية ، و تكون أقطاب جليدية جديدة في أماكن أخرى مختلفة في مكانها عن مكانها القديم ، فأدى ذلك إلى ما يعرف بالزحف جليدي و إلى اختلاف توزيع الأمطار في العالم ، و إلى فيضانات و زلازل و براكين أدت إلى حركة الصفائح أو ما يعرف بحركة الطبقة اليابسة السطحية العائمة على وجه الأرض ، و التي بدورها غيرت تماما من شكل خارطة العالم ، و غيرت أيضا من مدار جزيرة العرب التي كانت تقع عليه ، فأصبحت جزيرة العرب صحراء مقفرة من بعد أن كانت غابات تجري بها الأنهار. توقعت الدراسة أن يعيد الكوكب مروره من جوار الأرض، و يتوقع أن يعيد بفعل جاذبيته العالية للأرض استقامة محورها ، و دورانها حول نفسها دون أي انحراف كما كانت في السابق ، و الذي سيسبب ذوبان الأقطاب الجليدية مرة أخرى ، و تغيير كبير جدا لخارطة العالم ، و الأهم من ذلك هو عودة جزيرة العرب إلى مدارها السابق ، فتعود بفعل الظروف المناخية الجديدة بإذن الله إلى غابات و أنهار كما كانت عليه في السابق. و مما يتوقع أيضا ، أن تؤثر جاذبية هذا الكوكب على سرعة و اتجاه دوران الأرض حول نفسها ، فيجعلها و بشكل مفاجئ تعكس من اتجاه دورانها حول نفسها , مما سيؤدي إلى شروق الشمس من مغربها ، ثم تتوقف الأرض عن الدوران حول نفسها مدة دورة كاملة حول الشمس ، أي ما يعادل سنة كاملة لا تدور الأرض حول نفسها ، ثم تعود الأرض لتدور حول نفسها و لكن ببطء شديد فتكمل دورة واحدة حول نفسها في شهر كامل ، ثم تزيد من

سرعتها لتصل إلى دورة كاملة حول نفسها في أسبوع ، ثم يعود دورانها حول نفسها دورة كاملة كل يوم كما كانت تدور دائما .

و هذا أهم ما جاء في الأبحاث العلمية، و هناك دراسات أخرى زعمت أن في عالمنا الحقيقي تمثل الطاقة الشمسية القوة المحركة في دوران الأرض حيث تولد مجالاً مغناطيسياً يدفع الأرض للدوران حول محورها. وتتناسب حركة الأرض سرعة وبطئاً مع كثافة الطاقة الشمسية . وعلى ذلك يعتمد وضع واتجاه القطب الشمالي وقد لوحظ أن القطب المغنطيسي للأرض حتى عام 1970 كان يتحرك بسرعة لا تزيد عن 10 كيلومترات في العام ، ولكن في السنوات الأخيرة زادت سرعته حتى بلغت 40 كم في السنة ، بل إنه عام 2001 انزاح القطب المغنطيسي للأرض 200 كم مرة واحدة . وهذا يعني أنه وتحت تأثير هذه القوى المغنطيسية فإن قطبي الأرض المغنطيسيين سيتبادلان موقعيهما مما يعني أن حركة الأرض ستدور في الاتجاه المعاكس ، حينها ستخرج الشمس من مغربها . و قد علمت أن العالم الأوكراني الذي اكتشف هذه الأمور قد اسلم فهذه المعلومات لم يقرأها ديمتري في كتاب أو يسمع بها وإنما توصل إليها بيديه عبر البحث والتجربة والاختبار وحينما بحث في الكتب السماوية وفي الأديان المختلفة لم يجد ما يشير إلى هذه المعلومة سوى في الإسلام وجد الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه وهذا ليس معناه أنه يمكن أن يحدد ميعاد القيامة حاشى لله فإنه ليس إلا دليل لحتمية حدوث طلوع الشمس من مغربها . وفي دراسة ثالثة : اكد علماء الفلك أن ظاهرة التباطؤ التدريجي في سرعة هذا الدوران بتأثير جذب القمر لمياه البحر وقد يؤدي هذا التباطؤ أيضاً إلى توقف الدوران المغزلي للأرض كمقدمة لبداية انعكاس اتجاهه لتبدأ الأرض في الدوران حول نفسها في اتجاه مضاد للاتجاه الحالي، فتبدو لنا الشمس وهي تطلع من مغربها الحالي، ويصبح المغرب مشرقاً والمشرق

مغرباً، وقد يفسر هذا معنى الحديث الشريف لرسول الله عن إحدى علامات الساعة في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها). عندئذٍ يرى الناس . والله أعلم . ظاهرة جديدة يتبادل فيه المشرق مع المغرب، أي: يصبح للشمس مشرقين ومغربين مع ملاحظة أن الشمس لا شرقية ولا غربية، ولكن المتحرك هو الأرض التي ستعكس اتجاه دورانها حول نفسها في المستقبل مما يؤدي إلى ازدواجية مطلع الشمس ومغربها بالانتقال من اتجاه الدوران الحالي إلى الدوران المعكوس المتوقع مستقبلاً.

وقد تحدث بعض علماء الفيزياء والجيولوجيا سابقاً عن إمكانية طلوع الشمس من مغربها بعد اكتشاف ظاهرة تغيير اتجاه المجال المغناطيسي الأرضي بتبادل مكان الأقطاب، لهذا توقع العلماء أن حدوث انعكاس في اتجاه مغناطيسية الأرض سيصاحبه انعكاس في اتجاه دورانها حول نفسها، وعندئذٍ تطلع الشمس من مغربها، والله أعلم. وهذا الخبر كان وما زال يثير الدهشة عند الكفار كما في قوله تعالى : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر. والله وحده القادر على مثل هذه الحوادث الكونية فيعكس بقدرته المطلقة اتجاه دوران الأرض حول محورها، وبالتالي اتجاه مجالها المغناطيسي، وعندئذٍ تحدث المعجزة، وقد يكون هذا التفسير لقوله تعالى :رب المشرقين ورب المغربين، فنحن شهدنا الكثير من الزلازل و الأعاصير و الفيضانات و ذوبان جليد القطب و ارتفاع منسوب المياه في المحيطات فكل ذلك يفسر الحدث بغض النظر عن طريقة حدوثه، فما يعلم جنود ربك إلا هو. وأخبرنا المصطفى عليه الصلاة والسلام بعودة جزيرة العرب غابات خضراء و تجري بها الأنهار الناتجة عن سقوط الأمطار الغزيرة بسبب السحب الكثيفة التي تشكلت بسبب ذوبان الجليد في الأقطاب ، و التي أيضا ستحدث بفعل تغير الظروف المناخية لجزيرة العرب بأمر من الله تبارك و تعالى. و مما يهمنا أيضا خبر تأثر الأرض بجاذبية الكوكب مما سيؤدي إلى انعكاس دوران الأرض حول

نفسها للوهلة الأولى و الذي سيؤدي إلى شروق الشمس من مغربها ، ثم توقف الأرض عن الدوران حول نفسها لعام كامل ، فيصبح اليوم كالسنة ، ثم عودة دورانها مرة أخرى على مراحل مختلفة من السرعة حتى تستقر سرعتها في دورانها على ما كانت عليه دائما.

و هذا والله اعلم، قالها بنوع من الزهو لشعوره بتأكيد تحليله، الحديث الذي اخبرنا به النبي صلى الله عليه و سلم أن الدجال سيخرج على الناس في زمن تحدث به أحداثاً كونية عجيبة جداً ، حيث أنه سيمكث في الأرض أربعين يوما ، يكون فيها يوما كعام و يوم كشهر و يوم كجمعة و سائر الأيام كأيامنا هذه ، و هو مطابق لما جاء به البحث العلمي ، و الذي يسبب توقف دوران الأرض حول نفسها ، ثم تبدأ بالدوران حول نفسها ببطء ثم تزيد من سرعتها حتى تعود كما كانت عليه سابقا ، فيكون يوم كعام و يوم كشهر و يوم كجمعة و بقية الأيام كأيامنا هذه.

ذهلت لهذه المعلومات، هو فقيه في الدين و عالم في الفلك و الفيزياء و الرياضيات و مختلف العلوم، هو شاعر و أديب، هو قائد عسكري فذ، هو حاكم عادل، ورغم كل هذا هو أكثر إنسانا عرفته تواضعا. دعاه الرجال للطعام، هبط من ذلك التل بينما كان الظلام يهبط ببطء و بقيت وحدي على تلك الصخرة أفكر متى هو مر من هنا ؟

فتح القسطنطينية

هناك مدن تأسرك، تجعلك تعود لتسير بدروبها و أزقتها بالخيال و أنت بعيدا عنها آلاف الكيلومترات، ليس بالضروري أن تكون هذه المدن على طراز عالي من ناحية الجمال المعماري، بالأغلب هي مدن ليست حديثة و لا مليئة بالأبنية الشاهقة، هي مدن تشعر بألفة نحوها، تشعر بش يء يربطك بها و كأنها صلة قرابة بينك و بينها، فيكفي لمسات بسيطة تتبع هذا الشعور كأن تمر بشجيرة ياسمين تعربش على سور منزل في دمشق، كأن تشرب كأس شاي في بولفار باكو المطل على شاطئ بحر قزوين أو تأكل سندويش سمك في مقهى مفتوح يعج بالناس من جميع أنحاء العالم في استانبول، هذه المدينة القديمة التي تحتوي على كل مفارقات الشرق و الغرب، هذه المدينة التي تضج بالحركة و تزخر بعبق الماضي و تطلعات المستقبل، تأسرك بشكل يجعلك تعود إليها بخيالك لتعبر فوق الجسر الممتد بين ضفتي البوسفور الذي يربط القسم الأوربي من المدينة بالقسم الأسيوي، تماما كما وصفها رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو لم يزرها قط " سمعتم بمدينة جانبٌ منها في البر وجانبٌ منها في البحر " تجعلك تعود بخيالك لتجوب أسواقها القديمة و تشتم روائح التوابل الشرقية و تحتار و أنت تشاهد أنواع الطبخات المختلفة في مطاعمها ولا تقطع الرأي أيها تختار فأنت تشتهيها كلها، مدينة تأخذك برحلة على متن قارب إلى جزيرة خضراء وادعة كأنها انفصلت عن العالم لتعيش سويعات هنيئة من السكون، بالطبع بطلنا لم يزرها قبلا، و لا حتى بالخيال.

كان الروم و أثناء اقتتال أبناء الخلفاء في جزيرة العرب قد جهزوا الجيوش و طلبوا الإذن لعبروا الأراضي من خلال القسطنطينية وصولا إلى بلاد الشام و من ثم الجزيرة العربية، و لكنهم طوقوا القسطنطينية و احتلوها، و بعد فرار فلول الجيوش الرومية التي اشتركت بالملحمة الكبرى، انضمت هذه الفلول إلى القوات الرومية المتواجدة

بالقسطنطينية، القسطنطينية معظم سكانها من المسلمين، و ليسوا مسلمين عاديين، بل هم على درجة عالية من النخوة و الكرامة، ما أن سمعوا التهليل والتكبير الذي نادي به جيش المهدي، حتى ثاروا على الروم و سقط طرف المدينة الأول، لم يقاتل المهدي و لا جيشه بسيف و لم يرموا بسهم، فقط " لا اله إلا الله و الله اكبر ثم هللوا و كبروا الثانية حتى سقط القسم الآخر ثم هللوا و كبروا الثالثة ففتحت لهم، وغنموا مغانم كثيرة من ما كان لدى الروم، مما حملوه معهم بعد فتح المشرق و من ما استولوا عليه من القسطنطينية، رحب الأهالي اشد الترحيب بالفاتح الجديد و بياعوه على الخلافة، فأعاد عليهم أموالهم المنهوبة من قبل الروم و قسم الغنائم فيما بينهم و بين جيشه، و عين عليها وال منها. أسر الكثير من الروم في هذا الفتح، و تم التفاوض مع ملوكهم على الاستسلام و دفع الجزية أو الدخول بالإسلام فيدخل الكثير في الإسلام و تمتنع رومية عن ذلك.

كان جالسا كعادته تحت شجرة زيتون في بساتين خارج المدينة حيث خيم جيشه، كان سيفه معلقا بغصن الشجرة، و كذلك سيوف و أسلحة المقاتلين معلقة بأغصان الأشجار، جاءه مجموعة من قواد جيش المسلمين من الأصول الرومية، قالوا: نحمد الله أن من علينا بفتح القسطنطينية تحت رايتك دون معارك و دون إراقة دماء، قال: له الحمد و الشكر، قالوا: هل سننطلق لفتح رومية، قال: إنشاء الله تفعلون، قالوا: نفعل ؟ ألن تكون معنا ؟ أنا اعرف ما يجول بخاطره الآن !، هو ينتظر إشارة، وجهته مكان آخر، مكان طالما اشتاق إليه، اشتاق لعودته، مكان ظل بقلوب كل المسلمين، متلهفون لعودته لقلب أمته، لم استطع أن أتبين العامل الرئيسي الذي يهيمن على فكره و يجعله يشعر بهذه اللهفة، كانت بداخله فوضى، ليست فوضى ناتجة عن عدم تركيز، ليست فوضى ناتجة عن عدم ترتيب و تحليل، بل فوضى أفكار، عندما تتراكم الأفكار و المشاعر و تتداخل فيما بينها يصعب علينا استقراء الأهم منها فما دونه، يصعب علينا فهم ترتيب الأولويات، هو يعرف

كيف يرتبها، لأنها بالأصل مرتبة بذهنه، لكنني أنا من يجهل قرأتها مرتبة، كان هناك العديد منها، في المركز كان هناك ذاك المسخ الرهيب المخيف و معه الحيوان ذو الشعر الكثيف الذي لا يعرف مقدمته من مؤخرته، ماذا كان اسمه ؟ الجثاثة ؟ لا، الجساسة، نعم هكذا كان، كان شوقه للقاء المسيح عليه السلام، كان هناك مسجد دمشق الكبير و منارته ا الشرقية، كان هناك أيضا حنينه لدخول الأقصى أولى القبلتين و ثالث الحرمين الشريفين، كان تأمله بخروج الشمس من مغربها، هل لمست بعض الحزن هنا ؟ نعم انه حزن دفين، حزن عميق، لدرجة انه يقطع القلوب، لماذا هذا الحزن المترامي الأطراف داخلك في هذه الزاوية حيث يقبع قرص الشمس ؟ ما سرك و قرص الشمس ؟ قال: باب التوبة، قلت و ما شأنه، قال: سيقفل ما أن تخرج الشمس من مغربها، قلت قد آمن الكثير من أهل الأرض، قال: و لكن الكثير منهم لم يفعلوا أيضا، يا الله، تذكرت هنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، حينما أوذي في الطائف بأبي هو و أمي، و جاءه ملك الجبال يسأله: لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين، قال صلى الله عليه و سلم: لا، بل ارج وان يخرج من أصلابهم من يقول لا اله إلا الله، يا الله كم أنت تشبه جدك، تحمل هم من قاتلوك، من أرادوا قتلك، تتمنى لو أن كل من على الأرض دخل قبل أن يغلق الباب، لكن قدر الله ماض، قال: صدقت، كانت هناك أيضا صور أمه، أبنائه، و بالطبع حبيبته و شقيقة روحه صفاء، صفاء التي منحته لقب سيد الكلام من أول يوم زفاف لفرط ما كان يغمرها بالكلام الرقيق و أشعار الغزل و الحب الذي لا ينتهي، و بعدها منحته لقب سيد الرجال، لأنها دائما كانت تراه رجل أحلامها و قد نالته، كان هناك الملايين من الصور المختلطة و المتداخلة مع بعض، كانت صورة المسجد النبوي و قد خلا من زواره، صور الكعبة تتهدم، شعر ببعض الخوف، هو ليس خوف كما نعرفه نحن البشر، و لكنه شعور اجهل أنا مفردات

اللغة التي يمكن أن تصفه، بالتأكيد هناك كلمة في لغة القرآن تصفه، لكنني و للأسف اجهلها، و على الأغلب كل منا يفهمها و يشعر بها.

تابع حديثه مع قواد الجيش، وصاهم بتقوى الله و إتباع أوامره و أن يتحلوا دائما بأخلاق الفاتحين و ليس بعنف المستعمرين، بين لهم خط سير الفتوحات في بلادهم و عين منهم ولاة كل على بلاده و اخبرهم أن العدل أساس الملك و أن الملك ليس التحكم برقاب الناس و إنما العمل لخدمتهم و إقامة حدود الله و بينما هو يقسم بينهم الغنائم ليحملوها معهم، خرج لهم إبليس على هيئة رجل، قال: ما تصنعون هنا و المسيح الدجال ظهر هناك، خلفكم في أهاليكم، أو قال: في ذراريكم فلست اذكر فقد صعقت من خروجه، فهو قصد إخافتهم و إفزاعهم، إذن هذا ما كنت تنتظر، هذا ما كان يجعلك تبدو متداخل الأفكار رغم هدوئك الذي ليس له مثيل.

نهض و هو يعرف بأن محدثه هو إبليس، و هو متأكد بأنه كاذب، لكنه لن يخالف الرواية، سيمضي إلى الملحمة التالية، سيمضي إلى الفتح التالي، سيمضي لحبة تالية من حبات العقد.

قال قادة الجند: نذهب معك، قال: لا تفعلون، فأمامكم فتوحات أخرى، و أمامي فتح أخير قالوا: نحن بشوق لنرى نبي الله عيسى عليه السلام، لنكون معكم في فتح بيت المقدس، قال: أمامكم وقت طويل تعودون له، الرحلة تتسع لعشرة فوارس، معرفون بأسمائهم و أسماء آبائهم و لون خيولهم، نظر الجميع إلى الفرسان برفقة المهدي و إلى خيولهم فكانت كما قال و كما وصفها رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا: هنيئا لكم فأنتم اليوم خير الفوارس على ظهر الأرض.

دمشق

دمشق أقدم عواصم الدنيا و أخر العواصم، دمشق أنت اليوم عاصمة العواصم، من ها هنا ينتشر العدل إلى كل العواصم، من ها هنا يمتد الخير إلى كل العواصم، عادت غوطتك الغناء وارفة الظلال تحضنك كأغلى أطفالها و يمتد خضارها كما عدلها ليصل كل البلاد ويعم الخير كل العباد. ما زال ياسمينك يزينك كأحلى عروس تلبس فستان بقاعه الأخضر المعشق بالياسمين، أم تراه ياسمينا معشقا بالخضار، و هذا بردى عاد يهدر في قنواتك، شريانك الأبهر و تردفه انهار كثيرة ج اءت تقدم الطاعة لست الحرائر، دمشق ما هذا العشق الدفين لك ؟ و فيك؟ ما سرك ؟ مهما ابتعدنا عنك، نعود إليك، و حتى عندما نكون بعيدين، تبقين في قلوبنا، في أروحنا، تأخذنا دروب حارتك الضيقة و القديمة برحلات خيالية، ازدحام أسواقك و نداء الباعة، و صوت رنين بائع "التمر هندي" أو "العرق سوس" يطقطق في طاساته النحاسية يجلجل في أذاننا و نشتم رائحته من بعد لا بل و نتذوق طعمه داخل حناجرنا و نحن على بعد آلاف الكيلومترات. دمشق ما أطيب شرب الماء البارد من طاسة معدنية ربطت بإحدى حدائد سبيلك المنتشرة في كل مكان.

كان يشرب الماء بعد أن سمى الله و شرب على ثلاث دفعات ثم حمد الله وتمتم تلك الكلمات، فقط فيما خص طعم الماء و لذته، هو وصل مشارف دمشق لتوه، كانت الحشود تستقبله في كل البلدان التي مر بها، ترحب به و تشكره على العدل الذي يعيشونه و سعة العيش و كثر الرزق و المال، و كان دائما يقول: بل الحمد لله و له الفضل في كل شيء، كان يسأل الناس عن أحوالهم و هل لهم أي حاجة في أي شيء، و كان الجميع يرد: كفيت و وفيت، لكن احتفاء و احتفال دمشق غير، دمشق لها دائما لمسة مميزة في كل ش يء تصنعه، فهي كأنثى تأبى أن تشرب من منتصف النهر، فأما أن تشرب من النبع أو تصبر على العطش، أهل دمشق تجمعوا

كلهم للقائه فقد اشتاقوا لخليفتهم، خليفتهم الذي جعل من مدينتهم عاصمة العواصم، نشر فيها العدل، و ملأها بالخير، و لم يجلس بها على كرسي حكم، و إنما ظل مشغولا في فتوحاته بينما هي تنعم بالعدل و الرخاء، دمشق فرحة به الآن، ترجو أن يقضي بها بعض الوقت، يعرفونه أهلها بشكل أكثر، فهم ما عرفوه إلا سماعا و ما سمعوا عنه إلا خيرا و ما وجدوا منه إلا عدلا و وفرة في كل شيء، حتى يفيض الخير فلا يقبله احد.

استقبله الناس بالأناشيد و الزغاريد و احتفوا به احتفاءا عظيما، و ما كان منه إلا أن شكر الله و حمده و شكر الناس و سأل: هل منكم من قدم من بيت المقدس قريبا ؟ قال احد الرجال: أنا قدمت، فأقربه من و قال: حدثني، كيف هي القدس ؟ قال: عامرة، و قد توسعت مبانيها بشكل كبير، و اقبل الناس على سكناها بشكل اكبر فأصبحت مدينة كبيرة جدا و مزدحمة جدا، قال: شكرا لك، هو كذلك، قال الرجل: متى نفتح بيت المقدس، قال: إنشاء الله قريب، هو قريب بإذن الله، فقط يأتي شرطها ويأذن الله لنا. اقترب من عامله على دمشق و سأله: فيما كانت خطب يوم الجمعة ؟ قال: عن الفتوحات العظيمة التي قدتها، قال: فقط عن الفتوحات؟ قال: و أمور العقيدة و العبادة، قال: الم يذكر الدجال طول هذه السنين على المنابر؟ طقطق عامله رأسه أسفلا، فهم المهدي انه نسي أمره كما ورد في الحديث، قال: بقي ساعتان لصلاة الجمعة، سأذهب لأرى أهلي، استأذن الناس المحتشدين قائلا: موعدنا صلاة الجمعة.

في جيبه كان يخبأ عقدا، ليس ثمينا، لكنه جميل و ملفت للنظر، ليس براقا، ولكنه يحمل معاني ذوقية عالية، هذا ما تحبه صفاء من أنواع المجوهرات، عقدا من عدة حبات لؤلؤ، هو الشيء الوحيد الذي أخذه من المغانم الكثيرة التي حصلت عليها جيوشه، و كان يشعر بالحرج حينما أخذه، مع انه و حسب أصول الشرع و

الحرب، يحق له ملايين أضعاف هذا العقد من الغنائم، رغم ذلك شعر بالحرج عندما استأذن قواده و جنوده بأخذ هذا العقد لنفسه، الكل قالوا وقتها: نحن و كل الغنائم طوع بنانك، و لا يستوي أن تستأذننا فيما هو اقل من حقك بكثير، بهذا الأمر هو بشكل غير مباشر أحرج الجميع، رغم زهد الجميع بالغنائم، لكن شعروا أنفسهم جشعين لدرجة كبيرة بالمقارنة بما اخذ هو، استقبله الأولاد بالأحضان و عبارات الشوق و الحب، فقد طال غيابه لقريب الثلاث سنوات، اقترب من أم فهد، قبل يدها و رأسها، قال: أرجو أن تكوني راضية عني، قالت: قلبي و ربي راضيين عليك، بي عليك رضا أكثر من شعر رأسي بل أكثر من ما حملت النساء من شعر على رؤوسهن، صفاء تنتظر دورها، يشعر بالحرج أمام أمه و أبنائه، يريد أن يقدم لها الهدية، صفاء أيضا مشتاقة لهذه الخلوة، مشتاقة لأن تدفن رأسها بصدره و تبكي فرحا بعودته، فرحا بلقائه من جديد، بعد مرور زمن على زواجهم، تحول العشق إلى مودة و ألفة، و هذا طبيعي في الزواج، أصبحت تشعر بالحرج من البوح عن مشاعرها، مع أنها تحمل له ما لا يوصف من مشاعر الحب و الوجد، اصبحت تخجل كما كانت قبل الزواج من همس كلمة احبك، كانت تتس أل فيما بينها و بين نفسها، هل تراه يعذرها؟ هل تراه يشعر بنوع من الغيرة لاهتمامها بالأولاد و تجاهله بعض الشيء ؟ هي لم تقصد بالتجاهل التخلي عن أداء واجباتها اتجاهه كزوجة و كربة بيت، ولكن تقصد بالتجاهل الإقلال في البوح بالمشاعر مع أنهم الاثنين على قناعة تامة بوجود هذه المشاعر، البعض يصف مشاعر الحب كالنار التي تحتاج دائما إلى حطب لتظل متقدة، ولو بأعواد صغير، لكنها تحافظ على شبوة النار، و البعض يعتقد انه و لو لم تكن للنار السنة من اللهب فهناك جمرات تحت الرماد تظل متقدة، و بمجرد هبوب أي نسيم أو إضافة أي حطب ستهب النار من جديد، و لكن إلى متى يظل الجمر جمرا ؟ قالت: حمدا لله على سلامتك، حمدا لله أن أعادك لنا سالما غانما فاتحا، و دست رأسها بين أحضانه،

همس بأذنها اشتقت إليك، قالت: حتى أنا، قال: ماذا أنت؟ قالت: ألا تعرف ؟ قال: أريد أن اسمعها، قالت: اشتقت إليك أكثر من كل المسافات التي قطعتها من فارس إلى الصين و منغوليا و روسيا و العودة حتى القسطنطينية و دمشق، قال: ما شاء الله، أنت على دراية كاملة بكل تحركاتي، قالت كيف لا و قلبي كان يتحرك كيفما تحركت، كيف لا و روحي كانت تعبر البوادي و الجبال و السهول و التلال أينما سرت، كيفا لا و أعصابي كانت تتلوى على أصوات السيوف معك هناك، كيف لا و دمي كان ينشف مع كل بداية معركة تدخلها و لا يعود حتى يخيم الظلام و يعود لرحلته من جديد مع كل فجر، قال: كم أنا قاسي، قالت: حاشاك، قال: بلى، جعلتك تقاسين كل هذا، قالت: فداك و فدا الله و الإسلام، حضنها بقوة أكثر، قال: الآن بدأت اشعر منك القوة، قالت: أي قوة تقصد ؟ قال: التمييز بين الحب الشخصي و الحب لله و للأمة، فهمت قصده، فهي رغم كل شيء و بالنهاية أنثى، لا يمكن لها أن تتجرد عن عاطفة الأنوثة التي تجعلها دائما تحلم بالاستفراد بحبيبها لنفسها فقط، التي تجعلها تراه لها فقط، التي تجعلها تفكر بذاتها، ليس أنانية منها، و لكن هذه هي الأنثى العاشقة، قال: أحضرت لك هدية، قالت: و ما حاجتي بالغنائم فغنيمتي عودتك لي سالما، قال: انظري في عيني ! قالت: ماذا ؟ هل تشك بصدق قولي ؟ قال: لا، و لكن ليس من أنثى على وجه الأرض لا تحب الهدية و أنت ست النساء، ابتسمت، قالت: ليس لي وسيلة بالتخفي أمامك، فأنت تقرأني بشكل جيد، تقرأني بصم ت، قالت: فما هديتك ؟ اخرج عقد اللؤلؤ من جيبه، قالت: يا الله ! ما أجمله، بينما هي تريد أن تمد يدها لتأخذه، طرق الباب، قالت: من، كانت ابنتها الكبرى خلف الباب، هي فتاة تشبه أمها و بها الكثير من أباها، لازالت بعمر ورد الجوري الذي لم يتفتح بعد، لازال عمرها اثني عشر سنة، ما أن وقعت عينها على العقد، لم يحتملها طيشها، ركضت نحو العقد، قالت: ما أجمله، هل هو لي ؟ دعيني أجربه ؟ و سحبته بيدها

من بين أصابع أمها، و بفطرة الدفاع عن النفس، و خصوصية الهدية للأنثى، و بدون أن تنتبه صفاء، ضغطت بأصابعها على العقد لينقطع و تقع حباته حبة ا ثر الأخرى بتسارع رهيب، ذهل الجميع، خافت الفتاة لأنها تسببت بقطع العقد فخشيت غضب أمها و ربما عقابها، ارتبكت صفاء لأنها من ناحية سببت الخوف لابنتها دون قصد منها و لأنها لم تفرح بهديتها الوحيدة، و ذهل بطلنا، ليس على العقد كهدية، ليس على قيمته المادية، فهو لا يساوي الكثير ماديا، و لا حتى على قيمته المعنوية، فهو يستطيع أن يعوض صفاء بكلمة حلوة، لكنه رأى حبات العقد تنفرط بهذه السرعة، رأى الخرزات المنظومات في سلك كيف تبع بعضها بعضا عندما انقطع السلك، تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم " خروج الآيات بعضها على اثر بعض تتابعن كما تتابع الخرز في النظام" هو يرى آيات – اشراط – أخرى، ليس حبات اللؤلؤ، و لكن حبات قد تكون بعضها مشعة و براقة كاللؤلؤ من الخارج و لكن بداخلها الجحيم، بدأت صفاء توبخ ابنتها على تعجلها، و انحنت الفتاة تجمع الحبات و هي تكرر أسفها و اعتذارها و أنها لم تقصد قطعه، قال: هونوا عليكم إنها إشارة، قالت: صفاء إنشاء الله بشارة خير ؟ قال: هي فتن عظيمة، نسأل الله التثبيت على دينه، و نصرته لنقضي عليها و نتجاوزها، تذكرت صفاء الأحاديث بخصوص خرزات المنظومة، شعرت بخوف، شعرت بحزن، شعرت بانكسار خاطرها، كانت تحلم أن تعيش هذه السنوات القليلة المتبقية معه بهدوء، كانت تريد أن تزف له خبر إتمام بناء بيتهم الصغير في ضواحي دمشق، بيتهم التي طالما حلمت بإتمامه و تجهيزه حسب ما أرادت، هي كانت تشرف على كل شيء فيه، هي تعلم انه لا يفكر الآن بالبيوت، ولا بزخرف الدنيا، و لا بكل هذه الدنيا حتى، هي تعلم إنما يشغله مسائل اكبر من البيت و من المزارع و من الدنيا، تشغله فتن و محن عظام، تشغله مشاكل الأمة، تشغله مصائر الناس، تذكرت انه سيغلق باب التوبة مع أول ثلاث حبات و هي على

يقين انه يتمنى أن يؤمن كل من على الأرض قبل أن يغلق هذا الباب الواسع، هو يحمل هموم الأرض على كاهله، و هي لا تستطيع في بعض لحظات أن تتخلص من أحلام متعلقة بالدنيا، فهي أنثى، من المؤكد من بعض النواحي هي على حق أيضا، فالسرب للإنسان، بمعنى البيت الذي يؤويه، و ضرورات الحياة التي تعينه على البقاء على قيد الحياة، و حتى الأمر الرئيسي من وجوده على الأرض و هو اعمار هذه الأرض، يجعل شعورها مشروعا، ربما هو زهد بكل هذا لأنه...... و توقفت صفاء عن التفكير، في هذه اللحظة غاصت صفاء بجب من الأحزان لا قاع له، حتى أن كل مؤشرات العقل و الشعور والبصيرة اختفت بشكل سريع، شعرت صفاء بنفسها متروكة وحيدة في بقعة بعيدة جدا من الفضاء الخارجي، بقعة سوداء مظلمة، بقعة لا حركة فيها و لا حياة، بقعة لا ذرات فيها و لا كويكبات، فقط هي وحدها وسط الفراغ، وسط اللاشئ، شعرت بالرعب بالفزع، رأت يده تمتد نحوها، قال: هل كل هذا لأجل عقد؟ كان يحضن عنقها تحت شعرها المنسدل على ظهرها بكفه، و بنعومة يداعبها كقطة كما اعتاد أن يفعل و يسميها يا قطتي، شعرت برعشة تسري بجسدها، قالت بنفسها: الحمد لله أن انتشلني من ذاك الفراغ، هو يعرف أين كانت، و هي تعرف انه لم يقصد مسالة العقد، لكن قدر الله ماض، قال: هل سأحظى بحمام قبل صلاة الجمعة ؟ قالت: على الفور.

خطبة التحذير

كانت الحشود كلها مجتمعة في مسجد دمشق الكبير، امتلئ المسجد من الداخل و الساحات الخارجية و الشوارع المحيطة بالمسجد، الكل يريد أن يحضر خطبة الخليفة، الكل ينتظر قصصا عن بطولات و أهوال الفتوحات، الكل ينتظر أخبار سارة عن فتح الشرق و قسطنطينية، بدأ خطبته كعادته بكل وقار و سكينة : إن الحمدَ لله

نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،و تلا قوله تعالى : " يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ" ، " ولِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" ، "فهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءِ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُم" أما و قد بلغني أن الخطباء قد غفلوا عن التذكير بالدجال على المنابر فو الله هذه لواحدة من اشراط قرب خروجه، يا أيها الناس! اخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم- ولا تكون حتى تقوم الساعة- أعظم من فتنة الدجال، ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها ، وإنه لا يضر مسلماً. وإن الله عز وجل لم يبعث نبياً إلا حذّر أمته من الأعور الدجال، وإني لأشهد أن نبينا محمد صلى الله عليه و سلم وهو آخر الأنبياء لأنذرنا منه و نحن آخر الأمم، وهو خارج فينا لا محالة. و إنه لحق، وأما إنه قريب، فكل ما هو آت قريب. وإنما يخرج لغضبة يغضبها، ولا يخرج حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة و كانت الملحمة الكبرى و لم نقسم لا ميراث و لم نفرح بغنيمة وكيف نفرح بغنيمة و تعادا المائة من القوم فما وجدوا إلا واحدا حيا منهم، وقد اخبرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم إن يخرج وهو بينا؛ فهو صلى الله عليه و سلم حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعده؛ فكل امرئٍ حجيج نفسه، والله خليفته على كل مسلم و نعم بالله و صلى الله و سلم على رسوله الأمين، وفي حديث آخر: وإن يخرج بعد أن أموت يكفيكموه الله بالصالحين، وإنه يخرج من أرض قبل المشرق يقال لها: (خراسان) في يهودية أصبهان، كأن وجوههم المجان المطرقة، من خلّة بين الشام والعراق، فيعوث يميناً ويعوث وشمالاً، يا عباد الله! فاثبتوا. كررها ثلاثاً، ولقد وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم صفة لم يصفها إياه نبي قبله، إنه يبدأ فيقول:

أنا نبي، ولا نبي بعد رسول الله محمد صلى الله عليه و سلم، ثم يثني فيقول: أنا ربكم. ولا ترون ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور،ممسوح العين اليسرى، عليها ظفرة غليظة، خضراء كأنها كوكب دري، عينه اليمنى كأنها عنبة طافية، ليست بناتئة، ولا حجراء، جفال الشعر، ألا ما خفي عليكم من شأنه؛ فلا يخفين عليكم إن ربكم ليس بأعور، ألا ما خفي عليكم من شأنه؛ فلا يخفين عليكم أن ربكم ليس بأعور، كررها ثلاثاً، وأشار بيده إلى عينيه، وأنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا ، إنه يمشي في الأرض، وإن الأرض والسماء لله، إنه شاب قطط؛ وقد شبهه رسول الله صلى الله عليه و سلم بعبد العزى بن قطن، و نحن لم نرى عبد العزى، ولكن وصفه لنا:قصير، أفحج، دعج، هجان،وإنه آدم، جعد، جفال الشعر، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر؛ يقرؤه من كره عمله، أو يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب، وإن من فتنته؛ أن معه جنة وناراً،ونهراً وماء، وجبل خبز، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فناره جنة، وجنته نار، و هو أهون على الله من ذلك، فمن ابتلي بناره؛ فليستغث بالله، وليقرأ عليه فواتح سورة (الكهف)، فإنها جواركم من فتنته و ذكر الكثير الكثير من فتنه و الخوارق التي يجريها الله على يديه ليفتن الناس حتى شهق الناس من البكاء و ظنوا أن الدجال يقبع قريبا منهم في حقول غوطة دمشق، كذلك فعل الصحابة عليهم رضوان الله عندما كان يخبرهم رسول الله صلى الله عليه و سلم و يحذرهم من الدجال حتى ظنوا انه يجلس في طائفة النخل حول بيوت المدينة المنورة. قال: يا أيها الناس حسب الأحاديث الصحيحة و التحليل العلمي المفسر لها فمدة مكوثه في الأرض أربعين يوما: يوما كسنة و يوما كشهر و يوما كأسبوع و باقي الأيام كأيامنا العادية، فأنه و الله اعلم يرافق خروجه آية ثانية و هي خروج الشمس من مغربها، التي بدورها ترفق لزاما و حسب الأحاديث خروج الدابة، و خروج هاتين الآيتين يعني، و ليرحمنا الله من غضبه، و ليشملنا في رحمته، يعني غلق باب التوبة ثم تلا قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً

نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"

قامت الصلاة و صلى بالناس، و ما أن انتهى من استغفاره حتى سأله احد المصلين: و ما صفة الدابة ؟ وقف وأمر الناس الذين بدئوا بالانصراف، بأن يلزموا أماكنهم فأنه مخبرهم عن الدابة، قال: قال تعالى في كتابه العزيز : " وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون" وفي الحديث الشريف، قال رسول الهل صلى الله عليه وسلم: " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض" وفي حديث آخر " إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا" أما عن صفتها، فاختلفت الأقوال في تعيين دابة الأرض ، وهذه بعض أقوالهم في ذلك: أول الأقوال أنها فصيل ناقة صالح (ابن ناقة صالح)، فذكر الحديث وذكر انه (ضعيف لأن به رجل متروك)، "لها ثلاث خرجات من الدهر، فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية (يعني مكة) ثم تكمن زمناً طويلاً، ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية، ويدخل ذكرها القرية) (يعني مكة) قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض رأسها عن التراب.... إلى أخر الحديث" واستشهد أصحاب هذا القول بما ورد عن الرغاء والرغاء إنما هو للإبل ، وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب ، فانفتح له حجر ، فدخل في جوفه ثم انطبق عليه فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل. القول الثاني : أنها الجساسة المذكورة في حديث تميم الداري رضي الله عنه في قصة الدجال ، وليس في

حديث تميم ما يدل على أن الجساسة هي الدابة التي تخرج آخر الزمان ، وإنما الذي جاء فيه أنه لقي دابة أهلب كثيرة الشعر فسألها : ما أنت ؟ قالت :أنا الجساسة ، وسميت بالجساسة لأنها تجس الأخبار للدجال، القول الثالث : أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة، و هناك قول رابع: بأنها دابة جمعت من خلق كل حيوان فهي مخلوق عظيم قيل إن طولها ستون ذراعًا ذات قوائم ووبر، رأسها رأس الثور وعينها عين الخنزير و أذنها أذن فيل وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعامه وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبق مؤمن إلا نكتته في وجهه بعصا موسى نكثة بيضاء فتغشو تلك النكثه حتى يبيض لها وجهه ولا يبق كافرا إلا نكثت بوجهه نكثة سوداء من خاتم سليمان فتغشو تلك النكثه في سو اد يسود لها وجهه... إلى أخر الحديث.

يا أيها الناس، لا يهم شكل الدابة ولا مكان خروجها والذي يجب الإيمان به هو أن الله تعالى سيخرج للناس في آخر الزمان دابة من الأرض تكلمهم ، فيكون تكليمها آية لهم، وأنهم مستحقون للوعيد بتكذيبهم آيات الله، فإذا خرجت فهم الناس وعلموا أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة، والذي يؤيد أن هذه الدا بةتنطق وتخاطب الناس بكلام يسمعونه ويفهمونه هو ما جاء ذكره في سورة النمل وهذه السورة فيها مشاهد وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان عليه السلام فجاء ذكر الدابة وتكليمها للناس وهذه معجزة من المعجزات التي أعطاه الله جل جلاله لنبيه سليمان عليه السلام و يخرج ما يشاء من الدواب الناطق الذي يخاطب الناس ليعلموا أن الساعة حانت. و تلا قوله تعالى " فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ "

ليلة طويلة

كان مستلقيا بفراشه بعد يوم طويل و شاق، كان يتقلب بعد أن تلا ورده المعتاد قبل النوم و بعض الآيات و السور القصيرة التي اعتاد قرأتها قبل النوم، صفاء تعرف بأنه قلق، هي تعرف أيضا السبب، حتى قبل أن يحمل هموم و مهام الأمة على كاهله كان يشعر بالقلق قبل السفر، قبل تقديم دراسة أو مشروع، قبل البدء بنشاط جديد، هو دائما يحسب الأمور ربما أكثر من اللازم، دائما كان يبرر لها بأن من لا يحسب لا يسلم وأن التخطيط و الحذر أمر ضروري لحياة الإنسان، و أن بعض المفاجآت الصغيرة التي ربما لا يلتفت لها الإنسان قد تقلب نتائج عمله رأسا على عقب، كانت دوما تقول له، أنت هكذا دائما حتى بالأمور البسيطة التي اعتدت على القيام بها، و التي كررتها عدة مرات، سأخبركم سرا و لكنه ليس للنشر، في كثير من الأحيان كان يصل به قلقه إلى تقلصات في المعدة و راجفات بالأيادي، حتى انه أصيب بقولون عصبي جراء هذه الحالات، قالت صفاء: أنت على عادتك القديمة ؟ فهم قصدها و لم يعلق على ملاحظتها الممزوجة بش يء من النكتة، هي بالطبع ليست سخرية، فصفاء تخشى عليه من هذا القلق و تتفهم أسبابه و بالذات هذه السنوات و بالأخص هذه الأيام التي ستنطلق فيها الاشراط كحبات العقد التي انقطع سلكه، فكرت : خير طريقة للدفاع هي الهجوم، ليس دفاعا عن موقفها و لا دفاعا عن فكرة تحملها، بل يمكن تحوير معنى المثل هنا ليحمل معنى أن تدخل إلى قلب الحدث بسرعة أفضل من أن تراقبه من الخارج و تشعر بالقلق و الخوف منه، كالإنسان الذي يريد السباحة و يخشى برودة الماء، فيظل خائفا يرتعد جسمه ارتجافا من مجرد فكرة أن الماء سيكون باردا و ما أن يغطس جسمه بالماء و يتكيف مع درجة الحرارة الجديدة حتى يبدأ القلق بالتناقص شيئا فشيئا حتى يزول بشكل كلي، فمواجهة المشكلة هي الجزء الأكبر من حلها،

بالتأكيد هو يعرف ذلك، لكن طريقته بمعالجة الأمور تختلف شيئا ما، فهو وبرغم تحليلاته الكثيرة والتفكير بالاحتمالات الكثيرة الممكنة للمسألة و قبل المواجهة فهو إنسان واقعي جدا، قالت: أين تذهب الشمس ؟ هو طبعا أراد الحديث عن الموضوع، لأن هذا الموضوع هو جزء رئيسي مما يشغل باله الآن، و الحديث عنه سيخفف من حدة قلقه بشأنه، فأن تقتسم همومك و أحزانك مع الآخرين، و رغم انك تعلم أن الآخرين لن يحملوا فعليا أي ش يء من هذه الهموم، لكنك بالتأكيد ستشعر بشيء من الانفراج و كأنهم حملوا عنك جزء منها، هو لم يتفاجئ بموضوع السؤال، لكنه ذهل أن صفاء لم تمهد للموضوع و لكن اختارت اقصر الطرق و سرألت بشكل مباشر عن لب الموضوع و بكلمتين تريد أن تعرف جوابا يحتاج لمجلدات، لكنه أعجب بطريقتها، قال: حسنا، ربما سيبدو الأمر خياليا، ربما سيشعر البعض انه يناقض المفاهيم العلمية التي توصلت إليها الحضارة عبر القرون، و لكنه بالتأكيد لا يعارض العلم، قالت: ماذا تقصد بالتحديد، قال: ألا يعتقد الجميع بأن الأرض تدور حول الشمس ؟ قالت بلا يفعلون، قال: ألم يكونوا سابقا، في عهود قديمة ما قبل الإسلام و الإغريق، يعتقدون بمركزية الأرض و دوران الشمس حولها ؟ قالت: لا تقل لي انك ستعود للفكرة الأولى ! قال: طبعا لا و لكن العلم اثبت ما جاء بالقرآن من دوران الأرض وسائر الكواكب في المجموعة الشمسية حول مركز المجموعة و نجمها الشمس، و المجموعة الشمسية هي جزء في مجرة و المجرات جزء في الكون و كل في فلك يسبحون، قالت: لما لا تتكلم بشكل مباشر و بسيط ؟ لما تعقد الأمور ؟ قال: سيأتي المبسط، أنت سألت أين تذهب الشمس ؟ وأردف قائلا: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوماً والشمس تغرب: " أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة لله جل وعلا "، لا تتعجلي فكل شيء في هذا الكون يسجد لله، قال جل في علاه: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ" فكل شيء في الكون يسجد لرب الأرض والسماء، إلا كفرة الإنس والجن.

انظري إلى الكون كله من عرشه إلى فرشه، ومن سمائه إلى أرضه؛ لتتعرفي على وحدانية الله وعظمة الخالق جل في علاه، انظري إلى السماء وارتفاعها، وإلى الأرض واتساعها، وإلى الجبال وأثقالها، وإلى الأفلاك ودورانها، وإلى البحار وأمواجها، وإلى كل ما هو متحرك، وإلى كل ما هو ساكن، والله إن الكل يقر بتوحيد الله، ويعلن السجود لله، ولا يغفل عن ذكر مولاه إلا من غفل من الإنس والجن، ولا حول ولا قوة إلا بالله. انظري لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة كيف نمت من حبة وكيف صارت شجرة اخبريني من ذا الذي يخرج منها الثمرة ذاك هو الله الذي أنعمه منهمرة ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة وفكري بتلك الشمس التي جذوتها مستعرة فيها ضياء وبها حرارة منتشرة اخبريني من ذا الذي يخرج منها الشررة ذاك هو الله الذي أنعمه منهمرة ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة الشمس والبدر من آيات قدرته والبر والبحر فيض من عطاياه الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف له حمداً في خلاياه والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربي ليس ينساه قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: " أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قال الصحابة: الله ورسوله أعلم. فقال الصادق المصدوق: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة لله عز وجل، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها -أي: من المشرق- يقول المصطفى: فلا تزال كذلك، لا يستنكر الناس منها شيئاً ". الشمس تشرق كل صباح من المشرق، وتغرب كل يوم في المغرب، لا يستنكر الناس من أمرها ولا من شأنها شيئاً، فلا تزال كذلك حتى تجري ثم تستقر في مكانها تحت العرش، كما أخبر بذلك المصطفى صلى الله عليه وسلم،

فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي وأصبحي طالعة من مغربك، فتصبح الشمس طالعة من المغرب، انتهى نظامها المعتاد، انتهت مدة حياة هذا الكون، ستبدل الأرض غير الأرض، وستبدل السماوات ليبرز الجميع للوقوف بين يدي الملك جل جلاله: "يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ".

أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح الشمس طالعة من المغرب أليس هذا من العجب المنافي للعادة!! قالت: لكن هناك اشراط أخرى قبل قيام الساعة؟ قال: نعم، ولكن هذه الآية و يخرج معها آية الدابة و الدجال و بهم يغلق باب التوبة، قالت: اللهم اشملنا في عبادك التائبين المرحومين، قال: اللهم آمين آمين، قالت: أيكون هذا الليلة ؟ قال: الله اعلم، و لكن هناك حديث آخر يوضح هذا المعنى، أن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قال: " ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليالٍ من لياليكم" فأن طالت ليلتنا فهي هي. قال: هلم بنا نصلي قيام الليل و نأخذ قسط من النوم.

بعد الصلاة ضبطت المنبه لصلاة الفجر، استيقظوا على صوت المنبه فنظرت إلى ساعة الوقت و نظرت إلى النافذة، الليل ما زال مخيماً! لعل الساعة قد تعطلت فسبقت عن وقتها! خرجت لتتأكد من ساعة عبد الله ابنها، هو كذلك كان قد استيقظ لكنه حار في الأمر، الليل ما زال مخيما، عادت إلى زوجها، نظرت بعيونه، سألت بدون حرف؟ قال: الله يستر، قالت: تسرق كلماتي ؟ قال: السنا شركاء؟ قالت: الله يستر، شعر الاثنان انهم الآن بقلب الدوامة، بمركز العاصفة، العاصفة التي بدأت تتشكل و الناس نيام، العاصفة التي بدأت بسكون و هدوء ستتفجر في الصباح الباكر و مع شروق الشمس من مغربها، قالت: هل ننام ؟ قال: نصلي ركعتين و نقرأ شيءِ من القرآن و ننام، ثم تستيقظ فترى الليل ما زال مخيماً بظلامه! ثم تستيقظ فترى الليل ما زال مخيماً بظلامه! فتتعجب! طال وقت النوم! تأكدت

الآن و هي تتذكر الحديث "ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم"، فكرت: فإذا كان ذلك يعرفها المتنفلون- يعرفها القائمون بالليل لله رب العالمين، أصبتي بالعدوى يا صفاء ؟ صرتي تحملين هم الأمة كما يفعل ؟ حتى أنا بدأت التفكير بهذه المعاني، بفضل قيام الليل، حتى في أحلك الأزمات -يقوم أحدهم فيقرأ حزبه، ثم ينام، ثم يقوم فيقرأ حزبه، ثم ينام.

خرج إلى الجامع الكبير ليصلي الفجر، فإذا بالناس كلهم يتحدثون عن طول الليلة و عن أمر غريب يحدث، فبينما هم كذلك صاح الناس بعضهم في بعض، فيفزعون إلى المساجد، صلى بالناس و شرح لهم الأمر و قال: سنخرج من مسجدنا هذا لتطلع علينا الشمس من مغربها فتوبوا إلى بارئكم توبة نصوحة، فبينما هم كذلك إذ بهم يرون الشمس قد طلعت من مغربها. الله أكبر! ما الذي يترتب على هذه الآية العظيمة؟! تدبروا هذا الكلام جيداً! الذي يترتب على ذلك أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قال: " أتدرون متى ذاكم؟!" أي: أتدرون متى تطلع الشمس من مغربها؟! قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " ذاك حين "لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ". أغلق باب التوبة بطلوع الشمس من مغربها، إذا عاد الكافر إلى الله لا يقبل الله منه الإيمان، انتهى الأوان، إذا تاب العاصي إلى الله لا يقبل الله منه التوبة، ذكرت في الدنيا فما تذكرت! وعظت في الدنيا فما اتعظت! ذكرناك بالقرآن وذكرناك بحديث النبي عليه الصلاة والسلام فأبيت إلا الإنكار، وأبيت إلا العناد والإصرار، وتماديت في المعاصي والضلال والطغيان، وإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق عليك باب التوبة يا مسكين! قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إذا طلعت الشمس من مغربها ورآها الناس آمنوا كلهم أجمعون، ويومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً).

فكرت مليا، بينما كنت أراقبه، ماذا يحدث بنا نحن المتواكلون ؟ قلت بنفسي: أيها اللاهي! أيها الساهي! أيها الغافل! أيها المضيع للتوحيد! أيها المضيع للصلاة! أيها المضيع للزكاة! أيها العاق لوالديه! أيها المنصرف عن الله! دع عنك ما قد فات في زمن الصبا واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب لم ينسه الملكان حين نسيته بل أثبتاه وأنت لاه تلعب وغرور دنياك التي تسعى لها دار حقيقتها متاع يذهب الليل فاعلم والنهار كلاهما أنفاسنا فيهما تعد وتحسب قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: " إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها". إذا طلعت الشمس من المغرب أغلق باب التوبة، فهنيئاً لمن طلعت الشمس عليه من مغربها وهو مستقيم على طاعة الله، اللهم اجعلنا من أهل الإيمان والاستقامة، ووفقنا للعمل الصالح الذي يرضيك يا رب العالمين، كررت خلفه آمين آمين ما استطعت و هو يردد هذا الدعاء.

نظر ناحية الشرق، هو يعرف أن هناك آية أخرى تخرج الآن، أو خرجت قبل قليل، بالتأكيد انه المسيح الدجال، و نظر ناحية الجنوب، هناك آية أخرى ستخرج ضحى، بالطبع هي الدابة، هي آيات مترافقة متتابعة، تخلى هو الآن عن كثير من قلقه الذي لازمه طوال هذه الليلة الطويلة، هو الآن في مركز الإعصار، ينتظر اتساع الدوائر و تسارعها لينطلق سابحا خارجها بكل إيمان و عزيمة و ثقة و توكل على الله.

دعوة الدجال

في الشرق و حيث نظر المهدي نحو خراسان، في مدينة أصفهان، كان ذلك المسخ يجلس مع مجموعة كبيرة من حاخامات يهود أصفهان يرتدون الطيالسة، نظرت إليه و بي خوف امتزج مع قرف شديد من منظره، إنه كما وصفه رسول الله صلى الله عليه و سلم: رجل قصير، عظيم الجسم، عظيم الرأس، كلتا عينيه معيبة، فاليمنى عوراء كأنها عنبة طافية، و اليسرى عليها جلدة، و هو ذو شعر جعد كثيف، ابيض البشرة، بعيد ما بين الساقين أو الفخذين، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر. تأملت وجوه مجالسيه، كانت رؤوسهم قصيرة و وجوههم بيضاوية، أو مدورة شيء ما، و بنفس الوقت مسطحة بسبب بروز عظام الخدود و الوجنات، و تكوينات العيون و الأنف، حيث يبدو محور العين بائنا، فكانت وجوههم عريضة و مكتنزة لحما و هذا ما لخصه وصف رسول الله صلى الله عليه و سلم بالمجان المطرقة و هي التروس و صفتها أنها مطرقة.

بدأ بالحديث فقال: أنا نبيكم الذي تنتظرون، و هم يعتقدون أن الله وعدهم بملك منتظر من نسل د اوود عليه السلام، يأتي في أخر الزمان و يقيم لهم دولتهم و يسمونه في كتبهم الميسياه، و من طقوسهم في أعياد الفصح أنهم كانوا يقيمون صلوات يستحثون فيها الدجال على الخروج، و هو الآن بينهم. قال الجميع: ورائنا سبعون الف من اليهود، على كل رجل منهم ساج وسيف محلى، تقودنا فنتبعك و نقاتل خلفك فنهزم ملك المسلمين و نقيم دولتنا على كل الأرض، فتخضع كل الأمم لملكك وتكون عبيدا و خدما لنا كما وعدنا الله في التلمود، تأملت الطيالسة التي عليهم، و هي لباس ابيض به خطوط زرقاء عرضية يوضع على الرأس و يسدل على بقية البدن، كانوا متحمسين جدا للمضي سريعا للحلم المنشود، ولكن هيهات، كيف للسراب أن يكون حقيقة ؟ تذكرت كلمته المعهودة " قدر الله ماض

" قلت: نعم، متلهفون للانطلاق بسرعة إلى قدرهم فليكن ما أرادوا فقدر الله ماض، كان الجميع ينظر إليه ينتظرون رده، ينتظرون موافقته، و بلمح البصر فجر صمتهم و انتظارهم قائلا: أنا ربكم، قلت معاذ الله، و تذكرت الحديث " ولا ترون ربكم حتى تموتوا" قالوا: كن ما شئت أن تكون، نؤمن بك، فقط أنجز لنا حلمنا المنشود، أعدنا أسياد للعالم، قال: نخرج خلةً بين الشام والعراق، فجهزوا جيوشكم و ليخرج نسائكم و أبنائكم معكم و ادعوا كل ما تقابلوا من النساء فهم أسرع ما يصدقني.

يكون للمسلمين ثلاثة أمصار: مصر بملتقى البحرين، ومصر بالحيرة ومصر بالشام، فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيخرج الدجال في إعراض الناس، فيهزم من قبل المشرق، فأول مصر يرده المصر الذي بملتقى البحرين، فيصير أهله ثلاثة فرق: فرقة تقول: نُشامّه ننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم، ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم السيجان، وأكثر تبعه اليهود والنساء، ثم يأتي المصر الذي يليه، فيصير أهله ثلاث فرق: فرقة تقول: نشامّه ننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم بغربي الشام.

ينطلق مسرعا في الأرض كالغيث استدبرته الريح، وله حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً، و معه جنة ونار، ونهر وماء، وجبل خبز، وإن جنته نار، وناره جنة، معه نهران يجريان، احدهم رأي العين ماء ابيض، والآخر رأي العين نار تأجج، يمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، وإنه يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى، ويقول للناس: أنا ربكم. فمن قال: أنت ربي: فقد فتن، ومن قال: ربي الله. حتى يموت؛ فقد عصم من فتنته، ولا فتنة بعده، ولا عذاب عليه، فيلبث ما شاء الله. كل هذه المعجزات التي معه و التي هي بطبيعة الحال بأمر من الله، تجعله بحق، اكبر فتنة تمر على البشرية.

يأتي على أهل قرية فيدعوهم ليؤمنوا به، فيأمر السماء فتمطر في قريتهم، والأرض فتنبت، فترجع ماشيتهم و دوابهم التي خرجت ترعى صوفها طويل و ضروعها ممتلئة بالحليب و خواصرها سمينة مكتنزة باللحم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، ثم يأتي قرية أخرى فيدعوهم، فيردون عليه قوله و يكفرون به، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين أراضيهم مجدبة ليس بها زرع و ليس بأيدهم شيء من أموالهم التي كانت عندهم. يمر في طريقه على أعرابي، فيقول له: لو أخرجت لك أباك و أمك المتوفين من زمن أحياء أمامك الآن هل تشهد بأني ربك ؟ قال الأعرابي : افعل، فيأمر الدجال شيطانان من الشياطين التي سخرها الله له و التي تكلم الناس و تتمثل فيما شاء من الصور، أن يتمثلان بصورة أب و أم الأعرابي فيفعلان، فينظر الأعرابي بدهشة و ذهول إلى أمه و أبيه، و ينطلق إليهم يحضنهم و يقبل أياديهم، فيقولان له، اتبعه يا بني فهذا ربك، فيفعل الأعرابي و هو لا يدرك انه يحضن الشياطين. معه نهران– نهر يقول: الجنة، ونهر يقول: النار، فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهو النار، ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة، فهو يدعو من يؤمن به ليدخل جنته فيدخله النار، و من يكفر به ليدخل ناره فيدخله الجنة. ويمر على أعرابي آخر فيقول له: أرأيت إن أحييت لك إبلك عظيمة ضروعها طويلة أسنمتها تجتر؛ تعلم أني ربك؟ قال: فيقول: نعم. قال: فيتمثل له الشياطين على صورة إبله، فيتبعه، ثم يمر بقرية فيجتمع الناس من حوله و ينظر لرجلاً ممتلئاً شباباً، فيسأله: هل تؤمن بي ؟ فيقول الشاب: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه، فيقول الدجال للناس: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته؛ أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه، فيقبل، ويتهلل وجهه يضحك، فيقول الدجال: قتلته ثم أحييته، فهل يفعل ذلك إلا الله؟ فيقول الناس أنت الله، و يقول الشاب حين يحيى: والله؛ ما كنت قط أشد بصيرة فيك مني الآن! وأنا على ثقة اكبر الآن بأنك أنت المسيح الدجال، فيحاول

الدجال قتله مرة أخرى، فلا يسلط عليه و لا يستطيع ذلك، قال الدجال للشاب: ألا تشعر بعطش؟ ألا تريد الشرب؟ قال الشاب بلا، قال : تعال و اشرب من هذا النهر ذو الماء الأبيض قال الشاب: بل اشرب من ذاك الذي ناره تأجج، أغمض الشاب عينيه، ثم طأطئ رأسه واقترب من الماء ليشرب، قال الدجال: ويحك إنها النار، هل ستشرب من الحمم و تدع الماء العذب الفرات؛ قال الشاب: إن جنتك نار و نارك جنة، فشرب من نهر النار ووجد به ماءً بارداً عذباً طيباً، قال الدجال: لقد غلبتني فمن دخل نهري حطّ أجره، ووجب وزره، ومن دخل ناري وجب أجره، وحطّ وزره، قال الدجال: أصدقني القول، ما حصنك مني ؟ قال الشاب: استغثت بالله منك، وقرأت عليك فواتح سورة (الكهف)، فإنها جوار لنا من فتنت، قال: صدقت.

الدابة

في ضحى ذلك اليوم من الأيام الأربعين يوما للدجال على الأرض، اليوم الأول من أيامه و أطولها و الذي يبلغ طوله كسنة، و بحسابات بسيطة يمكن معرفة أن الساعة به تعادل نصف شهر و باعتبار أن وقت الضحى بين الساعة الثامنة و العاشرة صباحا فهذا يعني انه قد مر على الناس ما يقرب من زمن الشهرين بقياسات هذا اليوم ولكن بالقياس الشمسي ما هي إلا أربع ساعات، في دمشق، تجمع الناس عند المهدي، الكل يسألونه، هل تكفيهم صلاة يوم واحد في مثل هذا اليوم، و كان يردد للجميع، لا، بل يجب أن يقدر الزمن حسب الساعة في هذا اليوم لا حسب الشمس، أي يجب القيام بخمس صلوات كل أربع و عشرون ساعة حسب

الساعة و ليس حسب الشمس كما هو متبع بالعادة، و كان يذكرهم بأن يسمعوا الآذان لكل صلاة و من كان بعيدا لا يسمع الآذان فليراقب ساعته و يقدر أوقات الصلاة، و كان يذكرهم بحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم " أقدروا لهذا اليوم قدره " ، أي بين المغرب والعشاء مثلا ساعة ونصف . وبين العشاء والفجر مثلا سبع أو ست ساعات . بين الصبح والظهر ست ساعات .....

في اطهر بقاع الأرض، في مكة المكرمة البلد الحرام في بيت الله الحرام، و قد رأى الناس آية خروج الشمس من مغربها، ترك الجميع أعمالهم و مصالحهم و توجهوا للطواف و الصلاة، للاستغفار و التوبة، للبكاء و سؤال المغفرة، بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام مشغولون بالاستغفار و التسبيح و التهليل و التحميد، فبينما هم كذلك، إذ دبَّت الأرض ،و تصدعت و لم يرعهم إلا و دابة ضخمة رأسها بين الركن و المقام و أخرها ما زال في شعب جياد، تخرج من شعب جياد فيبلغ صدرها الركن ولم يخرج ذنبها بعد ، كانت ترغو بين الركن والمقام تنفض رأسها عن التراب، فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من بين الخافقين، بدأ الناس بالركض مذعورين خائفين من هذه الدابة الضخمة و من صوتها الرهيب، لم يخافوا فقط من حجمها ولا من صوتها فقط، لكن اغلبهم يعلم ماذا ستفعل هذه الدابة، اليوم تختفي الأسماء، لا زيد ولا عمر، هنا تختفي الفوارق الاجتماعية، لا ابن سيد ولا ابن جارية، . لا غني و لا فقير، اليوم يتم التصنيف إلى مجموعتين فقط: مؤمن و كافر، صاحب الوجه المنور ينادون عليه يا مؤمن. فيقول : نعم . والثاني ينادونه: يا كافر، يقول: نعم. الناس منها شتى و معاً، وتثبت عصابة من المؤمنين عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم، فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري، وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه، فتقول: يا فلان: الآن تصلي! فتقبل عليه فتسمه في وجهه و تحديدا على انفه أي

تكويه بالنار على أنفه ،بالإيمان أو الكفر ، فيصبح ذلك سمة ووصفاً عاماً ظاهراً لذلك الإنسان، فتلمس وجه المنافق أو الكافر والمنحرف والمرتشي والمختلس والزنديق والظالم فيصبح وجهه أسودا عليه كآبة وعليه غبرة، حتى أن الناس يتبايعون في الأسواق فيقولون بكم ذا يا مؤمن؟ .. بكم ذا يا كافر ؟ حتى يشتري الرجل الدابة، فيقال: ممن اشتريت؟ فيقول: من رجل المخاطم، أي الرجل الموسوم من الدابة والذي يظهر خطي الكي من الأنف إلى احد الخدين، و حتى أن أهل البيت ليجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم وكافرهم. ثم تتجول وتتنقل في بقاع الأرض، تضع حافرها في آخر ما يقع عليه بصرها، وتمكث في الأرض أربعين يوما مثل مكوث الدجال، تمر على الناس فتقول لهم يا فلان أبشر لك الجنة ويا فلان أنت من أهل النار و إنها تتكلم بلسان عربي مبين ، ليس يدركها طلب، ولا يفوتها هارب، تسم الناس مؤمناً وكافراً، فأما المؤمن فتترك في وجهه كالكوكب الدري، وتكتب بين عينيه: مؤمن. وأما الكافر فتنكت بين عينه نكتة سوداء، وتكتب بين عينيه: كافر . " وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ"

يوم الخلاص

بينما كان الدجال يمسح الأرض يطويها طيا، فيرد كل منهل، فتطوى له الأرض طي فروة الكبش، وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا يطئه ويظهر عليه؛ إلا أربع بقاع من الأرض: مكة المكرمة، و المدينة المنورة، والطور، والمسجد الأقصى. وإنه ليس من بلدة إلا يبلغها رُعبُ المسيح الدجال؛ إلا المناطق التي ذكرنا؛ يصل

الدجال و جيشه إلى ضواحي المدينة ولها يومئذ سبعة أبواب، على كل نقب من نقابها ملكان يذبان عنها رعب المسيح، ملكان   أسفلهم في الأرض و أعلاهم بالسماء، لهم أجنحة شاهرين سيوفهم يضربون بها الدجال و جيشه يردونه عن المدينة إذا حاول الاقتراب، ينزل الدجال و جيشه عند السبخة و هي ارض ذات ملح، في سبخة الجرف شمال المدينة، دبر جبل أحد، فيضرب رواقه و قبته و يهيأ معسكره، و في هذه البقعة جبيلات صغار حمر، تلال، تذكرت إحداها فهل فعلتم؟ الدجال، محرم عليه أن يدخل المدينة، ماذا يصنع؟ يريد أن يزيد من تعداد جيشه، يريد أن يضم كل منافقي الأرض إلى جيشه، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، هي زلزلات ليست بقوية، لكن ما أن تبدأ يخاف الناس في المدينة و يتوقعون حدوث زلزال كبير، فتجعل المنافقين يخافون الهلاك في المدينة فيهربون منها، فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفي المدينة الخبث منها كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى هذا اليوم يوم الخلاص، وأكثر من يخرج إليه النساء.

يخرج له رجل من المؤمنين، هو من خير الناس في المدينة، فيتوجه نحو الدجال، فيعترضه حرس الدجال– فيقولون له: أين تذهب؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج و يقصد الدجال، فيقولون له: أوَ ما تؤمن بربنا و ربهم الدجال؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها   الناس! هذا الدجال الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، يغضب الدجال غضبا عظيما، فيأمر جنده أن يشبحوا الرجل، فيُشبّح، فيقول: خذوه وشجّوه. فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، فيقول: أوَ ما تؤمن بي؟ قال:فيقول: أنت المسيح الكذاب. فيؤمر به، فينشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، يضع المنشار في وسط رأسه و يشقه حتى يصل ما بين فخذيه، يقسم جسده قسمين، ثم يمشي الدجال بين القطعتين متفاخرا، ثم يقول له: قم.   فيستوي المؤمن قائماً، فيقبل المؤمن ويتهلل وجهه

ويضحك، ثم يقول الدجال له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، و ما ازددت إلا يقينا بأنك الدجال، ثم يقول المؤمن: يا أيها الناس! إنه لا يستطيع أن يفعل هذا مع احد بعدي بأي من الناس، فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل الله ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، في نهر النار الذي معه، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما في الحقيقة، ألقي في الجنة، لأن نار الدجال جنة و جنته نار، و كما اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا المؤمن: " هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين".

يصعد الدجال مع مجموعة من قواد جيشه إلى جبل احد، ينظر إلى المدينة و يقول لأصحابه: أترون هذا القصر الأبيض ؟ و هو يقصد المسجد النبوي، فيقول هذا مسجد أحمد، به رغبة عارمة لدخول المدينة و تدميرها و تدمير المسجد النبوي، أجاب أصحابه من اليهود و المنافقين، اخرج أجدادنا منها و نريد العودة لها، كان يشتعل رغبة بدخولها و تدميرها كما يفعلون، و كان يشتعل غيظا و قهرا أن الملائكة تدافع عنها و لا تسمح له بدخولها، هبط و هم بدخولها مع جيشه بعد أن شحن الجميع بمشاعر الحقد و الكراهية، بعد أن وعدهم بنصر و فتح مبين و لكنه وعد مغرور كما يعد الشيطان أوليائه، حتى إذا اقترب ضربته الملائكة و وجهت وجهه نحو الشام، إلى حيث مهلكه و جيشه.

خلوة مع المهدي

كان يجلس في مسجد دمشق الكبير بعد إحدى الصلوات و بعد أن انتهى من استغفاره و ورده وقرأ ما تيسر من القرآن، كان يحلل ما تصله من أخبار عن تحركات الدجال وفتنه العظيمة وما يلاقيه الناس منه، كان يدعو للمؤمنين بالثبات

على دينهم وان لا يفتنوا به و يستغفر للناس أجمعين و يسأل لهم الرحمة و الغفران، هو يعرف أن الدجال يطوي الأرض طيا، و انه يسير بسرعة الريح، وان لديه من المعجزات ما يجعل أتباعه كثر، قلت: لما لا تذهب بجيشك فتلاقيه ؟ قال: وددت لو أنني ألاقيه من أول ساعة خرج بها فأقاتله فأنتصر عليه و اخلص الأرض من فتنته أو يقتلني فأكون شهيدا في سبيل الله، قلت: ولما لم تفعل ؟ لم يؤذن لي و لست بصاحبه، أنا اعرف صاحبه، ولكنني كعادتي أتظاهر بالجهل بالشيء، حتى استدرجه للحديث، قلت: رأيته على نفس التل الذي حدثتني عنه، قال: أي تل تقصد ؟ قلت: انتظارك لتميم الداري و رؤيتك الراعي اليهودي و الذئب الذي تحدث إليه، قال: علمت انه كان هناك، قلت هل هو نفس التل؟ قال: و ما يدريني ؟ فأنا لم أراه أين كان ولم أكن يوما على ذلك التل، أنا اعرف أن الضغط عليه لا يجدي نفعا، لذلك توقفت عن هذا الحديث، سألت: فما بال الصخرة على التل في الطريق إلى القسطنطينية ؟ قال: أي صخرة و أي تل تقصد ؟ قلت: كنت تجلس هناك تراقب الغروب، و كان لديك شعور انك زرت تلك البقاع سابقا، أردفت قائلا: هل مر ذو القرنين من ذاك المكان؟ هل السد قريب من تلك البقاع؟ قال: تسأل عن كثير من الأمور التي لا أعرف عنها إلا ما ورد في الأحاديث، و أنت تعرف هذه التفاصيل، فلما تسأل، كيف لي أن اعرف المكان و لم أزره ؟ كيف لي أن اعلم إن كان ذو القرنين مر بها و لم ألتقيه، أنا و أنت نعلم انه طاف الأرض، فبلغ مشرقها و بلغ مغربها و كان بين السدين، ولكن هل تعلم أين تقع هذه البقاع؟ قلت: أنا ؟ و ما يدريني، قال: فكيف تسألني عنها و مبلغ علمي عنها لا يزيد عن مصادر المعلومات التي تملكها نفسك، ثم أردف، ما حاجتك بمعرفة المكان، تحمست كثيرا عند سماعي هذا السؤال، هل سيبوح لي بشيء خاص ؟ هل سينفتح في الحديث معي، شعرت بفرحة عارمة، أحسست انه بدأ الحديث بجدية و صراحة اكبر، قلت: أود أن ازور ذلك المكان فأرى إن كانوا

قد اقتربوا من الخروج، قال: و ما شأنك ؟ أنا اعرف انه مثلي أو الأصح القول أنني صرت مثله اهتم بجميع التفاصيل و جميع الآيات و أصابتني العدوى التي به من تحليل الأمور و توقع المنتظر، أنا على ثقة تامة انه كان يفكر مثلي، و انه انجذب للحديث لأنه يعكس ما بداخله، قلت: هل وجده احد من الناس؟ قال: هناك حديث يقول انه قد رأه احد الصحابة فوصفه للنبي صلى الله عليه و سلم انه مثل البرد المحبر أي مثل الثوب المخطط الذي به خط احمر و خط اسود أو غير ذلك من الألوان، كذلك يذكر أن الخليفة الواثق أرسل جيشا تحت بعض أمرائه ليجدوا ذلك السد و يعاينوه و يصفوه له إذا رجعوا، فوصلوا من بلاد إلى بلاد و من ملك إلى ملك حتى وصلوا إليه و رأوا بنائه من نحاس و من حديد و ذكروا أنهم رأوا فيه بابا عظيما و عليه أقفال عظيمة ورأوا بقية الطوب و الصخور في الأرض قرب هذا السد حيث عمل جيش ذو القرنين وقت بنائه وان عنده حراسا من الملوك المتاخمة له، وانه عال منيف شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال، ثم عادوا إلى بلادهم و كانت غيبتهم قرابة السنتين و شاهدوا الكثير من الأهوال و العجائب، مع العلم انه لا سند لهذه القصة، قلت، وأنا احسب أنني سأفجر بركانا: لم لا تصفه لي أنت كما شاهدته، قال: هل عدت إلى ضلالك القديم ؟ وكان هدوئه في طريقة رده ينقض كل إحساسي ليس بأنني قادر على تفجير بركان بل حتى على تحريك شعرة في رأسه، أحس بحرجي فقال: حسنا، تريد أن تعرف كيف هم الآن، شعرت بنشوة انتصار، فها هو سيبوح لي بالقصة، ولكن لم يطل شعوري بهذه النشوة، قال: سأخبرك بما اخبر الحديث عن أحوالهم من يوم أن بنى عليهم ذو القرنين السد حتى يأذن الله لهم فيخرجوا، قال: دخل الرسول صلى الله عليه وسلم فزعاً وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من سدِّ "يأجوج ومأجوج" مثل هذه، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت له زينب: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم إذا كثر الخبث، وفي حديث آخر، قال

عليه الصلاة و السلام: إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم- ملكهم- ارجعوا فستحفرونه غدا – ولا يقولون إنشاء الله- فيعودون إليه – في الغد - كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله ويستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس... إلى آخر الحديث، ثم تلا قوله تعالى: " قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً "

نزول المسيح عليه السلام

في فجر احد الأيام خرج المهدي من بيته قاصدا المسجد الكبير في دمشق لصلاة الفجر، كان الظلام لازال يخيم على المدينة، و كان يشق سكون الليل الآذان و الذكر الذي يتغنى به المؤذن قبل الآذان، كان يأتي صوته هادئا رقيقا، يبدأ منخفضا ثم يرتفع شيئا فشيئا وكأنه شعاع النور الأول الذي يخترق صدر الظلام فيفتحه عن نبع لونه اللازورد ليطلق الفجر منبلجا من رحم الظلام، ليطلق الحقيقة التي كانت مخبأة في جنبات الليل، فينكشف كل ش يء و يبان جليا بعد أن كان مموها، و يفصل الحق عن الباطل، أحببت دائما صوت التذكير قبل الآذان، كنت في اغلب الأحيان انتظر سماعه، كان يأتي كما النسيم يداعب الوجه في ليل حار، لكنه هنا يداعب الروح و يجعلها تهيم بعبارات التسبيح و التهليل و التكبير و الحمد. قد يتسأل البعض كيف نتكلم عن الليل و الفجر و كنا نعيش بيوم مقداره سنة مما نعرف، للبيان فقط، فقد انقضت أيام الدجال التي كسنة و كشهر و كأسبوع و

الكثير من أيامه العادية و عدنا مرة أخرى للنظام المعهود أربعة و عشرون ساعة في اليوم و الليلة.

بعد أن صلى تحية المسجد و سنة الفجر و أخذ نصيبه من الاستغفار و تلاوة القرآن اقيمت الصلاة و تقدم المهدي يصلي بالناس الصبح؛ كان هناك حدث جلي يقع بالخارج و تحديدا عند المنارة البيضاء شرقي دمشق قرب المسجد الكبير، على أجنحة ملكين نزل من السماء عيسى بن مريم، بين مهرودتين – يلبس ثوبين مصبوغين بصفرة خفيفة من الورص و الزعفران، واضعاً كفيه على أجنحة الملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإن لم يصبه بلل، ينزل من جبينه عليه السلام حبات عرق كالفضة ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، و علاه البهاء عليه السلام ، مربوع القامة، لا هو طويل ولا قصير، لون بشرته يميل إلى الحمرة والبياض، عريض الصدر ، سبط مسترسل الشعر، شعره يقطر كأنما خرج من حمام، ولونه أبيض بحمرة، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه. سمع المسيح عليه السلام ان الصلاة قد قامت، توجه إلى المسجد، شعر المهدي به خلفه، فرجع المهدي ينكص- يمشي القهقرى – متراجعا للوراء عن مكان الإمام ليتقدم عيسى، لأنه يعرف قدر الأنبياء و الرسل فعيسى عليه السلام نبي و رسول ولو لم ينزل الآن برسالة، و لكن الأنبياء و الرسل أفضل البشر و يريد المهدي أن يقدم الأفضل للإمامة، فيقول المسيح عليه السلام واضعا يده بين كتفي المهدي : لا؛ إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله لهذه الأمة، إنها أقيمت لك، تقدم فصلّ، فيصلي بهم المهدي، و هذه تكرمة من الله لهذه الأمة أن يصلي نبي الله عيسى عليه السلام خلف رجل من امة محمد صلى الله عليه و سلم، قرأ المهدي في الركعة الأولى بعد الفاتحة قوله تعالى: " وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ، بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ،

وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا" و في الثانية قوله تعالى : " وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ، وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ، إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ، وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ" ما ان انتهى من الصلاة و استغفر و دعا للناس حتى قام و صافح نبي الله عيسى عليه السلام و استأذنه أن يحضنه و ابلغه السلام من رسول الله صلى الله عليه و سلم كما وصى في حديثه، و ابلغه السلام من أبو هريرة أيضا، فسأل المسيح من يكون أبو هريرة ؟ قال: هو صحابي حدث كثيرا عن رسول الله صلى الله عليه و سلم، اجتمع الناس كلهم حول نبي الله عيسى مسلمين و مرحبين به، كان المهدي على أحر من الجمر، ينتظر أن يخف توافد الناس للسلام على المسيح عليه السلام، كان ينظر إلى المسيح عليه السلام، يريد أن يعرف متى يسيروا إلى بيت المقدس، فالدجال قد توجه لهناك، و هذا صاحبه – بمعنى من يقتله– قد نزل، هو به شوقا عظيما، كما كل المسلمين في كل بقاع الأرض، لتحرير بيت المقدس.

هلاك الدجال و قتال اليهود

يأتي الدجال جبل إيلياء ببيت المقدس، فيحاصر عصابة من المسلمين، فيلقى المؤمنون شدة شديدة، ويفر الناس من الدجال في الجبال، فيقول لهم أميرهم الذي عليهم: ما تنتظرون بهذا الطاغية إلا أن تقاتلوه حتى تلحقوا بالله، أو يفتح لكم، فيأتمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا، فبينما هم يعدون للقتال، يصل جيش المسلمين بقيادة المهدي و عيسى ابن مريم عليه السلام، استبشر المسلمون خيرا و رحبوا بالمسيح عليه السلام و المهدي و جيشه، قال المسيح عليه السلام: اختاروا بين

إحدى ثلاث: بين أن يبعث الله على الدجال وجنوده عذاباً من السماء، أو يخسف بهم الأرض، أو يسلط عليهم سلاحكم ويكف سلاحهم عنكم، فيقولون: هذه يا نبي الله! فهي أشفى لصدورنا ولأنفسنا، فيقول عليه السلام: إذن افتحوا الباب، أفرجوا بيني وبين عدو الله، فيفتح الباب، و وراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى وساج، فيذهب عيسى عليه السلام بحربته نحو الدجال، فإذا نظر إليه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لنذاب حتى يهلك، فيهرب الدجال من المسيح عليه السلام فيدركه عند باب اللد الشرقي و يقول له: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيضربه بحربه فيقتله ويرفع الرمح الذي سال به دم ذلك النجس، فيقتله الله بيد المسيح عليه السلام و يريه دمه في حربته، فيهلكه الله عز وجل عند عقبة أفيق و يخلص الناس من شره، ويري المسلمين دمه في حربته ويكبر المسلمون ويبدأ النصر و تنطلق المعركة الأخيرة أو ما قبل الأخيرة على الأرض، فيهزم الله اليهود، ويسلط عليهم المسلمون، ويقتلونهم، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا قال يا عبد الله المسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فإنها من شجرهم لا تنطق ، كانت معركة، بل ملحمة رهيبة عسيرة على اليهود و المنافقين الذين اتبعوا الدجال، يسيرة بتأييد الله على المسلمين، لأنهم فهموا معنى التوكل على الله و الإعداد للمعركة، لأنهم فهموا معنى الآيات الكريمات: " وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ" و " مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ"، فهم اعدوا العدة و تجهزوا و اخلصوا النية و توكلوا على الله و اطمئنوا لوعده فنصرهم الله.

قبل ألفي سنة و يزيد تأمر اليهود على المسيح عليه السلام مع الحاكم الروماني آن ذاك ليقتلوا المسيح عليه السلام، و زعموا أنهم قتلوا عيسى بن مريم وصلبوه، و

تأمروا على المسيحيين بعد ذلك ليقنعوهم بذنب قتل المسيح و صلبه، فأعتقد النصارى بجهلهم أن عيسى صلب وقتل ودفن وخرج من قبره بعد ثلاثة أيام وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الرب أبيه، وهو ينتظر إلى يوم الخلاص ليقضى بين الأحياء والأموات!! "كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا"، فبين الله الحق وكذب اليهود والنصارى فقال سبحانه "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا، وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا" ها هو اليوم عاد ليثبت كذبهم و دجلهم، و الحق إن الله عز وجل لما أراد أن يرفع عيسى خرج إلى بيت فيه إثنى عشر رجلا من الحواريين فقال: نبي الله عيسى: إن منكم من سيكفر بي بعد أن آمن بي، ثم قال لهم: أيكم يقبل أن يلقى عليه شبه ي ليقتل مكاني ليكون معي في درجتي في الجنة فقام شاب أحدثهم سناً (أصغر الجالسين) فقال له: أنا، فقال: اجلس، فجلس، ثم أعاد عيسى القول مرة ثانية فقام نفس الشاب فقال له: اجلس فجلس، ثم أعاد عيسى قوله للمرة الثالثة فقام نفس الشاب فقال عيسى هو أنت فألقى الله على هذا الشاب شبه عيسى ورفع الله عيسى إلى السماء"، وجاء الطلب من اليهود أي الذين يطلبون عيسى لقتله فأخذوا هذا الشاب فقتلوه فصلبوه فكفر بعض أتباع عيسى ممن آمنوا به كما ذكر لهم قبل قليل، ثم ينزل الله عز وجل عيسى بعد ذلك لحكم عديدة منها: أن الله تبارك وتعالى أنزل عيسى عليه السلام ليكذب اليهود الذين زعموا أنهم قتلوه، وليكذب النصارى الذين جهلوا هذه الحقيقة، وليبين للناس جميعا أن محمدا صلى الله عليه و سلم وأن الموحدين معه من أمته أولى الناس بعيسى عليه السلام لأنه سيحكم العالم كله بكتاب الله وبشريعة محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم ، نزل عيسى ليموت في الأرض و يدفن فيها، كما أن نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض من

السماء إلى الأرض مرة أخرى ليكون علامة كبرى من العلامات الدالة على قيام الساعة "وإنه لعلم للساعة " . و كل أهل الكتاب يؤمنون قبل موتهم أن عيسى عليه السلام عبدا رسولا بشرا و ليس إلها كما كانوا يعتقدون.

فها هو عيسى ابن مريم عليه السلام في أمة محمد صلى الله عليه و سلم ، مصدقاً بمحمد صلى الله عليه وسلم ، حكماً عدلاً على ملته ، وإماماً مقسطاً، فيقاتل الناس على الإسلام، و لا يقبل غير الإسلام دينا، هو لا يجبر الناس على الدخول في الإسلام و لكنهم يدخلون طواعية، و يكسر الصليب وهو رمز النصارى و الذي يدعون انه صلب عليه فيكسره ليبين الحقيقة للناس أجمعين أنهم اخطئوا في اعتقادهم بالصليب، ويذبح الخنزير مبالغة في تحريم أكلها، وتجمع له الصلاة، ويضع الجزية فلا يقبلها من احد من أهل الأديان الأخرى، فأما الإسلام أو القتل، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض، والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها، وتكون الدعوة واحدة لرب العالمين.

مرتبة الصديق

في طريق العودة إلى بيت المقدس، مر عيسى ابن مريم عليه السلام و معه المهدي و ما بقي على قيد الحياة من جيش المسلمين على قومٌ قد عصمهم الله من الدجال، فمسح المسيح على وجوههم، وحدثهم بدرجاتهم في الجنة، شعر المهدي بتوق و شوق إلى الجنة، كان شارد بأفكاره، هو قد علم من المسيح أن الله عز و جل أوحي إليه: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى

الطور، قد فهم الرسالة أن الله قد إذن ليأجوج و مأجوج بالخروج، و على المسلمين أن ينطلقوا مع المسيح عليه السلام إلى جبل الطور ليكونوا بمأمن هناك من الخراب و الدمار الذي سيلحقونه يأجوج و مأجوج بالأرض، كما علم أيضا أن عصابة من المسلمين ستذهب للهند للقتال في سبيل الله هناك فتكون أخر الحروب على الأرض، فلا يحارب بالأرض بعدها، هو يذكر حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم بالنص " عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار: عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم عليه السلام" ، دخل المنزل الذي سكنه بالقدس، رحبت صفاء بعودته سالما غانما، رأت على وجهه الحيرة، قالت: ما بال حبيبي ؟ ألا يحب انه عاد إلينا سالما غانما ؟ قال: ليتني لم افعل، استغربت صفاء شدته في الرد، قالت: هون عليك، تعال و اخبرني ما يشغل بالك، قال: إما الطور ولا شهادة، وإما بلاد الهند و لست واثقا أنني سأنالها هناك، والله لو عرفت أنني أنالها لسرت لها لأخر الدنيا، ضمت رأسه إلى صدرها و رتبت على شعرها و بكت، صفاء تعرف أنها لن تخفف عنه بمجرد حضن وكلمات تهدئة و ترتيب على الشعر، هي تفهم حاله الآن، هو بحاجة إلى حجة إيمانية اكبر مما يفكر به، حجة تجعله يعود لرشده، بالتأكيد هو لم بفقد رشده كما قد يبدو من هذا المعنى، هو فقط يطمع بالشهادة، قالت: أيهما أعظم منزلة عند الله ؟ الصديق أم الشهيد ؟ قال: الصديق طبعا، فمرتبته بين الأنبياء و الشهداء، قالت: أفتطلب مرتبة الشهيد و أنت بمرتبة الصديق ؟ قال: و أين أنا من الصديقين؟ كنت اسمع الحديث و يصل إعجابي بهذا الرجل إلى حد الجنون، يا الله كم أنت متواضعا و متفان، تطلب الشهادة و قد نلت درجة الصديق ! يا لإيمانك القوي، يا لتعلقك بالله ! قالت صفاء: أولم ترمي أم موسى وليدها رضيعا في اليم، تضعه بتابوت و تلقي به إلى النهر الهائج و هي تجهل مصيره، لا بل تعرف انه سيذهب و يلتقطه عدوه و عدو الله فرعون، ا لم تنل درجة الصديقة فقط لأنها وثقت بكلام الله و لم تناقشه، بل فعلت ما أوحى لها به دون

تفكير، ألم تنلها مريم ابنة عمران، و هي الفتاة العذراء، و التي جاءها الملاك ينبئها بحمل من روح الله من دون دخول رجل عليها، فارتابت ثم قبلت مصدقة بأمر الله عندها نفخ جبريل عليها من روح الله ، فحملت، و هي تعرف كل ما ينتظرها من بني إسرائيل عندما يكتشف أمرها، فستتهم بأغلى ما تملك الفتاة الشرقية، لكنها لم تبالي بهم و توكلت على الله و خضعت راضية لأمر الله، ألم تنلها آسيا زوجة فرعون نفسها عندما أشهرت إيمانها و هي تعلم أن فرعون قاتلها ؟ فعلت و طلبت من الله أن يبني لها بيتا في الجنة، الم ينلها أبو بكر الصديق فكني بها إلى يومنا هذا و يكنى بها إلى قيام الساعة، فقط أن قال للكافرين عندما سألوه عما اخبر به رسول الله عن رحلة الإسراء و المعراج وإذا كان يصدق ذلك أو لا فقال: إن كان قال فقد صدق، تأملت حديث صفاء، كانت إنسانة غير التي عرفتها سابقا، أنا اعرف أنها مثقفة و مطلعة و لم اقصد هذا، لكنني اقصد قوة العزيمة لديها، اقصد طريقتها في التحليل و الإقناع، و أنا اعلم تمام العلم أن قلبها ينفطر، صفاء اليوم تخلت عن الأنثى، تخلت عن المشاعر الشخصية، تخلت عن حب التملك، انطلقت إلى أبعاد أوسع من الحب و المشاعر، صفاء اليوم تحللت من عقدة الأنا و من الحب الأرضي إلى ما وراء عوالم الروح، فكرت مليا بمرتبة الصديق، فهمت أن الشرف الذي يناله صاحبها لا يأتي من أمر بسيط رغم بساطته، فالأمر فقط يتعلق بالتصديق، هي كلمة أو فكرة تقال و الشخص يأخذها كما هي، يصدقها دون أي مناقشة، البعض من الناس، و بغرور النفس، و بتدليس من الشيطان، يحسبون إن هذا النوع من التصديق هو من الجهل و ضعف النفس، وان الإيمان الناتج عن مقارعة الأفكار أقوى، و أن التصديق بما لا يوافق العلم هو خرافة و خزعبلات، و يتناسون أن عقولنا و حواسنا في الأرض محدودة و غير قادرة على تفسير كل الظواهر العلمية و بتحليل علمي لإثباتها، فيهيمون وراء النفي و الإنكار و منهم من يصل حد الإلحاد، بالأكيد للعلم مكانته و قد ميز الله مرتبة العلماء عن الجهال،و قد أمر الله

الناس في كل رسالاته بالتعلم، ولكن هناك أشياء تفوق مقدرتنا لفهمها بالعلم وحده، و لا ينفع معها إلا التصديق الكلي و التسليم لله بها و هذه مرتبة الصديقين، أو مقارعتها فلسفيا و الادعاء بالمعرفة و حصد الشقاء و الجهد المضني بالنهاية، قال مخاطبا صفاء: كل كلامك صحيح و لكن أين أنا من هولاء الصديقين، قالت: أولم يصلحك الله في ليلة ؟ قال: بلى، قالت: فأنت صدقت و لم تجادل ففيما جدالك الآن يا صديقي الحبيب.

يأجوج و مأجوج

انطلق عيسى عليه السلام و المهدي و معهم المؤمنون بعوائلهم و أبنائهم، تركوا خلفهم بيت المقدس و ساروا باتجاه جبل الطور، قبل ذلك انطلق جيش من المسلمين باتجاه الهند و كان بينهم عبد الله ابن المهدي معه أخاه الأصغر عبد الرحمن، كان المهدي مشغول البال على أبنائه، ليس خوفا عليهم من الاستشهاد في سبيل الله، بل كان يخاف أن يتقاطع خروج هذا الجيش من المسلمين مع خروج يأجوج و مأجوج فتكون نهاية هذا الجيش قبل وصوله الهدف و إخماد الفتن التي ظهرت في بلاد الهند، أمرهم و المسيح عليه السلام بأن يسيروا عبر الجزء الشمالي من الجزيرة العربية و بعد ذلك بمحاذاة الخليج العربي ثم بمحاذاة بحر العرب ليدخلوا بعدها بلاد الهند، كانت صفاء تركب الهودج فوق الجمل مع بناتها و ظلت تراقب المهدي خلسة من خلال غطاء الهودج، كانت ترى في وجهه علامات القلق، ظلت تفكر انه ربما ما يزال غير مقتنعا بقرار مرافقة المسيح عليه السلام إلى جبل الطور و إنما قيادة ذاك الجيش المتجه إلى بلاد الهند، حاولت سؤاله و لكنه لم يفصح السبب، بالطبع، هو لن يقول لها عن مخاوفه عن احتمالية تقاطع الجيش مع خروج يأجوج و مأجوج، هو يعرفها، بالكاد تمسك نفسها، و لو اخبرها شيئا كهذا

لكانت عارضت بشدة خروج ابنيها في هذا الجيش، فهي و إن تكن قد تخلت عن كثير من خصوصية الأنثى لكنها أم و من الصعب أن نطلب من الأم التخلي عن هذه الخصوصية، رغم كل ما زعمته قولا بلسانها عن تمنياتها لولديها بالنصر أو الشهادة، ففي قلبها كانت تقول عودوا إلي منتصرين سالمين، و كان المهدي يقول موعدنا الحوض عند حبيبنا محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم إنشاء الله.

فيما كان المهدي يركب جواده و يسير بجانب المسيح عليه السلام، قال: لقد كانت لي أبحاث في ذو القرنين و إني وجدت بعض الشبه بينه و بين نبي الله سليمان، قال المسيح عليه السلام: ش يء مثير للإعجاب ! فما وجه الشبه الذي وجدت ؟ قال: الأول: أُعطي سليمان عليه السلام القدرة على فهم غريب اللغات ، وفهم ذو القرنين هؤلاء الذين لا يُفهمون أحداً ، كما في قوله تعالى " لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلً " ، لعجمة ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم، وقد أَعطى اللهُ ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به ألسنة أولئك القوم، و لما طلب منه أخذ الأجر امتنع ذاكراً فضل الله عليه "ما مكني فيه ربي خير" ، وقال الله عن سليمان عليه السلام: " فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ" و الثالث : أيده الله بالملك العظيم وخوارق العادات وهيأ له من الأسباب ما بلغ به مطلع الشمس ومغربها ، وبنى بها السد العظيم ، و الرابع : في إسناده هذا الخير إلى الله ، فلما فرغ من بناء السَّد قال : " قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي" ، أي من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء والصالحين إذا مَنَّ الله عليهم بالنعم الجليلة ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم قال : "هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر" .بخلاف أهل التجبُّر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار تزيدهم أشراً وبَطَراً، كما قال قارون – لما آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحة لتنوء بالعصبة أولى القوة– " قال إنما أوتيته على علم عندي" ،

نظرا المسيح عليه السلام منبهرا من تحليل المهدي، و قال: صلى الله عليك يا أخي يا محمد يا رسول الله، بهذا نلت الدرجات العلا عند المولى عز و جل، سأل المهدي: هل تعرف أصلهم ؟ قال: المسيح عليه السلام هم من بني نوح عليه السلام ونوح عليه السلام له ثلاثة من الأولاد سام و حام ويافث، فسام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك، قال المهدي: صدقت، والدليل قول الله تعالى عن نوح "وَجَعَلنا ذُرِيَّتَهُ هُمْ اَلْبَاقِين" و الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ولد لنوح سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم، وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد حام القبط والبربر والسودان، قال: صدقت و صدق رسول الله صلى الله عليه و سلم، سأل المهدي: هل تعلم كم عددهم ؟ قال المسيح عليه السلام: عددهم كثير، لاطاقة لأهل الأرض بهم، لذلك أمرنا الله بالخروج إلى الجبال، نجاة منهم، قال المهدي: اعرف حديثا عنهم، قال: فهاته، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله تعالى يوم القيامة، يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك: قم فابعث بعث النار من ذريتك، فيقول: يارب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. قال: فاشتد ذلك عليهم. قالوا يا رسول الله أَيُّنَا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبشروا، فإن منكم واحداً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً" وهذا الحديث يدل على كثرتهم، وعلى أنهم أضعاف الناس مراراً عديدة. ومما يدل على ذلك أن المسلمين سيوقدون من قِسِّي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين. وقال صلى الهس عليه و سلم: "إن يأجوج ومأجوج يموت منهم الرجل وأقل ما يدع من ذريته ألفا أو يزيدون"

خلف السَّد الحصين المنيع السميك الذي بناه ذو القرنين على قبيلتي يأجوج و مأجوج بسبب إفسادهم وشرورهم، كان يعمل رجالا، عراض الوجوه، صغار الأعين، صهب الشعور ، سواده يضرب إلى البياض أو الكدرة، كأن وجوههم المجان المطرقة أي التروس المستديرة، في هذه المرة يأذن الله خروجهم فَيُلْهِمَ الله أميرهم بأن يقول ارجعوا سنفتحه غداً إن شاء الله، حيث أنهم مُنْذُ حُبِسُوا في هذا المكان وهم يحاولون الخروج، ويحاولون كل يوم ثقب هذا السور لكي يخرجوا، حتى إذا كادوا أن يروا شعاع الشمس يقول الذي عليهم ارجعوا سنفتحه غداً فيرجعون ويأتون باليوم الثاني وإذا بالسد عاد كما كان حتى يقولوا إن شاء الله فَيُسَهِّلْ الله لهم الخروج، فيحفرونه ويخرجون على الناس من كل حدب ينسلون، يخرجون سراعا من الأماكن المرتفعة و ينتشرون بسرعة رهيبة في الأرض، منظر من الهمجية لم ترى مثله البشرية قبلا قط، فيغشون الناس، يأكلون الأخضر و اليابس، يأكلون كل ما يروه أمامهم، من دواب و شجر، من طيور و بشر، يشربون مياه الأنهار حتى تجف، يحرقون و يفسدون، يحطمون كل ما تقع عليه أعينهم و تصل إليه أيديهم، ينطلقون أفواجا رهيبة، كثيرة العدد و كأنهم أسراب الجراد ينتقل من حقل لحقل و من بلد لبلد فلا يترك البلد الذي كان به و به عرق اخضر أو قطرة ماء أو دابة أو إنسان إلا التهموا كل شيء، أعدادهم هائلة جدا حتى ليخيل للمرء أن الأرض لا تسعهم و أنهم من كثرتهم سيأكلون بعضهم بعضا، هم متوحشون و متمرسون في القتال بالوسائل البدائية والتقليدية فلا طاقة لأحد من البشر بقتالهم، نعم انه الشر الرهيب الذي حدث عنه رسول الله صلى الله عليه و سلم " وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ " هذا الشر أصبح واقعا الآن، رجال يشج رؤوسها بالفؤوس، نساء تقطع أعضائها و رقابها بالسيوف، أطفال و نساء تؤكل حية، و الصراخ و العويل يملأن المكان، و الدماء و الأشلاء تتجمع كبحيرات، وحرائق تأتي على كل شيء، و دمار يعم البلاد، يقتحمون المدن و القلاع، يدمرون القرى و المزارع، لا يسلم منهم

شئ، حيوانات تفر منهم مذعورة فلا تجد سبيل للهرب، تقع بسهامهم أو بأيديهم فتمزق و تنهش حية، مناظر فظيعة، دماء تسيل على وجوه و أجساد الهمجيين، اغتصاب جماعي و أكل للنساء المغتصبات، نعم انه الشر المستطير واقعا الآن على الأرض. وصلت طلائع الهمجيين إلى بحيرة طبرية، فخروا كلهم كالبهائم يشربون بأفواههم منها كما تشرب البهائم، شربوا حتى ما بقي في البحيرة قطرة ماء، فيمر أخر هذا الجيش الجرار من الهمجيين على البحيرة، نظروا في البحيرة، أو بالأصح القول مكان البحيرة، قالوا: قد كان هنا ماء ذات مرة، و للعلم فأن طول البحيرة ثلاثة و عشرون كيلو مترا و عرضها ثلاثة عشرة كيلومترا و عمقها 44 مترا، و أكملوا مسيرتهم في الأرض، يعيثون فيها الفساد و الدمار، و القتل و السلب و الفجور، إنهم امة خبيثة لا تعرف غير التدمير و الحرق في الأرض، فهل اسمهم مشتق من أجيج النار ؟ أو من الماء الأجاج، لشدة ملوحته، مما يدل على خشونتهم و همجيتهم ؟ أو من الأج و هو شدة العدو و الركض ؟ أو كل ذلك مجتمعا ؟ ثم يسيرون حتى يصلوا جبل الخمر و هو جبل بيت المقدس، فينظرون حولهم فلا يجدون احد من الناس أو الدواب قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ، بقي أهل السماء ! هلموا فلنقتل من في السماء، ثم يهز أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء، و يصنع الباقون مثله فيرمون بنشابهم إلى السماء فترجع مختضبة دماً للبلاء والفتنة.

في جبل الطور كان عيسى عليه السلام و المهدي و معهم المسلمين محاصرين في ذاك الجبل، يجدون من البلاء و الشدة و الجوع و الحاجة الش يء الكثير، حتى لو وجد احدهم رأس ثور لفرح به كمن وجد مائة دينار من الصحابة و ذلك لندرة الطعام ، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه، فيدعون ويسألون الله أن يخلصهم من هذه الفتنة، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، وهو نوع من الدي دان

يكون في انوف الإبل أو الغنم و يقتلها ، فيصبحون فرسى – قتلى- كموت نفس واحدة.

بينما كان يأجوج و مأجوج يتابعون رحلة الدمار و الفساد إذ بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، ترى الرجل منهم يسقط دون حس، يتساقطون قتلى بالآلاف، لا يلحق الشخص منهم أن يضع يده على رقبته ليتحسس ما حط عليها إلا و يسقط جثة هامدة، " و ما يعلم جنود ربك إلا هو " فيموتون بلحظة واحدة.

فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ؟ فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطنها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادي : يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز و جل قد كفاكم عدوكم ، ثم يهبط نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض، ويخرجون الناس من مدائنهم وحصونهم، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتفهم أي جثثهم الممتلئة دسما لشراهة اكلهم من البشر و الدواب و رائحتهم الكريهة، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت و هي الإبل الخراسانية، وهي جمال طوال الأعناق العظيمة ذات السنامين، فتحملهم فتطرحهم بالحفر العميقة و البحار، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مدر ولا وبر، يخترق البيوت المبنية من الطين القاسي و الحجر و كذلك بيوت الشعر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالمرآة الزلقة، صافية نقية و نظيفة، ثم يُقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فتأكل العصابة من المسلمين من الرمانة الواحدة، ويستظلون بقحفها و هو مقعر قشرها تشبيها بقحف الرأس، حيث تصبح الرمانة بحجم القبة أو الخيمة، ويبارك في اللبن – الحليب، حتى إن اللقحة من الإبل – الناقة – لتكفي الجماعة الكثيرة من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي

القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم مرعى إلا لحومهم فتشكر عنه كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط، ويستوقد المسلمون من أقواسهم و سهامهم وجعابهم سبع سنين.

حج المسيح

هل تغير وجه الأرض؟ هل عادت عذراء بكر مثلما كانت حين وطئها آدم عليه السلام أول مرة؟ كانت صفاء تجلس جانب المهدي، لافة ذراعها حول ذراعه، تحدق في الخضار الذي يملأ السهول و التلال و الوديان، تستمع إلى جريان الأنهار و تغريد الطيور، قالت: كم كان المنظر مؤلما و قاسيا قبل ذلك، و كم هو رائع و رومانسي الآن، قال: صدقتي، فهذا تصديقا لحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم " طوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح ، يؤذن للسماء في القطر، ويؤذن للأرض في النبات، فلو بذرت حبك على الصفا لنبت، ولا تشاح، ولا تحاسد، ولا تباغض" هنيئا للمسلمين، فقد اهلك الله يأجوج و مأجوج، وانتشرت البركات و الخيرات، وصفت النفوس، و وضعت الحروب أوزارها في الأرض إلى قيام الساعة، فلا حرب و لا قتال، و استخدمت السيوف كالمناجل، وتركت الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، ورفعت الشحناء والتباغض، والتحاسد، وصار الناس يدعون إلى المال فلا يقبله أحد، و أصبحت السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها، وصارت الدعوة واحدة لرب العالمين، و صار الثور أغلى من الفرس، لأنه يستعمل للفلاحة ،وصارت الفرس بالدريهمات لأنها لا تركب لحرب بعد اليوم.

قالت صفاء مرتعبة: انظر هناك أفعى قريبة من ذلك الوليد، يا ربي انه يمد يده في فمها، ستلدغه الآن، أين أمه منه؟ كيف تتركه وحيدا ؟ ألا تخاف عليه، قال: هوني عليك فلن تضره، قالت: يا لهدوئك ! كيف تكون هادئ هكذا ؟ قالت: انظر أليس ذاك بأسد يرتع مع الإبل ؟ أتراه سيهاجم احدها ؟ سيفترسه ؟ ألا تطرده، قال: لن يضرهم، و ذاك نمر مع البقر ! انظر إلى الصبية، يجرون خلف الأسود و كأنهم هررة، أنا ما كنت أجرؤ أن اجري حتى خلف الهرة، نظر إليها و ابتسم، قال: قطتي لا تجرؤ أن تجري خلف هرة، و ذاك انظر هناك، ألا يشبه هذا الكلب الذئب؟ لو لم يكن بين الغنم التي ترعى لحلفت بأنه ذئب، قال: بل هو ذئب، قالت: ذئب يرعى مع الغنم ؟ يا الله ! ما هذا الناموس الجديد ؟ أشياء لم نعتدها ! قال: أما سمعتي حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الحياة على الأرض بعد نزول المسيح و موت يأجوج و مأجوج، " وتنزع حمة كل ذات حمة، وتقع الأمنة على الأرض؛ حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره. وتفرُّ الوليدة الأسد فلا يضرّها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، ثم يقال : تكون الأرض كفاثور الفضة تنبت، نباتها بعهد آدم". مر المسيح بقرب دار المهدي، فوجدهم يجلسون على الشرفة، ألقى عليهم التحية، و ردوا عليه بأحسن منها ثم دعوه للدخول، قال: عزمت إنشاء الله على العمرة و الحج، فهل ترافقوني، قالوا نفعل و لنا الشرف، قال: فتجهزوا نسير مع الفجر إنشاء الله، و اخبروا جيرانكم فليتجهز كل من يريد مرافقتنا بالحج. بعد صلاة الفجر انطلق موكب كبير من الحجاج و المعتمرين، كلهم ينادي لبيك اللهم لبيك، كانت الطريق إلى الحجاز كلها خضراء و الأنهار تترقرق في كل مكان، ولا احد يخشى في سفره لصا أو قطاع طرق، مرو را بطريقهم على المدينة،

كانوا جميعهم بشوق للصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم، و الوقوف أمام قبره الشريف و السلام عليه و على صاحبيه رضوان الله عليهم و على الصحابة أجمعين، ما أن وطأت قدما المهدي المدينة، حتى اعتراه شوقا و نبضا غريبا مرافقا لرعشة سرت بجسمه لمراتع الطفولة، شعر بش يء غريب لم يشعره من قبل، شعر براحة نفسية عالية، بل روحية، لم تطول إقامتهم بالمدينة، فموسم الحج اقترب، و عليهم الانطلاق إلى بيت الله الحرام، إلى مكة، قضوا مناسك الحج و من كان منهم مقرنا الحج بعمرة قضى مناسك الاثنتين، كان يجلس عند أستار الكعبة، بين الركن و المقام، تذكر ذلك اليوم عندما كان متمسكا بأعتاب الكعبة يبكي، و الناس حوله تطلب مبايعته، يا الله كيف مرت السنين، بالأمس كنت هنا، لا ليس صحيحا، قد جبت الدنيا بين هذه الجلسة و تلك، قال: هل عدت من جديد، قلت: نعم، و هل أنا تركتك يوما لأعود ؟ قال: لم اجب الدنيا كلها، قلت: و لكنك فتحت كل الدنيا، أعدت الخلافة الراشدة للأرض، قال: لا تضخم الأمور، هي خمسة فتوحات كانت بفضل الله و تأييده و نصره، الجزيرة، المشرق، الملحمة الكبرى، القسطنطينية و الدجال، و كانت معركة الدجال بفضل الله ثم عيسى ابن مريم عليه السلام، قلت: اعرف، لن استطيع أن أحرك فيك الفخر، قلت: أين صاحبك ؟ قال: عن المسيح تسأل، قلت: لا، بل عبد الرحمن، قال: هنيئا له، كتبت له الشهادة إنشاء الله، فقد استشهد في معركة الدجال في بيت المقدس، قلت: اوا تغبطه، قال: بل فرحت لأجله و تمنيتها لي و لم يكتبها ربي لي، في تلك اللحظة اجتاحني شعور و رغبة عارمة بالولوج إلى داخله كما كنت افعل سابقا لأفهم ما يدور بخاطره، لأشعر كيف يشعر هو الآن، فقد رأيت شيئا جديدا بعيونه لم أعهده به قبلا، رأيت شيئا على وجهه لم أره من قبل، كانت نوع غريب من الابتسامة المعشقة بالطمأنينة و القليل من اللون الباهت، ش يء يشبه الغبار، حتى انني حرت بوصفها.

وداعا أيها المهدي

انتهى موسم الحج و غادر الحجاج بيت الله الحرام، في طريق العودة عرجوا على المدينة المنورة من جديد، فكثير منهم سيعود إلى الشام و ربما لا يرجع بعدها إلى المدينة المنورة، كان المهدي يصلي إلى جانب المسيح عليه السلام في الروضة الشريفة بين قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم و منبره، سجد للصلاة و طال سجوده، كانت صفاء مثلي قد لاحظت الغبرة المعشقة بالطمأنينة على وجهه في رحلة العودة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، كان قلبها يرتجف، كانت تساورها أفكار لا تريد حتى التفكير بها، يا الله، انه للمرة الثانية يصنع بها هذا، شعرت بحرقة و غصة في حلقها، شعرت بأن أنفاسها لا تخرج من صدرها، لاحظ المسيح عليه السلام طول سجود المهدي، انتهى من صلاته، وضع يده على عنق المهدي، تأكد له الخبر، مدد جثمانه على الأرض، و خلع عباءته و غطى الجثمان المسجى على الأرض، كانت صفاء مذهولة، كان الزمن قد توقف عندها، كانت تفكر الآن سيقوم واقفا و يأخذها بيدها للعودة إلى بيتهم القديم في المدينة، إلى بيتهم الذي بدئوا حياتهم معا به، حيث أحبوا بعضهم و أنجبوا الأطفال، و سمعت الكثير من قصائد الغزل التي كتبها لها في ذلك المنزل، الآن سيقوم و يدعوها للعب في حديقة المنزل، يطلب منها فنجان قهوة أو طعاما أو صحن فاكهة فيجلسون في تلك الحديقة و تطعمه بيدها كما كانت تفعل و يفعل هو أيضا، كادت أن تسقط ما عادت قدامها تحملان جسدها الخفيف، اشتدت الغصة في حلقها و امتلأت تلك العينان السودوان بالدموع من جديد، دموع تتراكم و لكنها لا تسقط، دموع تحجب عن عيونها الرؤيا، كم تحجب الغصة بحلقها النفس، عرفت أنا الآن لماذا كان عبد الرحمن متسمرا كالخشب إلى الجدار، عرفت سر بكائه كالأطفال، طارت

صفاء بمخيلتها مع الذكريات، عادت إلى تلك الغرفة في المشفى، و عدت معها، مرت أيام المستشفى بسرعة رهيبة أمام عيونها، مرت كل الآلام التي شهدتها هناك، كذلك الأفراح التي حصلت بعدها، تذكرت يوم خطبتها، كيف كانت تشعر بالخجل و بالفرح معا، كيف كانت تخبئ فرحها العارم خلف خجلها كي لا يفتضح أمرها، تذكرت نفسها بفستان الزفاف الأبيض، و أول ليلة، كيف كان هادئا، كيف كان صديقا، حنونا عطوفا، تذكرت الم أول ولادة، سمعت صرخاتها في تلك الولادة و الولادات التي تلتها، تذكرت انتقاء أثاث المنزل معه، و ترتيب الغرف، و اجتماعهم على مائدة الطعام، و كيف كان يحل العيد بمنزلهم، تذكرت أن أيامها معه كلها أعياد، تذكرت كيف كانت تقسو عليه في بعض الأحيان، خجلت من نفسها، ازدرت نفسها، تذكرت الكلام الرقيق العذب الذي كان يسمعها إياه باستمرار، و كيف أنها كانت تبخل عليه بالكلمات، هي تحبه لدرجة الوجد و الوله، لكنها كانت تشعر بنوع من الخجل أو الحرج في البوح بمكنونات قلبها و روحها بما فيهم من عشق له، قالت: انتظر، لا ترحل، لم أخبرك بعد كم أعشقك، لم أخبرك بعد بكل ما في قلبي، اسودت الدنيا، شعرت بدوخة و سقطت مغشية عليها، كنت أراقبها و كدت أن اسقط معها مغشيا علي لولا أن المسيح عليه السلام وقف و قال: أيها الناس، إنا لله و إنا إليه راجعون و تلا قوله تعالى : " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" و " يغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ"، هذا إمامكم قد قبضه الله إليه، ترحموا عليه و اطلبوا له الرحمة و المغفرة، ومن كان يطلبه بشيء فليأخذه مني، تجمع الجميع حوله من أرجاء المسجد، و الكل يردد رحمة الله عليه، نعم الخليفة هو، نشهد الله و نشهدك انه كان خير خليفة على الأرض بعد الراشدين الأربعة، نشهد الله و نشهدك انه أدى

الأمانة على أكمل وجه، و حكم فينا بالقسط و العدل حتى ملئ قلوبنا بعدله بعد أن ملئت الأرض ظلما و جورا، و نشر الله على يديه و يديك الخير فعم جميع البلاد و العباد فأسقانا الغيث بعد جفاف و انبت الأرض بعد يباس، و نشهد الله و نشهدك انه كان يعطي المال صحاحا، وأن امتنا عظم أمرها على يديه، نشهد الله و نشهدك اننا راضون عنه تمام الرضا، و نسأل الله أن يرضى عنه أهل السماء كما رضينا عنه و أن يتقبله بغامد رحمته و يجعل مثواه بفسيح جنانه إلى جانب جده نبينا رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: اللهم آمين أمين، وأردف قائلا: هلموا فساعدوني نحمله فنجهزه للدفن، بينما هم يحملونه، كانت بعض النسوة يحاولن أن يجعلن صفاء تستيقظ، و لما فقدوا الأمل من إيقاظها حملوها إلى البيت.

كان جسده مسجى على المغتسل و المسيح عليه السلام يغسله بيديه، بعد أن أكمل تغسيله و طيب جسده بالمسك و العنبر و الورد الطائفي، لفه بالكفن الأبيض، و سأل إن كانت صفاء قد استعادت و عيها و ترغب أن تنظر إليه النظرة الأخيرة، دخلت صفاء الغرفة التي كان بها جسد المهدي مسجى ملفوفا بكفنه الأبيض، كانت ساقيها لا تحملانها على السير، كانت ترتجف غائرة في حزن ممزوج بانفعال و غضب، قال المسيح عليه السلام: لو كان مسافرا و عاد إليك، إلى بيته و أولاده، كنت لتحزني أو تفرحي بعودته ؟ قالت: و الشفاه ترتجف ممتزجة بالدموع و بكلام غير واضح، لكنه مفهوم، ليعود و سأفرح، ألست تحيي ا لم وتى بإذن الله ؟ ذهل المسيح، قال: كانت هذه من معجزات النبوة التي أرسلت بها، لكنني الآن لم أتي بنبوة أو رسالة، لا تكفري بالله و تعترضي على قضائه و قدره، و أردف قائلا: إن بيتنا في الجنة يا أختاه، ليس بيتنا على هذه الأرض، إن حياتنا في الجنة، و ما وجودنا على الأرض إلى اختبار نجتازه لنستحق به نعيم الجنة الأبدي، يا أختاه، ما الحياة الدنيا، إلا كشجرة مر بها راكب و استظل بظلها و مضى، وتذكري قول الرسول صلى الله عليه وسلم "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" و إني

مبشرك، أن موعدكم الحوض إنشاء الله، بكت صفاء بشدة، أخيرا انهمرت دموعها، أخيرا ابتدأ كربها ينحل شيئا فشيئا، أخيرا بدأت نفسها تقتنع انه رحل عن الحياة الدنيا، قال: سأتركك لبعض الوقت وحدك معه و بعدها نصلي عليه و ندفنه، بكت أكثر من قبل، ما أن خرج المسيح عليه السلام من الغرفة، حتى ارتمت برأسها فوق وجهه و انهالت عليه بقبلات تزرعها فوق وجهه كله، مرددة: كيف تتركني وحيدة، لمن تتركني، ماذا يكون بعدك بي، لو أن الله يرحمني من هذا العذاب و يأخذني معك، غسلت وجهه بدموعها، كانت ستظل على هذه الحال حتى صباح اليوم التالي، فأما تهلك معه و أما تنام، غير أن طرقا على الباب أعاد إليها بعضا من رشدها، قالت: حالا، حالا، رتبت غطاء رأسها و مسحت الدموع عن عيونها و خرجت، قال المسيح: يحق لك البكاء ثلاثا و لكن لا تولولوا و لا تزيدي عن ثلاث، بل اطلبي له الرحمة و المغفرة و كذا فليفعل الباقون، مدد جسده في التابوت و وضع التابوت أمام المصلين، و آم المسيح عليه السلام الناس للصلاة الحاضرة ثم الصلاة على فقيد الأمة، لم يبقى إنسان في المدينة إلا و حضر هذه الصلاة و هذه الجنازة، الكل اغرورقت أعينهم بالدمع و منهم من لم يتمالك نفسه فأفلت بعض شهقات البكاء، حمل النعش على أكتاف الرجال حتى وصلوا المقبرة، وضعوا جسده في اللحد و لقنه المسيح الشهادتين و إذا جاءك الملكان... إلى أخر التلقين و دعا له بالرحمة و المغفرة و الناس تؤمن خلفه و ذكر محاسنه و أهال التراب على وجهه، قائلا موعدنا الجنة إنشاء الله، نعم الصديق أنت، عادوا و نصبوا خيمة كبيرة للعزاء و الكل ممتلئ حزنا على إمامهم.

بعض انقضاء الأيام الثلاثة، أرسل المسيح عليه السلام رسولا لصفاء يبلغها بأنه ينوي العودة إلى بلاد الشام فأن كانت ترغب باللحاق بهم، فلتكمل عدتها و تفعل، قالت: إنشاء الله سأفعل ما يريد لي.

موت المسيح عليه السلام

كانت صفاء تجلس بدارها بالمدينة مع بنت من بناتها الاثنتين، و حولها العديد من الأحفاد و الحفيدات و حتى أبناء و بنات الحفيدات، هي اعتادت طول غياب ولديها، على الأغلب هي متأكدة أنهم استشهدوا، فقد مر ما يقارب الأربعون سنة إلا قليل من وقت رحيلهم، لكنها لا تعترف بذلك صراحة، تظل تؤمل نفسها أنه ربما في يوم من الأيام سيدخلون عليها يحيونها و يداعبونها كما اعتادوا أن يفعلوا من قبل، كانت كل ما تفعله بحياتها في الفترة الأخيرة هو قراءة القرآن والصلاة و التأمل و الذكر، كانت تسهر قائمة الليل حتى الفجر فتصليه و تأخذ قسط من النوم، لاحظت أن وقت ما بعد العصر و حتى الغروب كان مميزا لها، فهي لا تفعل به شيء إلا إذا طلب احد منها شيئا، وكانوا على الأغلب لا يطلبون بهذا الوقت شيئا لأنهم شعروا بخصوصيته لها، كانت فقط تجلس صامتة تتأمل، أم تراها تذكر ربها ؟ أم تستعيد ذكرياتها، أم كانت تناجيه؟ لمع سؤال غريب بذهني اللحظة، من يا ترى تناجي ؟ إذا كانت بالفعل تناجي ؟ ربها ؟ أم زوجها ؟ كم وددت أن اعرف جوابا لهذا السؤال، كم وددت لو أنني قطعت وحدتها و حادثتها كم كنت افعل سابقا، كم تمنيت لو أنني اقرأ ما يجول بخاطرها وقت العصاري ذاك ! لكنني و لشدة ما كانت تبدو هائمة بذلك الوقت، لشدة ما كان يبدو لها مميزا، و لشدة ما كانت هادئة في تلك الخلوات، قررت أن احترم خلوتها و رغبتها و لا أتدخل أبدا بشؤونها و لا بشؤون غيرها، غير أن الحشرية لم تتركني، سمحت لنفسي فقط برؤية ما تقرأ، كان احد كتبه، مكتوبا بخط يده، رغم أن خطه ليس جميلا، لكنه مفهوم، و المؤكد أنها تعشق الخط، تعشق الحروف، لأنها منه، لأنها نبض أصابعه، و نتاج فكره، و مشاعره، تذكرت مرة بعد الزفاف، قرأت قصيدة له كانت تبدأ، بـ " أنا

الكلمات لا أعرف لمن أكتب" فكانت كل مرة تسأله بعدها في كل مناسبة شعرية، هل ما زالت كلماتك حائرة لا تعرف لمن تكتب يا سيد الكلمات؟ و كان يرد دائما، من بعدك يا شقيقة الروح و نصفي الآخر و مليكة القلب أصبح للكلمات و للمشاعر و للوجد عنوان واحد الآن و حتى يفرقنا الموت، اسمه حبيبتي صفاء، يا شد ما تكابده من هذه الذكريات، صحيح أنها أصبحت عجوز، بلغت من الكبر عتيا، لكن لا يزال الصفاء بوجهها، رغم الحزن المستديم بعيونها، لا يزال يخيم لمسة نورانية تنم عن الرضا بالحال، لا تزال تنتظر ذلك الوعد، اللقاء به على الحوض، أن يعيش الإنسان أربعين سنة ينتظر لقاء حبيبه، و يطالع كل يوم نفس الكلمات، هل تراها تعيش بالماضي؟ أم تستعين بذكرياتها لتتمكن من تمرير الأيام؟ أم تراها تجد في الخيال مهرب لها من وحدة الأيام؟ هل كل هذا الحب و الوفاء بقلبك يا صفاء؟ كانت قد خطبت من بعدها عدة مرات، لكنها في كل مرة كانت ترفض الخطبة، كانت تقول بنفسها: ليس هناك على الأرض من رجل يقوم مقام حبيبي، ليس هناك في القلب من مكان لشخص آخر غير حبيبي، طبعا على مستوى البشر، فكان حبها لله عز و جل و لرسوله صلى الله عليه و سلم يتعاظم كل يوم عن يوم، كذلك حبها لأحفادها وأحفاد أحفادها، هي بالطبع لم تتصوف، فهي لا تقوم بأعمال المتصوفة أو حركاتهم أو أذكارهم، هي لم تعتزل الحياة بشكل كلي، هي تتابع شؤون العائلة و لو ليس بكل التفاصيل الصغيرة، و لكن أحبت العيش وحيدة تنتظر اجلها للحاق به، في تلك السنين عادت المدينة خالية إلا من بعض الناس، و لكن الأمن و الخير كان وفير وفي كل مكان، في زمن حكم المسيح عليه السلام فاض الخير من كل أشكاله و عاش الناس بأمن و رخاء و لم تقم عداوة أو بغضاء أو شحناء بين الناس أبدا، عاش المسيح في الأرض أربعين سنة، ثم توفى، فصلى عليه المسلمون و دفنوه، و صلتها الأخبار بعد مدة من وفاته، فترحمت عليه و تذكرت حديثه معها و كيف واساها بموت زوجها، و كيف أعادها إلى جادة

الصواب بعد أن كادت ترفض قضاء الله و قدره، بكت على الاثنين من جديد و ثم قالت: إنا لله و إنا إليه راجعون، و للصدفة في ذلك اليوم حين وصلها خبر وفاة المسيح كانت تقرأ في كتاب جمعته من خطب زوجها عن الموضوع و تحديدا عن الجزئية المتعلقة بمريم بنت عمران، إنه لأول مرة في تاريخ البشرية الطويل منذ أن خلق الله آدم من تراب ينسب نبي لأُمِه، مريم هي الأنثى الوحيدة في الوجود كله التي اختصها الله من بين النساء قاطبةً ليودعها سره الأكبر في أصفى حمل وأعجز ميلاد، فمريم هي الفتاة العذراء النقية التقية التي اصطفاها الله جل في علاه من بين نساء العالمين فنفخ فيها من روحه ومنحها هذه المكانة العالية من بين أمهات الدنيا جمعاء، فأمها حنة بنت فاقود وصلت إلى سن اليأس، فتمنت على الله أن يرزقها الولد، والله على كل ش يء قدير فاستجاب الله دعاءها وابتهالها إليه، فتحرك الحمل في أحشائها بقدرة من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السموات بقدرة من يقول للشيء كن فيكون. فلما تحرك الحمل في أحشائها أحبت أن تشكر الله على هذه النعمة فقالت: "رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيم "، نَذَرَتْ ما في بطنها لله عز وجل "أي لخدمة بيت المقدس"، جزاء على ما رزقها هذه النعمة. بعد ما وصلت لهذه السن.. وبعد مرور أشهر الحمل وضعت بنتا جميلة، فنظرت إليها بحزن وقالت "رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ "، فقالت حنة: رباه إني وضعتها أنثى وأنت أعلم مني بما وضعت أي: أنت الذي رزقتني وقدرت لي ذلك، فليس الذكر كالأنثى في القوة والجلد وخدمة الأقصى وإني يا رب أعيذها بك من شر الشيطان وذريتها – وهو ولدها عيسى بن مريم فاستجاب الله لها، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " ما من مولود يولد، إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه" ، "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا " أي إنه تقبل نذر

أمها حنة وجعل شكلها مليحاً وأعطى لها منظراً بهيجاً وييسر لها أسباب القبول وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فلهذا قال: "وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا " ما ذلك إلا لأنها كانت يتيمة ويقال أنها كانت سَنَةَ جَدْبٍ فكفلها زوج خالتها لكي تكون تحت رعاية خالتها وحنانها ولا منافاة بين القولين، وقيل أنه زوج أختها وقد ذكر القرآن لنا أيضا "وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ "، فحين خرجت بها حنة إلى بني الكاهن بن هارون أخا موسى عليهما السلام. وقالت هي نذيرة، ولا يدخل المسجد حائض، ولكني نذرتها، وأنا لا أردها إلى بيتي. فقال زكريا: ادفعوها لي فخالتها تحتي، فقالوا: بذلك تطيب أنفسنا لأنها ابنة إمامنا. وقالوا: نقترع وبالفعل اقترعوا ،فما هي القرعة؟! أن يرموا الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة في نهر الأردن وقالوا أي قلم يثبت ولا يجري مع التيار بل يعاكسه هو كافلها وبالفعل حدث ووقع ذلك على قلم واحد،... ترى من صاحب هذا القلم؟ ! إنه زكريا عليه السلام... وذلك لحكمة يعلمها الله... ويعلمها لنا ألا وهي لتتعلم مريم وتقتبس من النبي الزكي زكريا عليه السلام العلم والفقه وكان إمامهم وكبيرهم وسيدهم وعالمهم ونبيهم حين ذاك، قال تعالى: " كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا " ، تعجب زكريا من هذا الطهر والزهد والعفاف والتوحيد الذي وصلت به مريم البتول إلى مكانة عالية عند الله عز وجل فكلما دخل عليها وجد عندها رزقا، ثم قال لها زكريا عليه السلام: "يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا " أي من أين لك هذا الرزق؟! قالت البتول الطاهرة: "هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ " أي ذلك لا دخل للمخلوق فيه بل هو من الخالق، وهو يرزق من يريد بغير حدود تحده، اصطفى الله مريم في بستان الورع، هذه هي النبتة الطيبة، وبشرها بهذه البشارة التي انفردت بها دون نساء العالمين ويا لها من بشارة يا لها من خصوصية اختص الله بها الطاهرة..

إيه يا مريم.... إيه بماذا اختصك ربك؟ !

يقول الملك: "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ" يا لها من مكانة آثرك بها الله دون نساء الدنيا يا مريم! ، فلم تتوان مريم عن عبادة الرب فظلت البتول ساجدة وراكعة حتى أراد الله عز وجل أن يمنحها تلك المكانة الرفيعة من بين أمهات الدنيا، قال تعالى: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ، قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا "، وفي يوم من الأيام خلت مريم لنفسها كما اعتادت، وفجأة أنحبس صوتها وشخص بصرها ،إنها مفاجأة مذهلة تأخذ بالعقول بل وتصدع الأفئدة، بشر سوي في خلوة العذراء البتول الطاهرة. وسرعان ما استغاثت برب الأرض والسموات ولجأت إليه بشدة وقالت: "أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا "، لم تقل أعوذ بالجبار منك ولم تقل أعوذ بالغفار منك وإنما استجاشت الرحمة في قلبه بذكر الرحمن فقالت أعوذ بالرحمن منك، أي ارحم ضعفي! ولكن قدر الله لها مفاجأة أعظم. أن أنطق هذا البشر السوي في خلوة البتول الطاهرة ليقول لها: لا تخافي ولا تحزني فأنا رسول ربك إليك "لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا" قالت: " أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا " لم أكنْ أبداً صاحبة فاحشة، فهي لم تتصور مطلقا وسيلة للإنجاب غير وسيلة التقاء الرجل بالمرأة وهي لم تتزوج بعد، ولم تفكر أيضا ألبته في الرذيلة، وهنا يأتي الرد القاطع الحاسم فيقول الملك والرسول الكريم "قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا". فهنا يقول المولى عز و جل " وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ " ، فهنا حدث أمر غير مألوف ما اعتادت عليه الخليقة "فَنَفَخنَا فِيهَا مّن رُوحِنَا " لتنجب

عيسى عليه السلام، أي نفخ الملك جبريل في أعلى القميص بأمر من الله عز وجل وهذا ليبين للخلق طلاقة قدرة الخالق، إنها قدرة لا تحدها حدود "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " ، فلا تفكر بعقلك القاصر البتة لتصل إلى منتهى قدرة الملك، "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" فالله لا يعجزه ش يء في الأرض ولا في السماوات، فمن الذي خلق السماء بغير عمد ترونها؟!، من الذي خلق الأرض وشق فيها الأنهار والبحار وزينها بالأشجار؟ من الذي خلق سنبلةَ القمح وغلفها بهذه الأغلفة الحصينة المكينة؟ وجعل فوق كل حبة شوكة؟؟ ولم جعلها هكذا؟ ! لأن الله قدر أن تكون هذه الحبة قوتاً لك أيها الإنسان دون الطيور أو غير ذلك !! من الذي خلق كوز الذرة ورصَّ على قولحته هذه الحبات اللؤلؤية البيضاء بهذا الجمال والإبداع؟!! ومن الذي خلق الإنسان بهذا والجمال والإبداع؟! هو الله.... !!! هو الله... !!! هو الله...!!!

" قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا " انتهى الأمر وقدره الله عز وجل، هو الذي خلق الخلق.. خلق آدم يوم خلقه بلا أب أو أم!! و خلق حواء من ادم بلا أم، وكذلك خلق عيسى من أم بلا أب!! ليكون للناس دليلا على طلاقة قدرة الخالق، قال تعالى: "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ"، ولقد ظهر الحمل.. والراجح أن الحمل بعيسى كان حملا عاديا تسعة أشهر وأنه لا ريب أن الله عز و جل كان قادراً ولا زال سبحانه على أن تحمل مريم بعيسى وتضعه في لحظة واحدة، ولكن أراد الله بها أن يختبر مدى صبرها ومدى تحملها على هذا الابتلاء العظيم التي لا تستطيع أن تقدر عليه إلا مريم ابنة عمران العذراء البتول، فهذا من تمام الابتلاء، وبدأت بوادر الحمل تظهر على الطاهرة، وهنا نظر يوسف النجار – ذلك الرجل الذي كان يخدم بيت المقدس –

إلى بطن الطاهرة تعلو يوما بعد يوم ويتعجب ولكن كثيراً ما كان يدفع أي خالجة تمر بذهنه لعلمه بطهر البتول، ولكن ها هي جبلة البشر قد غلبته، وما استطاع أن يكتم هذه الخوالج عن لبه فقال لها: يا مريم إني سائلك عن شيء ولكن لا تعجلي علي، فقالت الطاهرة العذراء: سل ما شئت يا يوسف وقل قولاً جميلاً . فقال لها يوسف: هل ينبت زرع بلا بذر؟! وهل ينبت شجر بلا غيث أو مطر؟ ! وهل يكون ولد بغير أب؟!!! فقالت مريم: نعم يا يوسف هو كذلك. قال: وكيف يكون ذلك يا مريم؟!! قالت: ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم أنبته من غير بذر!! وأنبت الشجر يوم خلقه بغير غيث أو مطر، وخلق آدم يوم خلقه بغير أب أو أم!!قال يوسف: أعلم أن الله على كل شيء قدير! الله أكبر.. قال الله تعالى: "فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ، فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ، يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا" فقالت صفاء في نفسها عندما قرأت هذه الآية سلام عليك ايها المسيح وعلى أمك الطاهرة البتول و موعدنا الجنة إنشاء الله، إذن هكذا قال عيسى الذي ما زال في المهد لا حول له ولا قوة له إلا بالله أنا عبد الله، وأعطاني الإنجيل وجعلني نبياً، وأمرني بالصلاة، والزكاة ما دامت بي حياة، ومحسناً إلى العذراء أمي، ولم يجعلني من الجبارين في الأرض ولا من الأشقياء، وتكمل صفاء قصة عيسى عليه السلام ويقول عز و جل : "ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ، مَا

كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " ، تعالى الله عما قاله النصارى فالكمال صفة من صفاته! أيحق له أن يتخذ ولداً؟! ولِمَ يتخذ ولد وهو الغني عن خلقه ولن تغنى الخليقة عنه؟!! فالله هو الغني عن الولد والصاحب والزوج.

قالت صفاء بنفسها: لقد مرت السنين بسرعة كبيرة ولم أتمكن من مرافقة المسيح عليه السلام فترة طويلة، كانت تخادع نفسها، ليس بشأن رغبتها بمرافقة نبي الله المسيح عليه السلام، فهي تحبه و تجله كنبي عليه السلام، و لكن تخادع نفسها بخصوص مرور السنين بسرعة، لقد كانت على قلبها كأكثر من أربعين قرن، بينما هي تحادث نفسها و تعيش الذكريات، تس اءلت: لماذا المسيح ؟ لماذا هو بالذات من يعود إلى الأرض ؟ و يقتل الدجال، و يصلي خلف المهدي ؟ تذكرت قوله تعالى: " وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " ، إذن هو ينفي عن نفسه وأمه الربوبية كما ادعاها عليه النصارى، كما ينفي أن يكون قد قتل و صلب بل رفعه الله إليه، زعم اليهود أنهم قتلوا عيسى بن مريم وصلبوه، وزعم النصارى أن عيسى صلب وقتل ودفن وخرج من قبره بعد ثلاثة أيام وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الرب أبيه، وهو ينتظر إلى يوم الخلاص ليقضى بين الأحياء والأموات!!
"كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا "، فبين الله الحق وكذب اليهود والنصارى فقال سبحانه"وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًاوَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا" ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لما أراد الله أن يرفع عيسى خرج إلى بيت فيه اثنى عشر رجلا من الحوارين فقال: نبي الله عيسى: إن منكم من سيكفر بي بعد أن آمن بي، ثم قال لهم: أيكم يقبل أن يلقى عليه شبهى ليقتل مكاني ليكون معي في درجتي في الجنة فقام شاب أحدثهم سناً (أصغر الجالسين) فقال له: أنا، فقال: اجلس، فجلس، ثم أعاد عيسى القول مرة ثانية فقام نفس الشاب فقال له: اجلس فجلس، ثم أعاد عيسى قوله للمرة الثالثة فقام نفس الشاب فقال عيسى هو أنت فألقى الله على هذا الشاب شبه عيسى ورفع الله عيسى إلى السماء". وجاء الطلب من اليهود أي الذين يطلبون عيسى لقتله فأخذوا هذا الشاب فقتلوه فصلبوه فكفر بعض أتباع عيسى ممن آمنوا به كما ذكر لهم قبل قليل. ثم نزل عيسى بعد ذلك بأمر الله عز وجل لحكم عديدة: أن الله تبارك وتعالى نزل عيسى عليه السلام و كذب اليهود الذين زعموا أنهم قتلوه، و كذب النصارى الذين جهلوا هذه الحقيقة، وليبين للناس جميعا أن محمدا صلى الله عليه و سلم وأن الموحدين معه من أمته أولى الناس بعيسى عليه السلام لأنه سيحكم العالم كله بكتاب الله وبشريعة محمد رسول الله عليه و سلم. كما نزل عيسى عليه السلام ليموت في الأرض و يدفن فيها وهذا ما يؤكده قول الله تعالى: "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " والجواب أن الوفاة في الآية معناها الوفاة الصغرى وهي النوم كما في قوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ" ، "إنى متوفيك " أى ألقى الله عليه سِنَةً من النوم، وهذه هي الوفاة الصغرى باتفاق ثم رفعه الله عز وجل ثم نزله الله تبارك وتعالى في الوقت الذي

شاء، ثم نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض من السماء كعلامة من علامات اقتراب الساعة، بين الله عز وجل أنه رفع عيسى إليه إلى يوم الوقت المعلوم الذي سينزل فيه إلى الأرض مرة أخرى ليكون علامة كبرى من العلامات الدالة على قيام الساعة فقال في قرآنه: "وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ، وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ، إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرض يَخْلُفُونَ، وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ " أي نزول عيسى أمارة وعلامة على قيام الساعة، و هي علامة كبرى و قد كانت.

قال المصطفى صلى الله عليه و سلم قولاً عجيباً في نزول المسيح عليه السلام: " فيهلك في زمان عيسى الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله المسيح الدجال، وتنزل الأمنة في الأرض حتى ترعى الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم " وقد كان كل هذا. نعم والله هلكت كل الأديان إلا الإسلام "إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلام " .

الريح الطيبة

سمعت صفاء عن تولي القحطاني الحكم بعد وفاة عيسى عليه السلام، وكانت تعرف انه من الأشراط الكبرى للساعة و ليس بعده إلا الريح الطيبة و لقاء المحبوب فاستبشرت خيرا، سألت مخبرها هل الناس ينساقون وينقادون له ويهيمن عليهم بعصاه التي معه؟ قال: يفعل و يفعلون، و أردف قائلا: أن حكمه للناس لم يكن باختيار من أهل العقد والحل وإنما يكون على سبيل الغلبة والملك والحكم، هي لا

تعرف، ولا احد يعرف كم تكون مدة بقاءه، فهي غير محددة بزمن صحيح فربما يبقى أياما أو شهرا أو أكثر من ذلك، كل ما كانت تتمناه أن تكون سريعة.

كانت تجلس كعادتها وقت العصاري، تقرأ و تتأمل و تراقب الأحفاد، فإذا هي تعطس، هل أصيبت بزكام ما؟ تأملت حولها، يا الله ما هذا؟ الدخان يملأ السماء و يملأ الأرض كلها فتصبح كبيت أوقد فيه نارا و تكدس الدخان كتلا فوق بعضها حتى غص المكان به، ملأ هذا الدخان ما بين المشرق والمغرب، فأظلمت الدنيا لكثافته و حجب ضوء الشمس، إنها من الآيات العظمى ظهور دخان قبل قيام الساعة، فيأخذ بالمؤمنين كالزكمة ، ويدخل في منافذ الكفار والمنافقين فينتفخون حتى يخرج من كل جهة: من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره. ولا شك أن هذا ابتلاء من الله من جملة الابتلاءات لهذه الأمة في آخر الزمان ، لدرجة أن الرجل من الكفار لا يستطيع أن يمشي من الدوار و من يقوم ليمشي وسط هذا الدخان يشعر بدوخة كالتي تنتج عن قلة الأكل و الجوع و يرى الدنيا حوله مظلمة، عطست، فحمدت الله و شكرت، و نظرت حولها لترى حال عائلتها، الكل يعطسون، قالت: الحمد لله أن ثبتنا على الإيمان و استبشرت خيرا، وتلت قوله تعالى: "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ " ، نعم انه دخان واضح، إنها الآية من آيات الساعة، واضحة، و هي من الآيات الأخيرة، فلم يتبقى إلا الريح، كانت تشعر بقرب الرحلة، دخلت البيت و نادت كل أفراد عائلتها، طلبت من الجميع الاستحمام، و لبس ملابس جديدة و نظيفة، و جهزت الأكفان في مكان قريب، في لحظة فكرت أن تجعل الجميع يرتدون الأكفان، لكنها عدلت عن الفكرة، فهي لا تعلم بالضبط كم سيدوم الدخان و متى تأتي آية الريح الطيبة لتحملهم إلى حيث الأحبة، لكنها أبقت الأكفان قريبة منها، و لم تسمح لأحد بعد ذلك اليوم بمغادرة المكان، فهي تشعر باقتراب الأجل، طلبت من صهرها

و أحفادها أن يحفروا القبور بعدد الأشخاص في المنزل، و أرسلت تخبر من في الجوار، أن إذا متنا و بقي احد منكم فليدفننا، يا الله يا صفاء، تحفرين قبرك و تجهزين كفنك، أكل هذا الشوق بك؟ لم يمر وقت طويل، فمكث الدخان في الأرض أربعين يوماً حتى راقت الأرض و السماء من هذا الدخان و شعرت بنسمة لطيفة تأتي من الشمال، ريحاً باردة تأتي من قبل الشام ، ريحا الين من الحرير، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، كانت نفخات ثلاث خفيفة، و كأنها نفسا طبيعيا يخرج من فاها، لفظتها و أسلمت الروح إلى بارئها، و كذا كان حال باقي أفراد أسرتها.

مع هذه الريح الطيبة، لم يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل دخلت عليه الريح و قبضته، وبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.

هذه الريح الطيبة هي رحمة من الله فتقبض المؤمنين فلا يتعرضون للخوف و الفزع عند قيام الساعة، ولا يكونوا مع الأشرار و يتعرضون لفتن جديدة بعد كل ما لاقوه من فتن مرت عليهم و ثبتوا بها، كما أن قدر الله ماض، فسوف تهدم الكعبة و يرفع القرآن و لا يبقى على الأرض إلا الأشرار، فرحم الله تعالى المؤمنين بأن قبضهم إليه.

الأشرار وآخر الزمان

بعد هذا الانتشار العظيم للإسلام الذي عم مشارق الأرض ومغاربها، يقدر الله تعالى بأن يختفي الإسلام مرة أخرى وينتفش الشر ويظهر ويعلو، وذلك قبيل قيام الساعة، عندها يختار الله تعالى لهذا الدين أن يرفع من الأرض فيرفع القرآن ويذهب العلم فلم يبقى على وجه الأرض إلا شرار الخلق، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا". خلت الأرض من المؤمنين، و بقي أشرار الناس، فلا صلاة و لا صيام، و لا نسك و لا صدقة، و لا حج و لا عمرة، لا أمر بمعروف و لا نهي عن منكر، بل المنكرات بالطرقات و على مرأى من الجميع. وحتى هذه البقية الباقية التي سمعت أبائها تقول كلمة لا إله إلا الله تفنى وتبيد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يذهب الصالحون الأول فالأول، وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله بالة" . يسأل البعض ما الله ؟ فيرد آخر لا أدري، قد كان أجدادنا يقولوا هذه الكلمة. ترجع البشرية بعدها إلى جاهليتها الأولى أو أشد وتعود عبادة الأوثان، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: ما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان" يأتي الشيطان إلى مجموعة من الناس، يسألهم، ألا تسمعون و تنفذون ما أمركم به؟ فيقولون و ما تريدنا أن نفعل ؟ فيقول: تعبدون الأصنام، فقد كان أجدادكم يعبدونها، فيعبد الناس اللات والعزى و ذو الخلصة و هو صنم كانت تعبده قبيلة دوس في الجاهلية، فيعود الناس إلى الجاهلية مرة أخرى والى عبادة

الأصنام، و ترى اليات – دبر – نساء قبيلة دوس تضطرب و تتمايل من الدوران حول الصنم، و هذا ما خبر به رسول الله صلى الله عليه و سلم : " لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة" ، صدقت يا رسول الله، فها هم يطوفون حوله من جديد و أردافهن تتمايل،. ويتدنى المستوى الأخلاقي تدنياً هائلاً، فهولاء مجموعة يمارسون الفاحشة في الطريق، لا يهمهم احد من المارة إن راقبهم أو شاركهم و هذا تأكيد ما اخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير، قلت (راوي الحديث): إن ذلك لكائن؟ قال: نعم، ليكونن"، فالذي به قليل من خجل منهم يقول لمن يفعل الفاحشة في قارعة الطريق، خذ هذه المرأة إلى خلف الجدار و افعل ما شئت معها هناك و هذا أيضا اخبر به رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق فيكون خيارهم يومئذٍ من يقول: هلاّ واريتها وراء هذا الحائط".

طبعا، هذه هي حال الناس و يحكمهم رجل من الموالي، اسمه الجهجاه و لا يعرف غير الصياح، رجل من الخطأ إطلاق صفة الرجولة عليه، فهو من الجهال عديمي الفائدة، جل ما يهمه شهوته و الصياح على الناس بالشتائم و السب، وأخر ما يفكر به هو أمور الناس أو شؤون الدولة، فلا دولة و لا أي شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي، بل فوضى عارمة، الكل يفعل مايريد. تفنى قبيلة قريش عن بكرة أبيها و يستحل البيت الحرام من قبل أهله، فلا يعودوا يكنون له حرمة، ولا يقوموا على تنظيفه و العناية به ولا زيارته حتى، بل يستخدمونه لأعمالهم القذرة و شهواتهم.

يمر رجلا حبشيا، يسمى ذو السويقتين، و ذلك لصغر ساقيه و رقتهما، أسود البشرة أفحج- أي: متسع ما بين ساقيه و فوق ذلك، به اعوجاج بالمفاصل و كأنها

زالت من مكانها، أصلع الرأس لا شعر له، يضرب الكعبة بمسحاته – مجرفته و معوله و يهدمها حجرا حجرا و يجردها من كسوتها و يسلبها حليها، ولا احد يعترض عليه، و يستخرج كنز الكعبة و ينهبه و لا أحد يبالي.

النار التي تسوق الناس إلى محشرهم

إلى اللقاء بإذنه تعالى في " صاحب الشفاعة" عليه و على آله و أصحابه أجمعين أفضل الصلاة وأتم التسليم.

drarnous@gmail.com